غزوة بدر الثانية العظمى والكبرى

فأقام رسول اللّه ﷺ بالمدينة إلى رمضان من السنة الثانية، ثم بلغه أن عيراً لقريش فيها أموال عظيمة مقبلة من الشام إلى مكة معها ثلاثون أو أربعون رجلاً من قريش عميدهم أبو سفيان ومعه عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل، فندب عليه السلام المسلمين إلى هذه العير وأمر من كان ظهره حاضراً بالخروج، ولم يحتفل في الحشد لأنه لم يظن قتالاً، واتصل خروجه بأبي سفيان، فاستأجر ضمضم بن عمار الغفاري وبعثه إلى أهل مكة يستنصرهم لعيرهم فنفروا وأرعبوا إلا يسيراً منهم أبو لهب. وخرج ﷺ لثمان خلون من رمضان واستخلف على الصلاة عمرو بن أم مكتوم ورد أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير، ودفع إلى علي راية، وإلى رجل من الأنصار أخرى يقال كانتا سوداوين. وكان مع أصحابه ﷺ يومئذ سبعون بعيراً يعتقبونها فقط.

وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة من بني النجار، وراية الأنصار يومئذ مع سعد بن معاذ فسلكوا نقب المدينة مع سعد بن معاذ إلى ذي الحليفة ثم انتهوا إلى صخيرات تمام ثم إلى بئر الروحاء، ثم رجعوا ذات اليمين عن الطريق إلى الصفراء.

وبعث عليه السلام قبلها بسبس بن عمرو الجهني حليف بني ساعدة وعدي بن أبي الزغباء الجهني حليف بني النجار إلى بدر يتجسسون أخبار أبي سفيان وغيره. ثم تنكب عن الصفراء يميناً وخرج على وادي دقران، فبلغه خروج قريش ونفيرهم، فاستشار أصحابه، فتكلم المهاجرون وأحسنوا، وهو يريد ما يقوله الأنصار وفهموا ذلك. فتكلم سعد بن معاذ وكان فيما قال: لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك فسر بنا يا رسول اللّه على بركة اللّه فسر بذلك، وقال: «سيروا وأبشروا فإن اللّه قد وعدني إحدى الطائفتين».

ثم ارتحلوا من دقران إلى قريب من بدر وبعث علياً والزبير وسعداً في نفر يلتمسون الخبر فأصابوا غلامين لقريش، فأتوا بهما وهو عليه الصلاة والسلام قائم يصلي، وقالوا: نحن سقاة قريش! فكذبوهما كراهية في الخبر ورجاء أن يكونا من العير للغنيمة وقلة المؤونة، فجعلوا يضربونهما فيقولان: نحن من العير. فسلّم رسول اللّه ﷺ وأنكر عليهم، وقال للغلامين: أخبراني أين قريش؟ فأخبراه أنهم وراء الكثيب وأنهم ينحرون يوماً عشراً من الإبل ويوماً تسعاً. فقال عليه السلام: « القوم بين التسعمائة والألف » وقد كان بسبس وعدي الجهنيان مضيا يتجسسان الأخبار حتى نزلا بدراً وأناخا قرب الماء واستقيا في شن لهما ومجدي بن عمرو سيد جهينة بقربهما، فسمع عدي جارية من جواري الحي تقول لصاحبتها: العير تأتي غداً أو بعد غد فأعمل لهم وأقضيك الذي لك وجاءت إلى مجدي بن عمرو فصدقها، فرجع بسبس وعدي بالخبر. وجاء أبو سفيان بعدهما يتجسس الخبر فقال لمجدي: هل أحسست أحداً؟ فقال: راكبين أناخا فيما يلي هذا التل فاستقيا الماء ونهضا، فأتى أبو سفيان مناخهما وفتت من أبعار رواحلهما، فقال: هذه واللّه علائف يثرب فرجع سريعاً وقد حذر وتنكب بالعير إلى طريق الساحل فنجا وأوصى إلى قريش بأنا قد نجونا بالعير فارجعوا! فقال أبو جهل: واللّه لا نرجع حتى نرد ماء بدر ونقيم به ثلاثاً ونهابنا العرب أبداً.

ورجع الأخنس بن شريق بجميع بني زهرة وكان حليفهم ومطاعاً فيهم، وقال: إنما خرجتم تمنعون أموالكم وقد نجت فرجعوا. وكان بنو عدي لم ينفروا مع القوم، فلم يشهد بدراً من قريش عدوي ولا زهري.

وسبق رسول اللّه ﷺ قريشاً إلى ماء بدر وثبطهم عنه مطر نزل وبله مما يليهم وأصاب المسلمين دهس الوادي، وأعانهم على السير، فنزل عليه السلام على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة، فقال له الحباب بن المنذر بن عمرو بن الجموح: آللّه أنزلك بهذا المنزل فلا نتحول عنك أم قصدت الحرب والمكيدة؟

فقال عليه السلام: «لا بل هو الرأي والحرب»!. فقال يا رسول اللّه ليس هذا بمنزل، وإنما تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ونبني عليه حوضاً فنملؤه ونغوّر القلب كلها فنكون قد منعناهم الماء. فاستحسنه رسول اللّه ﷺ. ثم بنوا له عريشاً يكون فيه رسول اللّه ﷺ حتى يأتيه من ربه النصر، يريهم مصارع القوم واحداً واحداً، ولما نزل قريش مما يليهم بعثوا عمير بن وهب الجمحي يجذر لهم أصحاب رسول اللّه ﷺ، وكانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً فيهم فارسان: الزبير والمقداد، فجذرهم وانصرف وخبرهم الخبر، ورام حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة أن يرجعا بقريش ولا يكون الحرب، فأبى أبو جهل وساعده المشركون، وتوافقت الفئتان. وعدل رسول اللّه ﷺ الصفوف بيده ورجع إلى العريش ومعه أبو بكر وحده، وطفق يدعو ويلح وأبو بكر يقاوله ويقول في دعائه:

« اللّهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض اللّهم أنجز لي ما وعدتني » وسعد بن معاذ وقوم معه من الأنصار على باب العريش يحمونه وأخفق رسول اللّه ﷺ، ثم انتبه فقال: « أبشر يا أبا بكر فقد أتى نصر اللّه » ثم خرج يحرض الناس، ورمى

في وجوه القوم بحفنة من حصى وهو يقول: « شاهت الوجوه » ثم تزاحفوا فخرج عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد يطلبون البراز فخرج إليهم عبيدة بن الحرث وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب فقتل حمزة وعلي شيبة والوليد وضرب عتبة عبيدة فقطع رجله فمات وجاء حمزة وعلي إلى عتبة فقتلاه. وقد كان برز إليهم عوف ومعوذ ابنا عفراء وعبد اللّه بن رواحة من الأنصار فأبوا إلا قومهم.

وجال القوم جولة فهزم المشركون وقتل منهم يومئذ سبعون رجلاً فمن مشاهيرهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة وحنظلة بن سفيان بن حرب وابنا سعيد بن العاص عبيدة والعاص، والحرث بن عامر بن نوفل وابن عمه طعيمة بن عدي وزمعة بن الأسود وابنه الحرث وأخوه عقيل بن الأسود وابن عمه أبو البحتري بن هشام ونوفل بن خويلد بن أسد وأبو جهل بن هشام، اشترك فيه معاذ ومعوذ ابنا عفراء وجَدّه عبد اللّه بن مسعود وبه رمق فحز رأسه، وأخوه العاص بن هشام وابن عمهما مسعود بن أمية وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة وابن عمه أبو قيس بن الفاكه، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، والعاص والحرث ابنا منبه وأمية بن خلف وابنه علي وعمير بن عثمان عم طلحة.

وأسر العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحرث بن عبد المطلب والسائب بن عبد العزيز من بني المطلب وعمرو بن أبي سفيان بن حرب وأبو العاص بن الربيع وخالد بن أسيد بن أبي العيص وعدي بن الخيار من بني نوفل وعثمان بن عبد شمس ابن عم عتبة بن غزوان وأبو عزيز أخو مصعب بن عمير وخالد بن هشام بن المغيرة وابن عمه رفاعة بن أبي رفاعة وأمية بن أبي حذيفة بن المغيرة والوليد بن الوليد أخو خالد وعبد اللّه وعمرو ابنا أبي بن خلف وسهيل بن عمرو في آخرين مذكورين في كتب السير.

واستشهد من المسلمين:

من المهاجرين: عبيدة بن الحارث بن المطلب وعمير بن أبي وقاص وذو الشمالين عبد عمرو بن نضلة الخزاعي حليف بني زهرة وصفوان بن بيضاء من بني الحرث بن فهر ومهجع مولى عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه أصابه سهم فقتله، وعاقل بن البكير الليثي حليف بني عدي من الأنصار. ثم من الأوس: سعد بن خيثمة ومبشر بن عبد المنذر. ومن الخزرج: يزيد بن الحارث بن الخزرج وعمير بن الحمام من بني سلمة سمع رسول اللّه ﷺ يحض على الجهاد ويرغب في الجنة وفي يده تمرات يأكلهن فقال: بخ بخ أما بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم رمى بهن وقاتل حتى قتل، ورافع بن المعلى من بني حبيب بن عبد حارثة وحارثة بن سراقة من بني النجار وعوف ومعوذ ابنا عفراء.

ثم انجلت قريش الحرب وأمر رسول اللّه ﷺ بقتلى المشركين فسحبوا إلى القليب وطم عليهم التراب، وجعل على النفل عبد اللّه بن كعب بن عمرو بن مقدول بن عمر بن غنم بن مازن بن النجار، ثم انصرف إلى المدينة فلما نزل الصفراء قسم الغنائم كما أمر اللّه، وضرب عنق النضر بن كلدة من بني عبد الدار، ثم نزل عرق الظبية فضرب عنق عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية وكان في الأسارى ومر إلى المدينة فدخلها لثمان بقين من رمضان.

غزوة الكرز

وبلغ رسول اللّه ﷺ بعد رجوعه إلى المدينة اجتماع غطفان فخرج يريد بني سليم بعد سبع ليال من منصرفه، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري أو ابن أم مكتوم، فبلغ ماء يقال له الكرز وأقام عليه ثلاثة أيام ثم انصرف ولم يلق حرباً، وقيل إنه أصاب من نعمهم ورجع بالغنيمة، وإنه بعث غالب بن عبد اللّه الليثي في سرية فنالوا منهم وانصرفوا بالغنيمة. وأقام رسول اللّه ﷺ إلى ذي الحجة، وفدى رسول اللّه ﷺ أكثر أسارى بدر.

غزوة السويق

ثم إن أبا سفيان لما انصرف من بدر نذر أن يغزو المدينة فخرج في مائتي راكب حتى أتى بني النضير ليلاً، فتوارى عنه حيي بن أخطب ولقيه سلام بن مشكم وقراه وأعلمه بخبر الناس، ثم رجع ومر بأطراف المدينة فحرق نخلاً وقتل رجلين في حرث لهما، فنفر رسول اللّه ﷺ والمسلمون، واستعمل على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر، وبلغ الكرز وفاته أبو سفيان والمشركون وقد طرحوا سويقاً من أزوادهم ليتحففوا، فأخذها المسلمون فسميت لذلك غزوة السويق. وكانت في ذي الحجة بعد بدر بشهرين.

غزوة ذي أمر

ثم خرج رسول اللّه ﷺ في شهر المحرم غازياً غطفان واستعمل على المدينة عثمان بن عفان رضي ا لله عنه فأقام بنجد صفر وانصرف ولم يلق حرباً.

نجران

ثم خرج رسول اللّه ﷺ آخر ربيع الأول يريد قريشاً واستخلف ابن أم مكتوم فبلغ نجران معدناً في الحجاز ولم يلق حرباً. وأقام هنالك إلى جمادى الثانية من السنة الثالثة وانصرف إلى المدينة.

قتل كعب بن الاشرف

وكان كعب بن الأشرف رجلاً من طيء وأمه من يهود بني النضير، ولما أصيب أصحاب بدر، وبعث رسول اللّه ﷺ زيد بن حارثة وعبد اللّه بن رواحة مبشرين إلى المدينة، جعل يقول: ويلكم أحق هذا؟ وهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، وإن كان محمد أصاب هؤلاء فبطن الأرض خير من ظهرها. ثم قدم مكة ونزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي، وعنده عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص بن أمية، فجعل يحرض على رسول اللّه ﷺ وينشد الأشعار ويبكي على أصحاب القليب، ثم رجع إلى المدينة فشبب بعاتكة ثم شبب بنساء المسلمين. فقال رسول اللّه ﷺ : « من يقتل كعب بن الاشرف؟ » فانتدب لذلك محمد بن مسلمة وملكان بن سلامة بن وقش وأبو نائلة من بني عبد الأشهل أخو كعب من الرضاعة وعباد بن بشر بن وقش بن بشر بن معاذ وأبو عبس بن جبر من بني حارثة.

وتقدم إليه ملكان بن سلامة وأظهر له انحرافاً عن النبي ﷺ عن إذن منه، وشكا إليه ضيق الحال ورام أن يبيعه وأصحابه طعاماً ويرهنون سلاحهم. فأجاب إلى ذلك ورجع إلى أصحابه، فخرجوا وشيعهم رسول اللّه ﷺ إلى بقيع الغرقد في ليلة قمراء، وأتوا كعباً فخرج إليهم من حصنه ومشوا غير بعيد ثم وضعوا عليه سيوفهم، ووضع محمد بن مسلمة معولاً كان معه في ثنته فقتله. وصاح عدو اللّه صيحة شديدة انذعر لها أهل الحصون التي حواليه، وأوقدوا النيران، ونجا القوم وقد جرح منهم الحرث بن أوس ببعض سيوفهم فنزفه الدم وتأخر ثم وافاهم بجرة العريض آخر الليل وأتوا النبي صلى ا لله عليه وسلم وهو يصلي، وأخبروه ونفل على جرح الحرث فبرئ. وأذن للمسلمين في قتل اليهود لما بلغه أنهم خافوا من هذه الفعلة، وأسلم حينئذ حويصة بن مسعود، وقد كان أسلم قبله أخوه محيصة بسبب قتل بعضهم.

غزوة بني قينقاع

وكان بنو قينقاع لما انصرف رسول اللّه ﷺ من بدر وقف بسوق بني قينقاع في بعض الأيام فوعظهم وذكرهم ما يعرفون من أمره في كتابهم، وحذرهم ما أصاب قريشاً من البطشة، فأساؤوا الرد وقالوا: لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا يعرفون الحرب فأصبت منهم! واللّه لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس. فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾. وقيل: بل قتل مسلم يهودياً بسوقهم في حق، فثاروا على المسلمين ونقضوا العهد ونزلت الآية. فسار إليهم رسول اللّه ﷺ، واستعمل على المدينة بشير بن عبد المنذر، وقيل: أبا لبابة، وكانوا في طرف المدينة في سبعمائة مقاتل منهم ثلثمائة دارع، ولم يكن لهم زرع ولا نخل إنما كانوا تجاراً وصاغة يعملون بأموالهم، وهم قوم عبد اللّه بن سلام. فحصرهم عليه السلام خمس عشرة ليلة لا يكلم أحداً منهم حتى نزلوا على حكمه فكتفهم ليقتلوا، فشفع فيهم عبد اللّه بن أبي بن سلول وألح في الرغبة حتى حقن له رسول اللّه ﷺ دماءهم، ثم أمر بإجلائهم وأخذ ما كان لهم من سلاح وضياع، وأمر عبادة بن الصامت فمضى بهم إلى ظاهر ديارهم ولحقوا بخيبر، وأخذ رسول اللّه ﷺ الخمس من الغنائم وهو أول خمس أخذه، ثم انصرف إلى المدينة وحضر الأضحى فصلى بالناس في الصحراء وذبح بيده شاتين ويقال أنهما أول أضحيته ﷺ.

سرية زيد بن حارثة إلى قردة

وكانت قريش من بعد بدر قد تخوفوا من اعتراض المسلمين عيرهم في طريق الشام فصاروا يسلكون طريق العراق، وخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية واستجاروا بفرات بن حيان بن بكر بن وائل فخرج بهم في الشتاء وسلك بهم على طريق العراق، وانتهى خبر العير إلى النبي ﷺ وما فيها من المال وآنية الفضة، فبعث زيد بن حيان العجلي أسيراً فتعوذ بالإسلام وأسلم. وكان خمس هذه الغنيمة عشرين ألفاً.

قتل أبي الحقيق

كان سلام بن أبي الحقيق هذا من يهود خيبر وكنيته أبو رافع، وكان يؤذي رسول اللّه ﷺ وأصحابه ويحزب عليهم الأحزاب، مثلاً وقريباً من كعب بن الأشرف، وكان الأوس والخزرج يتصاولان تصاول الفحلين في طاعة رسول اللّه ﷺ والذب عنه والنيل من أعدائه، لا يفعل أحد القبيلتين شيئاً من ذلك إلا فعل الآخرون مثله. وكان الأوس قد قتلوا كعب بن

الأشرف كما ذكرناه، فاستأذن الخزرج رسول اللّه ﷺ في قتل ابن أبي الحقيق نظير ابن الأشرف في الكفر والعداوة، فأذن لهم. فخرج إليهم من الخزرج ثم من بني سلمة ثمانية نفر منهم: عبد اللّه بن عقيل ومسعر بن سنان وأبو قتادة والحرث بن ربعي الخزاعي من حلفائهم في آخرين، وأمر عليهم عبد اللّه بن عقيل ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة، وخرجوا في منتصف جمادى الآخره من سنة ثلاث، فقدموا خيبر، وأتوا دار ابن أبي الحقيق في علية له بعد أن انصرف عنه عميرة ونام، وقد أغلقوا الأبواب بعد أن أتوا كلما عليهم، وناداوه ليعرفوا مكانه بصوته، ثم تعاوروه بسيوفهم حتى قتلوه، وخرجوا من القصر وأقاموا ظاهرة حتى قام الناعي على سور القصر فاستيقنوا موته، وذهبوا إلى رسول اللّه ﷺ بالخبر. وكان أحدهم قد سقط من درج العلية فأصابه كسر في ساقه فمسح عليه رسول اللّه ﷺ فبرئت.

غزوة أحد

وكانت قريش بعد واقعة بدر قد توامروا وطلبوا من أصحاب العير أن يعينوهم بالمال ليتجهزوا به لحرب رسول اللّه ﷺ فأعانوهم، وخرجت قريش بأحابيشها وحلفائها وذلك في شوال من سنة ثلاث، واحتملوا الظعن التماساً للحفيظة وأن لا يفروا، وأقبلوا حتى نزلوا ذا الحليفة قرب أحد ببطن السبخة مقابل المدينة على شفير واد هنالك، وذلك في رابع شوال. وكانوا في ثلاثة آلاف: منهم سبعمائة دارع ومائتا فرس وقائدهم أبو سفيان ومعهم خمس عشرة امرأة بالدفوف يبكين قتلى بدر. وأشار ﷺ على أصحابه بأن يتحصنوا بالمدينة ولا يخرجوا وإن جاؤوا قاتلوهم على أفواه الأزقة، وافق ذلك على رأي عبد اللّه بن أبي بن سلول، وألح قوم من فضلاء المسلمين ممن أكرمه اللّه بالشهادة فلبس لامته وخرج.

وقدم أولئك الذين ألحو عليه وقالوا: يا رسول اللّه! إن شئت فاقعد. فقال: « ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل » وخرج في ألف من أصحابه، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة ببقية المسلمين بالمدينة. فلما صار بين المدينة وأحد انخذل عنه عبد اللّه بن أبي في ثلث الناس مغاضباً لمخالفة رأيه في المقام، وسلك رسول اللّه ﷺ حرة بني حارثة ومر بين الحوائط وأبو خثيمة من بني حارثة يدل به حتى نزل الشعب من أحد مستنداً إلى الجبل، وقد سرحت قريش الظهر والكراع في زروع المسلمين وتهيأ للقتال في سبعمائة فيهم خمسون فارساً وخمسون رامياً، وأمر على الرماة عبد اللّه بن جبير من بني عمرو بن عوف والأوس أخو خوات، ورتبهم خلف الجيش ينضحون بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من خلفهم، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير من بني عبد الدار، وأجاز يومئذ سمرة بن جندب الفزاري ورافع بن خديج من بني حارثة في الرماة وكان سناهما خمسة عشر عاماً، ورد أسامة بن زيد وعبد اللّه بن عمر بن الخطاب ومن بني مالك بن النجار زيد بن ثابت وعمرو بن حرام ومن بني حارثة البراء بن عازب وأسيد بن ظهير، ورد عرابة بن أوس وزيد بن أرقم وأبا سعيد الخدري وسن جميعهم يومئذ أربعة عشر عاماً. وجعلت قريش على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل.

وأعطى عليه السلام سيفه إلى أبي دجانة سماك بن خرشة من بني ساعدة وكان شجاعاً بطلاً يختال عند الحرب. وكان مع قريش ذلك اليوم والد حنظلة غسيل الملائكة أبو عامر عبد اللّه عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان من ضبيعة وكان في الجاهلية قد ترهب وتنسك، فلما جاء الإسلام غلب عليه الشقاء وفر إلى مكة في رجال من الأوس وشهد أحد مع الكفار، وكان يعد قريش في انحراف الأوس إليه لما أنه سيدهم، فلم يصدق ظنه، ولما ناداهم وعرفوه، قالوا: لا أنعم اللّه لك علينا يا فاسق! فقاتل المسلمين قتالاً شديداً وأبلى يومئذ حمزة وطلحة وشيبة وأبو دجانة والنضر بن أنس بلاء شديداً، وأصيب جماعة من الأنصار مقبلين غير مدبرين واشتد القتال وانهزم قريش أولاً، فخلت الرماة عن مراكزهم، وكر المشركون كرة وقد فقدوا متابعة الرماة فانكشف المسلمون واستشهد منهم من أكرمه اللّه، ووصل العدو إلى رسول اللّه ﷺ، وقاتل مصعب بن عمير صاحب اللواء دونه حتى قتل، وجرح رسول اللّه ﷺ في وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى بحجر، وهشمت البيضة في رأسه، يقال: إن الذي تولى ذلك عتبة بن أبي وقاص وعمرو بن قميئة الليثي. وشد حنظلة الغسيل على أبي سفيان ليقتله فاعترضه شداد بن الأسود الليثي من شعوب فقتله وكان جنباً، فأخبر رسول اللّه ﷺ أن الملائكة غسلته.

وأكبت الحجارة على رسول اللّه ﷺ حتى سقط من بعض حفر هنالك، فأخذ علي بيده واحتضنه طلحة حتى قام، ومص الدم من جرحه مالك بن سنان الخدري والد أبي سعيد، ونشبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه ﷺ فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح وعض عليهما فندرت ثنيتاه فصار أهتم. ولحق المشركون رسول اللّه ﷺ وكر دونه نفر من المسلمين فقتلوا كلهم، وكان آخرهم عمار بن يزيد بن السكن. ثم قاتل طلحة حتى أجهض المشركين وأبو دجانة يقي النبي ﷺ بظهره وتقع فيه النبل فلا

يترك، وأصيبت عين قتادة بن النعمان من بني ظفر فرجع وهي على وجنته، فردها عليه السلام بيده فصحت وكانت أحسن عينيه.

وانتهى النضر بن أنس إلى جماعة من الصحابة وقد دهشوا وقالوا: قتل رسول اللّه ﷺ فقال فما تصنعون في الحياة بعده! قوموا فموتوا على ما مات عليه. ثم استقبل الناس وقاتل حتى قتل ووجد به سبعون ضربة. وجرح يومئذ عبد الرحمن بن عوف عشرين جراحة بعضها في رجله فعرج منها. وقتل حمزة عم النبي ﷺ قتله وحشي مولى جبير بن مطعم بن عدي، وكان قد جاء له على ذلك بعتقه فرآه يبارز سباع بن عبد العزى فرماه بحربته من حيث لا يشعر فقتله. ونادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل، لأن عمرو بن قميئة كان قد قتل مصعب بن عمير يظن أنه النبي ﷺ، وضربته أم عمارة نسيبة بنت كعب من بني مازن ضربات فتوفي منها بدرعيه وخشع المسلمون لما أصابه ووهنوا لصريخ الشيطان. ثم إن كعب بن مالك الشاعر من بني سلمة عرف رسول اللّه ﷺ فنادى بأعلى صوته يبشر الناس ورسول اللّه ﷺ يقول له: « أنصت » فاجتمع عليه المسلمون ونهضوا معه نحو الشعب، فيهم أبو بكر وعمر وعلي والزبير والحرث بن الصمة الأنصاري وغيرهم، وأدركه أبيّ بن خلف في الشعب، فتناول ﷺ الحربة من الحرث بن الصمة وطعنه بها في عنقه فكر أبيّ منهزماً، وقال له المشركون: ما بك من بأس! فقال: واللّه لو بصق علي لقتلني وكان ﷺ قد توعده بالقتل فمات عدو اللّه بسرف مرجعهم إلى مكة. ثم جاء علي إلى رسول اللّه ﷺ بالماء فغسل وجهه ونهض فاستوى على صخرة من الجبل وحانت الصلاة فصلى بهم قعوداً. وغفر اللّه للمنهزمين من المسلمين ونزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ﴾ الآية وكان منهم عثمان بن عفان وعثمان بن أبي عقبة الأنصاري.

واستشهد في ذلك اليوم حمزة كما ذكرنا وعبد اللّه بن جحش ومصعب بن عمير في خمسة وستين معظمهم من الأنصار، وأمر رسول اللّه ﷺ أن يدفنوا بدمائهم وثيابهم في مضاجعهم ولم يغسلوا ولم يصل عليهم. وقتل من المشركين اثنان وعشرون منهم الوليد بن العاص بن هشام وأبو أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة وهشام بن أبي حذيفة بن المغيرة وأبو عزة عمرو بن عبد اللّه بن جمح، وكان أسر يوم بدر فمن عليه وأطلقه بلا فداء على أن لا يعين عليه فنقض العهد وأسر يوم أحد وأمر رسول اللّه ﷺ بضرب عنقه صبراً، وأبي بن خلف قتله رسول اللّه ﷺ بيده، وصعد أبو سفيان الجبل حتى أطل على رسول اللّه ﷺ وأصحابه ونادى بأعلى صوته: الحرب سجال! يوم أحد بيوم بدر، أعل هبل وانصرف وهو يقول: موعدكم العام القابل. فقال عليه السلام: « قولوا له هو بيننا وبينكم ».

ثم صار المشركون إلى مكة ووقف رسول اللّه ﷺ على حمزة، وكانت هند وصواحباتها قد جدّعنه وبقرن عن كبده فلاكتها ولم تسغها، ويقال أنه لما رأى ذلك في حمزة قال: « لئن أظفرني اللّه بقريش لأمثلن بثلاثين منهم » ورجع رسول اللّه ﷺ وأصحابه إلى المدينة. ويقال: إنه قال لعلي: لا يصيب المشركون منا مثلها حتى يفتح اللّه علينا.

غزوة حمراء الأسد

ولما كان يوم أحد سادس عشر شوال، وهو صبيحة يوم أحد، أذن مؤذن رسول اللّه ﷺ بالخروج لطلب العدو وأن لا يخرج إلا من حضر معه بالأمس، وفسح لجابر بن عبد اللّه ممن سواهم، فخرج وخرجوا على ما بهم من الجهد والجراح وصار عليه السلام متجلداً مرهباً للعدو، وانتهى إلى حمراء الأسد على ثمانية أميال من المدينة وأقام بها ثلاثاً، ومر به هناك معبد بن أبي معبد الخزاعي سائراً إلى مكة، ولقي أبا سفيان وكفار قريش بالروحاء فأخبرهم بخروج رسول اللّه ﷺ في طلبهم وكانوا يرومون الرجوع إلى المدينة ففت ذلك في أعضادهم وعادوا إلى مكة.

بعث الرجيع

ثم قدم على رسول اللّه ﷺ في صفر متم الثلاثة من الهجرة نفر من عضل والقارة بني الهون بن خزيمة إخوة بني أسد، فذكروا أن فيهم إسلاماً ورغبوا أن يبعث فيهم من يفقههم في الدين، فبعث معهم ستة رجال من أصحابه: مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وخالد بن البكير الليثي، وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح من بني عمرو بن عوف، وخبيب بن عدي من بني جحجبا بن كلفة، وزيد ابن الدثنة بن بياضة بن عامر، وعبد اللّه بن طارق حليف بني ظفر، وأمر عليهم مرثداً منهم. ونهضوا مع القوم حتى إذا كانوا بالرجيع وهو ماء لهذيل قريباً من عسفان غدروا بهم، واستصرخوا هذيلاً فغشوهم في رحالهم ففزعوا إلى القتال فأمنوهم وقالوا: إنا نريد نصيب بكم فداء من أهل مكة، فامتنع مرثد وخالد وعاصم من أمنهم وقاتلوا حتى قتلوا، ورموا رأس عاصم بسيوفهم ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد وكانت نذرت أن

تشرب فيه الخمر لما قتل ابنيها من بني عبد الدار يوم أحد، فأرسل اللّه الدبر فحمت عاصماً منهم فتركوه إلى الليل فجاء السيل إليه فاحتمله. وأما الآخرون فأسروهم وخرجوا بهم إلى مكة ولما كانوا بمر الظهران انتزع ابن طارق يده من القرآن وأخذ سيفه فرموه بالحجارة فمات، وجاءوا بخبيب وزيد إلى مكة فباعوهما إلى قريش فقتلوهما صبراً.

غزوة بئر معونة

وقدم على رسول اللّه ﷺ في صفر هذا ملاعب الأسنة أبو براء عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة فدعاه إلى الإسلام، فلم يسلم ولم يبعد، وقال: يا محمد! لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد يدعوهم إلى أمرك ورجوت أن يستجيبوا لك! فقال: إني أخاف عليهم. فقال أبو براء: أنا لهم جار!. فبعث رسول اللّه ﷺ المنذر بن عمرو من بني ساعدة في أربعين من المسلمين، وقيل: في سبعين، منهم الحرث بن الصمة، وحرام بن ملحان خال أنس، وعامر بن فهيرة، ونافع بن بديل بن ورقاء. فنزلوا بئر معونة بين أرض بني عامر وحرة بني سليم، وبعثوا حرام بن ملحان بكتاب النبي ﷺ إلى عامر بن الطفيل فقتله، ولم ينظر في كتابه، واستعدى عليهم بني عامر فأبوا لجوار أبي براء إياهم، فاستعدى بني سليم فنهضت منهم عصية ورعل وذكوان وقتلوهم عن آخرهم، وكان سرحهم إلى جانب منهم ومعهم المنذر بن أحيحة من بني الجلاح وعمرو بن أمية الضمري فنظرا إلى الطير تحوم على العسكر، فأسرعا إلى أصحابهما فوجداهم في مضاجعهم، فأما المنذر بن أحيحة فقاتل حتى قتل، وأما عمرو بن أمية فجز عامر بن الطفيل ناصيته حين علم أنه من مضر لرقبة كانت عن أمه، وذلك لعشر بقين من صفر وكانت مع الرجيع في شهر واحد. ولما رجع عمرو بن أمية لقي في طريقه رجلين من بني كلاب أو بني سليم فنزلا معه في ظل كان فيه معهما عهد من النبي ﷺ لم يعلم به عمرو فانتسبا له في بني عامر أو سليم فعدا عليهما لما ناما وقتلهما، وقدم على النبي ﷺ فأخبره بذلك فقال: « لقد قتلت قتيلين لأدينهما »

غزوة بني النضير

ونهض رسول اللّه ﷺ إلى بني النضير مستعيناً بهم في دية هذين القتيلين فأجابوا، وقعد عليه السلام مع أبي بكر وعمر وعلي ونفر من أصحابه إلى جدار من جدرانهم، وأراد بني النضير رجلاً منهم على الصعود إلى ظهر البيت ليلقي على النبي ﷺ صخرة، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب منهم. وأوحى اللّه بذلك إلى نبيه فقام، ولم يشعر أحداً من أصحابه فاستبطأوه، واتبعوه إلى المدينة. فأخبرهم عن وحي اللّه بما أراد به يهود وأمر من أصحابه بالتهيؤ لحربه. واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، ونهض في شهر ربيع الأول أول السنة الرابعة من الهجرة، فتحصنوا منه بالحصون فحاصرهم ست ليال وأمر بقطع النخل وإحراقها، ودس إليهم عبد اللّه بن أبي والمنافقون إنا معكم قتلتم أو أخرجتم، ففر وهمّ بذلك ثم خذلوهم كرهاً وأسلموهم.

وسأل عبد اللّه من النبي ﷺ أن يكف عن دمائهم ويجليهم بما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، واحتمل إلى خيبر من أكابرهم حيي بن أخطب وابن أبي الحقيق فدانت لهم خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وقسم رسول اللّه ﷺ أموالهم بين المهاجرين الأولين خاصة، وأعطى منها أبا دجانة وسهل بن حنيف كانا فقيرين. وأسلم من بني النضير يامين بن عمير بن جحاش، وسعيد بن وهب فأحرزا أموالهما بإسلامهما. وفي هذه الغزاة نزلت سورة الحشر.

غزوة ذات الرقاع

وأقام رسول اللّه ﷺ بعد بني النضير إلى جمادى من السنة الرابعة، ثم غزا نجداً يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري، وقيل: عثمان بن عفان، ونهض حتى نزل نجداً فلقي بها جمعاً من غطفان فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب، إلا أنهم خاف بعضهم بعضاً حتى صلى رسول اللّه ﷺ بالمسلمين صلاة الخوف، فسميت ذات الرقاع لأن أقدامهم نقبت وكانوا يلفون عليها الخرق.

وقال الواقدي: لأن الجبل الذي نزلوا به كان به سواد وبياض وحمرة رقاعاً فسمي بذلك وزعم أنها كانت في المحرن.

غزوة بدر الصغرى ـ الموعد

كان أبو سفيان نادى يوم أحد كما قدمناه بموعد بدر من قابل وأجابوه بأمر رسول اللّه ﷺ، فلما كان في شعبان من هذه السنة الرابعة خرج ليعاده واستعمل على المدينة عبد اللّه بن أبي بن سلول، ونزل في بدر فأقام هناك ثمان ليال وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل الظهران وعسفان، ثم بدا له في الرجوع

واعتذر بأن العام عام جدب.

غزوة دومة الجندل

خرج إليها رسول اللّه ﷺ في ربيع الأول من السنة الخامسة وخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري. وقد كان بلغه أن جمعاً تجمعوا بها فغزاهم، ثم انصرفوا من طريقه قبل أن يبلغ دومة الجندل ولم يلق حرباً. وفيها وادع رسول اللّه ﷺ عيينة بن حصن أن يرعى بأراضي المدينة لأن بلاده كانت أجدبت، وكانت هذه قد أخصبت بسحابة وقعت فأذن له في رعيها.

كانت في شوال من السنة الخامسة، والصحيح أنها في الرابعة، كان ابن عمر يقول ردني رسول اللّه ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة ثم أجازني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فليس بينهما إلا سنة واحدة وهو الصحيح، فهي قبل دومة الجندل بلا شك. وكان سببها أن نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وسلام بن مشكم وحيي بن أخطب من بني النضير وهو ابن قيس وأبو عمارة من بني وائل، لما انجلى بنو النضير إلى خيبر خرجوا إلى مكة يحزبون الأحزاب ويحرضون على حرب رسول اللّه ﷺ ويرغبون من اشرأب إلى ذلك بالمال. فأجابهم أهل مكة إلى ذلك، ثم مضوا إلى غطفان وخرج بهم عيينة بن حصن على أشجع، وخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من كنانة وغيرهم. ولما سمع بهم رسول اللّه ﷺ أمر بحفر الخندق على المدينة وعمل فيه بيده والمسلمون معه، ويقال: إن سلمان أشار به. ثم أقبلت الأحزاب حتى نزلوا بظاهر المدينة بجانب أحد، وخرج عليه السلام في ثلاثة آلاف من المسلمين، وقيل: في تسعمائة فقط وهو راجل بلا شك. وخلف على المدينة ابن أم مكتوم فنزل بسطح سلع والخندق بينه وبين القوم وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في الأطام، وكان بنو قريظة موادعين لرسول اللّه ﷺ فأتاهم حيي وأغراهم فنقضوا العهد ومالوا مع الأحزاب، وبلغ أمرهم إلى النبي ﷺ، فبعث سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وخوات بن جبير وعبد اللّه بن رواحة يستخبرون الأمر، فوجدوهم مكاشفين بالغدر والنيل من رسول اللّه ﷺ، فشاتمهم سعد بن معاذ وكانوا أحلافه وانصرفوا. وكان ﷺ قد أمرهم إن وجدوا الغدر حقاً أن يخبروه تعريضاً لئلا يفتّوا في أعضاد الناس، فلما جاؤوا إليه قالوا: يا رسول اللّه عضل والغارة يريدون غدرهم بأصحاب الرجيع، فعظم الأمر وأحيط بالمسلمين من كل جهة، وهم بالفشل بنو حارثة وبنو سلمة معتذرين بأن بيوتهم عورة خارج المدينة ثم ثبتهم اللّه.

ودام الحصار على المسلمين قريباً من شهر ولم تكن حرب. ثم رجع رسول اللّه ﷺ إلى عيينة بن حصين والحرث بن عوف أن يرجعا ولهما ثلثا ثمار المدينة، وشاور في ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فأبيا، وقالا: يا رسول اللّه! أشيء أمرك اللّه به فلا بد منه؟ أم شيء تحبه فنصنعه لك أم شيء تصنعه لنا؟ فقال: « بل أصنعه لكم! إني رأيت أن العرب رمتكم عن قوس واحدة » فقال سعد بن معاذ: قد كنا معهم على الشرك والأوثان ولا يطمعون منا بثمرة إلا شراء وبيعاً فحين أكرمنا اللّه بالإسلام وأعزنا بك نعطيهم أموالنا! واللّه لا نعطيهم إلا السيف. فطاب رسول اللّه ﷺ. وتمادى الأمر، وظهر فوارس من قريش إلى الخندق فيهم: عكرمة بن أبي جهل، وعمرو بن عبد ود من بني عمرو بن لؤي، وضرار بن الخطاب من بني محارب فلما رأوا الخندق قالوا: هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها. ثم اقتحموا من مكان ضيق حتى جالت خيلهم بين الخندق وسلع، ودعوا إلى البراز وقتل علي بن أبي طالب عمرو بن عبد ود، ورجعوا إلى قومهم من حيث دخلوا ورمي في بعض تلك الأيام سعد بن معاذ بسهم فقطع عنه الأكحل، يقال: رماه حبان بن قيس ابن العرقة وقيل: أبو أسامة الجشمي حليف بني مخزوم، ويروى أنه لما أصيب جعل يدعو: اللّهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها فلا قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وأخرجوه، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها شهادة لي، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة.

ثم اشتد الحال وأتى نعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة بن قنفذ بن هلال بن خلاوة بن أشجع بن ريث بن غطفان فقال: يا رسول اللّه! إني أسلمت ولم يعلم قومي فمرني بما تشاء، فقال: « إنما أنت رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة » فخرج نعيم فأتى بني قريظة وكان صديقهم في الجاهلية، فنقم لهم في قريش وغطفان وإنهم إن لم يكن الظفر لحقوا ببلادهم وتركوكم، ولا تقدرون على التحول عن بلدكم ولا طاقة لكم بمحمد وأصحابه، فاستوثقوا منهم برهن أبنائهم حتى يصابروا معكم. ثم أتى أبا سفيان وقريشاً فقال لهم: إن اليهود قد ندموا وراسلوا محمداً في المواعدة على أن يسترهنوا أبناءكم ويدفعوهم إليه. ثم أتى غطفان وقال لهم مثلما قال لقريش. فأرسل أبو سفيان وغطفان إلى بني قريظة في ليلة سبت إنا لسنا بدار مقام فأعدوا للقتال، فاعتذر اليهود بالسبت، وقالوا: مع ذلك لا نقاتل حتى

تعطونا رهناً. فصدق القوم خبر نعيم، وردوا إليهم بالإباية من الرهن والحث على الخروج، فصدق أيضاً بنو قريظة خبر نعيم وأبوا من القتال. وأرسل الله على قريش وغطفان ريحاً عظيمة أكفأت قدورهم وآنيتهم وقلعت أبنيتهم وخيامهم، وبعث عليه السلام حذيفة بن اليمان عيناً فأتاه بخبر رحيلهم وأصبح -وقد ذهب الأحزاب- ورجع إلى المدينة.

غزوة بني قريظة

ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه جبريل بالنهوض إلى بني قريظة وذلك بعد صلاة الظهر من ذلك اليوم، فأمر المسلمين أن لا يصلي أحد العصر إلا في بني قريظة، وخرج وأعطى الراية علي بن أبي طالب، واستخلف ابن أم مكتوم، وحاصرهم ﷺ خمساً وعشرين ليلة، وعرض عليهم سيدهم كعب بن أسد إحدى ثلاث: إما الإسلام، وإما تبييت النبي ﷺ ليلة السبت ليكون الناس آمنين منهم، وإما قتل الذراري والنساء ثم الاستمانة. فأبوا كل ذلك وأرسلوا إلى النبي ﷺ أن يبعث إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر بن عمرو بن عوف بما كانوا حلفاء الأوس، فأرسله واجتمع إليه الرجال والنساء والصبيان فقالوا: يا أبا لبابة ترى لنا أن ننزل على حكم محمد؟ قال نعم! وأشار بيده في حلقه إنه الذبح. ثم رجع فندم وعلم أنه أذنب فانطلق على وجهه، ولم يرجع إلى النبي ﷺ، وربط نفسه إلى عمود في المسجد ينتظر توبة الله عليه وعاهد الله أن لا يدخل أرض بني قريظة مكاناً خان فيه ربه ونبيه، وبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: « لو أتاني لأستغفرن له فأما بعدما فعل فما أنا بالذي أطلقه حتى يتوب الله عليه » فنزلت توبته، فتولى عليه السلام إطلاقه بيده بعد أن قام مرتبطاً بالجذع ست ليال لا يحل إلا للصلاة ثم نزل بنو قريظة على حكم النبي ﷺ فأسلم بعضهم ليلة نزولهم وهم نفر أربعة من هذيل إخوة قريظة والنضير، وفر منهم عمرو بن سعد القرظي ولم يكن دخل معهم في نقض العهد فلم يعلم أين وقع. ولما نزل بنو قريظة على حكمه ﷺ طلب الأوس أن يفعل فيهم ما فعل بالخزرج في بني النضير، فقال لهم: « ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ » قالوا: بلى! قال: « فذلك إلى سعد بن معاذ » وكان جريحاً منذ يوم الخندق وقد أنزله رسول الله ﷺ في خيمة في المسجد ليعوده من قريب، فأتى به على حمار فلما أقبل على المجلس قال رسول الله ﷺ لهم: «قوموا إلى سيدكم»!. ثم قالوا: يا سعد! إن رسول الله ﷺ قد ولاك حكم مواليك، فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، قالوا: نعم.... قال: فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال وتسبى الذراري والنساء وتقسم الأموال. فقال رسول الله ﷺ: « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » ثم أنه أمر بهم فأخرجوا إلى سوق المدينة وخندق لهم بها خنادق وضربت أعناقهم فيها وهم بين الستمائة والسبعمائة رجل، وقتلت فيهم امرأة واحدة بنانة امرأة الحكم القرظي وكانت طرحت على خلال بن سويد بن الصامت رحى من فوق الحائط فقتلته. وأمر عليه السلام بقتل من أثبت منهم. ووهب لثابت بن قيس بن الشماس ولد الزبير بن باطا فاستحيا منهم عبد الرحمن بن الزبير كانت له صحبة، وبعد أن كان ثابت استوهب من النبي ﷺ الزبير وأهله وماله فوهبه ذلك فمر الزبير عليه يده وأبى إلا القتل مع قومه اغتباطاً بهم قبحه الله.

ووهب عليه السلام لأم المنذر بنت قيس من بني النجار رفاعة بن سموأل القرظي فأسلم رفاعة وله صحبة.

وقسم ﷺ أموال بني قريظة فأسهم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهما، وكانت خيل المسلمين يومئذ ستة وثلاثين فارساً، ووقع في سهم النبي ﷺ من سبيهم ريحانة بنت عمرو بن خناقة من بني عمرو بن قريظة فلم تزل في ملكه حتى مات رسول الله ﷺ، وكان فتح بني قريظة آخر ذي القعدة من السنة الرابعة. ولما تم أمرهم أجيبت دعوة سعد بن معاذ فانفجر عرقه ومات فكان ممن استشهد يوم الخندق في سبعة آخرين من الأنصار، وأصيب من المشركين يوم الخندق أربعة من قريش فيهم عمرو بن عبد ود وابنه حسل ونوفل بن عبد الله بن مريرة، ولم تغز كفار قريش المسلمين منذ يوم الخندق. ثم خرج رسول الله ﷺ في جمادى الأولى من السنة الخامسة لستة أشهر من فتح بني قريظة، فقصد بني لحيان يطالب بثأر عاصم بن ثابت وخبيب بن عدي وأهل الرجيع، وذلك إثر رجوعه من دومة الجندل، فسلك على طريق الشام أولاً ثم أخذ ذات اليسار إلى صخيرات اليمام، ثم رجع إلى طريق مكة وأجد السير حتى نزل منازل لبنى بين أمج وعسفان فوجدهم قد حذروا وامتنعوا بالجبال، وفاتتهم الغرة فيهم فخرج في مائتي راكب إلى المدينة.

غزوة الغابة وذي قرد

وبعد قفوله والمسلمين إلى المدينة بليال أغار عيينة بن حصن الفزاري في بني عبد الله بن غطفان فاستلحموا لقاح النبي ﷺ بالغابة، وكان فيها رجل من بني غفار وامرأته فقتلوا الرجل وحملوا المرأة، ونزل بهم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي وكان

ناهضاً، فعلا ثنية الوادع وصاح بأعلى صوته نذيراً بهم، ثم أتبعهم واستنقذ ما كان بأيديهم، ولما وقعت الصيحة بالمدينة ركب رسول اللّه ﷺ في أثرهم، ولحق به المقداد بن الأسود وعباد بن بشر وسعد بن زيد من بني عبد الأشهل. وعكاشة بن محصن ومحرز بن نضلة الأسدي وأبو قتادة من بني سلمة في جماعة من المهاجرين والأنصار، وأمر عليهم رسول اللّه ﷺ سعد بن زيد وانطلقوا في اتباعهم حتى أدركوهم، فكانت بينهم جولة قتل فيها محرز بن نضلة قتله عبد الرحمن بن عيينة وكان أول من لحق بهم. ثم ولى المشركون منهزمين وبلغ رسول اللّه ﷺ ما يقال له ذو قرد، فأقام عليه ليلة ويومين ونحر ناقة من لقاحه المسترجعة ثم قفل إلى المدينة.

غزوة بني المصطلق

وأقام رسول اللّه ﷺ إلى شعبان من هذه السنة السادسة، ثم غزا بني المصطلق من خزاعة لما بلغه أنهم يجتمعون له وقائدهم الحرث بن أبي ضرار أبو جويرية أم المؤمنين، فخرج إليهم واستخلف أبا ذر الغفاري، وقيل نميلة بن عبد اللّه الليثي ولقيهم بالمريسع من مياههم ما بين قديد والساحل فتزاحفوا وهزمهم اللّه وقتل من قتل منهم وسبي النساء والذرية وكانت منهم جويرية بنت الحرث سيدهم، ووقعت في سهم ثابت بن قيس، فكاتبها، وأدى عليه السلام عنها وأعتقها وتزوجها. وأصيب في هذه الغزاة هشام بن صبابة الليثي من بني ليث بن بكر قتله رجل من رهط عبادة بن الصامت غلطاً يظنه من العدو، وفي مرجع النبي ﷺ من هذه الغزاة، وفيها قال عبد اللّه بن أبي بن سلول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل لمشاجرة وقعت بين جهجاه بن مسعود الغفاري أجير عمر بن الخطاب وبين سنان بن واقد الجهني حليف بني عوف بن الخزرج، فتشاوروا وتباهوا، فقال ما قال، وسمع زيد بن أرقم مقالته، وبلغها إلى رسول اللّه ﷺ. ونزلت سورة المنافقين وتبرأ منه ابنه عبد اللّه، وقال: يا رسول اللّه أنت واللّه الأعز وهو الأذل وإن شئت واللّه أخرجته. ثم اعترض أباه عند المدينة، وقال: واللّه لا تدخل حتى يأذن لك رسول اللّه ﷺ، فأذن له، وحينئذ دخل، وقال: يا رسول اللّه! بلغني أنك تريد قتل أبي وإني أخشى أن تأمر غيري فلا تدعني نفسي أن أقاتله، وإن قتلته قتلت مؤمناً بكافر، ولكن مرني بذلك فأنا واللّه أحمل إليك رأسه. فجزاه رسول اللّه ﷺ خيراً وأخبره أنه لا يصل إلى أبيه سوء.

وفيها قال أهل الإفك ما قالوا في شأن عائشة مما لا حاجة بنا إلى ذكره وهو معروف في كتب السير، وقد أنزل اللّه القرآن الحكيم ببراءتهما وتشريفهما. وقد وقع في الصحيح أن مراجعته وقعت في ذلك بين سعد بن عبادة وسعد بن معاذ وهو وهم ينبغي التنبيه عليه، لأن سعد بن معاذ مات بعد فتح بني قريظة بلا شك داخل السنة الرابعة وغزوة بني المصطلق في شعبان من السنة السادسة بعد عشرين شهراً من موت سعد، والملاحاة بين الرجلين كانت بعد غزوة بني المصطلق بأزيد من خمسين ليلة. والذي ذكر ابن إسحاق عن الزهري عن عبيد اللّه بن عبداللّه وغيره: إن المقاول لسعد بن عبادة إنما هو أسيد بن الحضين واللّه أعلم.

ولما علم المسلمون أن النبي ﷺ تزوج جويرية، اعتقوا كل ما كان في أيديهم من بني المصطلق أصهار رسول اللّه ﷺ، فأطلق بسببها مائة من أهل بيتها، ثم إن رسول اللّه ﷺ بعث إلى بني المصطلق بعد إسلامهم بعامين الوليد بن عقبة بن أبي معيط لقبض صدقاتهم، فخرجوا يتلقونه، فخافهم على نفسه ورجع، وأخبر أنهم هموا بقتله. فتشاور المسلمون في غزوهم ثم جاء وفدهم منكرين ما كان من رجوع الوليد قبل النبي ﷺ ذلك منهم ونزل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾ الآية.

عمرة الحديبية

ثم خرج رسول اللّه ﷺ في السادسة وفي ذي القعدة منها معتمراً بعد بني المصطلق بشهرين، واستنفر الأعراب حوالي المدينة فأبطأ أكثرهم فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار، ومن اتبعه من العرب فيما بين الثلثمائة بعد الألف إلى الخمسمائة، وساق الهدي وأحرم من المدينة ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً. وبلغ ذلك قريشاً فأجمعوا على صده عن البيت وقتاله دونه، وقدموا خالد بن الوليد في خيل إلى كراع الغميم، وورد خبرهم إلى النبي ﷺ بعسفان، فسلك على ثنية المرار حتى نزل الحديبية من أسفل مكة وجاء من ورائهم، فكر خالد في خيله إلى مكة. فلما جاء ﷺ إلى مكة بركت ناقته، فقال الناس: خلأت، فقال: « ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل » ثم قال: « والذي نفسي بيده لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » ثم نزل واشتكى الناس فقد الماء فأعطاهم سهماً من كنانته غرزوه في بعض القلوب من الوادي، فجاش الماء حتى كفى جميع الجيش، يقال نزل به البراء بن عازب. ثم جرت السفراء بين رسول اللّه ﷺ وبين كفار قريش، وبعث عثمان بن

عفان بينهما رسولاً، وشاع الخبر أن المشركين قتلوه، فدعا رسول اللّه ﷺ المسلمين وجلس تحت شجرة فبايعوه على الموت وأن لا يفروا، وهي بيعة الرضوان، وضرب عليه السلام بيسراه على يمينه وقال: « هذه عن عثمان » ثم كان سهيل بن عمرو آخر من جاء من قريش فقاضى رسول اللّه ﷺ قريشاً على أن ينصرف عامه ذلك ويأتي من قابل معتمراً ويدخل مكة وأصحابه بلا سلاح حاشا السيوف في القرب، فيقيم بها ثلاثاً ولا يزيد، وعلى أن يتصل الصلح عشرة أعوام يتداخل فيه الناس ويؤمن بعضهم بعضاً، وعلى أن من هاجر من الكفار إلى المسلمين من رجل أو امرأة أن يرد إلى قومه ومن ارتد من المسلمين إليهم لم يردوه.

وعظم ذلك على المسلمين حتى تكلم فيه بعضهم، وقد كان النبي ﷺ علم أن هذا الصلح سبب لأمن الناس وظهور الإسلام، وأن اللّه يجعل فيه فرجاً للمسلمين وهو أعلم بما علمه ربه. وكتب الصحيفة علي، وكتب في صدرها: هذا ما قاضى عليه محمد رسول اللّه ﷺ، فأبى سهيل من ذلك وقال: لو نعلم أنك رسول اللّه ما قاتلناك، فأمر رسول اللّه ﷺ علياً أن يمحوها، فأبى وتناول هو الصحيفة بيده ومحا ذلك وكتب محمد بن عبد اللّه.

ولا يقع في ذهنك من أمر هذه الكتابة ريب فإنها قد ثبتت في الصحيح، ومايعترض في الوهم من أن كتابته قادحة في المعجزة فهو باطل، لأن هذه الكتابة إذا وقعت من غير معرفة بأوضاع الحروف ولا قوانين الخط وأشكالها بقيت الأمية على ما كانت عليه، وكانت هذه الكتابة الخاصة من إحدى المعجزات انتهى.

ثم أتى أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده وكان قد أسلم، فقال سهيل: هذا أول ما نقاضي عليه. فرده رسول اللّه ﷺ إلى أبيه وعظم ذلك على المسلمين، وأخبر النبي ﷺ أبا جندل أن اللّه سيجعل له فرجاً، وبينما هم يكتبون الكتاب إذ جاءت سرية من جهة قريش قيل ما بين الثلاثين والأربعين يريدون الإيقاع بالمسلمين، فأخذتهم خيول المسلمين وجاؤوا بهم إلى رسول اللّه ﷺ فأعتقهم وإليهم ينسب العتيقيون.

ولما تم الصلح وكتابه أمر رسول اللّه ﷺ أن ينحروا ويحلقوا فتوقفوا، فغضب حتى شكى إلى زوجته أم سلمة فقالت: يا رسول اللّه أخرج وانحر واحلق فإنهم متابعوك فخرج ونحر وحلق رأسه حينئذ خراش بن أمية الخزاعي، ثم رجع رسول اللّه ﷺ إلى المدينة، وما فتح من قبله فتح كان أعظم من هذا الفتح. قال الزهري: لما كان القتال حيث لا يلتقي الناس. فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضاً فالتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام أحداً يفعل شيئاً إلا دخل فيه، فلقد دخل في ذينك السنتين في الإسلام مثلما كان قبل ذلك أو أكثر.

ولما رجع ﷺ إلى المدينة لحقه أبو بصير عتبة بن أسيد بن حارثة هارباً وكان قد أسلم وحبسه قومه بمكة وهو ثقفي من حلفاء بني زهرة، فبعث إليه الأزهر بن عبد عوف عم عبد الرحمن بن عوف والأخنس بن شريق سيد بني زهرة رجلاً من بني عامر بن لؤي مع مولى لهم، فأسلمه النبي ﷺ فاحتملاه. فلما نزلوا بذي الحليفة أخذ أبو بصير السيف من أحد الرجلين، ثم ضرب به العامري فقتله وفر الآخرون، وأتى أبو بصير إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللّه! قد وفت ذمتك وأطلقني اللّه فقال عليه السلام: « ويلمه مسعر حرب لو كان له رجال » فبكى. ففطن أبو بصير من لحن هذا القول أنه سيرده، وخرج إلى سيف البحر على طريق قريش إلى الشام، وانضاف إليه جمهور من يفر عن قريش ممن أراد الإسلام فآذوا قريشاً وقطعوا على رفاقهم وسابلتهم، فكتبوا إلى النبي ﷺ أن يضمهم بالمدينة.

ثم هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وجاء فيها أخواها عمارة والوليد، فمنع اللّه من رد النساء وفسخ ذلك الشرط المكتتب، ثم نسخت براءة ذلك كله وحرم اللّه حينئذ على المسلمين إمساك الكوافر في عصمتهم فانفسخ نكاحهن.

إرسال الرسل إلى الملوك

وقال ابن إسحاق: ثم بعث رسول اللّه ﷺ فيما بين الحديبية ووفاته رجالاً من أصحابه إلى ملوك العرب والعجم دعاة إلى اللّه عز وجل، فبعث سليط بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود أخا بني عامر بن لؤي إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى أخي بني عبد القيس صاحب البحرين، وعمرو بن العاص إلى جيفر بن جلندي بن عامر بن جلندي صاحب عمان، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية فأدى إليه كتاب رسول اللّه ﷺ وأهدى المقوقس إلى رسول اللّه ﷺ أربع جوار منهن مارية أم إبراهيم ابنه.

وبعث رسول اللّه ﷺ دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر وهو هرقل ملك الروم، فوصل إلى بصرى وبعثه صاحب بصرى إلى هرقل، وكان يرى في ملاحمهم أن ملك الختان قد ظهر، وقرأ الكتاب وإذا فيه:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم من محمد رسول اللّه إلى هرقل

عظيم الروم! السلام على من اتبع الهدى. أما بعد أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين». وفي رواية: «إثم الأكارين عليك تعيا بحمله» فطلب من مملكته من قوم النبي ﷺ فأحضروا له من غزة، وكان فيهم أبو سفيان فسأله كما وقع في الصحيح، فأجابه وعلم أحواله وتفرس صحة أمره، وعرض على الروم أتباعه فأبوا ونفروا فلاطفهم بالقول وأقصر.

ويروى عن ابن إسحاق أنه عرض عليهم الجزية، فأبوا فعرض عليهم أن يصالحوا بأرض سورية.

قالوا: وهي أرض فلسطين والأردن ودمشق وحمص وما دون الدرب وما كان وراء الدرب فهو الشام.... فأبوا قال ابن إسحاق: وبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسدي أخا بني أسد بن خزيمة إلى المنذر بن الحرث بن شمر الغساني صاحب دمشق، وكتب معه: «السلام على من اتبع الهدى وآمن به أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك. فلما قرأ الكتاب قال: من ينزع ملكي؟ أنا سائر إليه! فقال النبي ﷺ: «باد ملكه».

قال: وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وكتب معه كتاباً:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة، سلام عليك! فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم الطيبة البتول الحصينة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ومعه نفر من المسلمين فإذا جاؤوك فاقرهم ودع التجري وإني أدعوك وجنودك إلى الله فلقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي والسلام على من اتبع الهدى». فكتب إليه النجاشي: إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن الحر.... سلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته أحمد الله الذي لا إله إلا هو الذي هدانا للإسلام أما بعد فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد بالرأي على ما ذكرت أنه كما قلت وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً فقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت لله رب العالمين وقد بعثت إليك بابني أرخا الأصحم فإني لا أملك إلا نفسي وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله، فإني أشهد أن الذي تقول حق والسلام عليك يا رسول الله.

فذكر أنه بعث ابنه في ستين من الحبشة في سفينة فغرقت بهم. وقد جاء أنه أرسل إلى النجاشي ليزوجه أم حبيبة، وبعث إليهما بالخطبة جاريته فأعطتها أوضاحاً وفتحاً ووكلت خالد بن سعيد بن العاص فزوجها، ودفع النجاشي إلى خالد بن سعيد أربعمائة دينار لصداقها، وجاءت إليها بها الجارية فأعطتها منها خمسين مثقالاً، فردت الجارية ذلك بأمر النجاشي. وكانت الجارية صاحبة دهنه وثيابه وبعث إليها نساء النجاشي بما عندهن من عود وعنبر وأركبها في سفينتين مع بقية المهاجرين، فلقوا النبي ﷺ بخيبر، وبلغ أبا سفيان تزويج أم حبيبة منه فقال: ذلك الفحل الذي لا يقدع أنفه.

وكتب رسول الله ﷺ في هذه السنة إلى كسرى، وبعث بالكتاب عبد الله بن حذافة السهمي وفيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس! سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسله أما بعد فإني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس» فمزق كسرى كتاب النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «مزق الله ملكه». وفي رواية ابن إسحاق بعد قوله «وآمن بالله ورسله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأدعوك بدعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين فإن أبيت فإثم الأريسيين عليك». قال: ثم كتب كسرى إلى باذان وهو عامله على اليمن أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به فبعث باذان قهرمانه بانويه وكان حاسباً كاتباً بكتاب فارس ومعه خرخسرة من الفرس، وكتب إليه معهما أن ينصرف إلى كسرى، وقال لقهرمانه: اختبر الرجل وعرفني بأمره. وأول ما قدما الطائف سألا عنه فقيل: هو بالمدينة. وفرح من سمع بذلك من قريش وكانوا بالطائف، فقالوا: قطب له كسرى وقد كفيتموه. وقدما على رسول الله ﷺ بالمدينة فكلمه بانويه وقال: إن شاهنشاه قد كتب إلى الملك باذان أن يبعث إليه من يأتيه بك ويعثني لتنطلق معي ويكتب معه إليك فينفعك وإن أبيت فهو من علمت ويهلك قومك ويخرب بلادك. وكانا قد حلقا لحاهما وأعفيا شواربهما فنهاهما رسول الله ﷺ عن ذلك، فقالا: أمرنا به ربنا يعنون به كسرى. فقال لهما: «لكن ربي أمرني بإعفاء لحيتي وقص شاربي لم أؤخرهما إلى غد».

وجاءه الوحي بأن الله يسلط على كسرى ابنه شيرويه

فيقتله ليلة كذا من شهر كذا لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع، فدعاهما وأخبرهما فقالا: هل تدري ما تقول؟ يحزنانه عاقبة هذا القول، فقال: « اذهبا وأخبراه بذلك عني وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى وإن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك وملكتك على قومك من الأبناء » وأعطى خرخسرة قطعة فيها ذهب وفضة كان بعض الملوك أهداها له. فقدما على باذان وأخبراه فقال: ما هذا كلام ملك! ما أرى الرجل إلا نبياً كما يقول ونحن ننتظر مقالته. فلم ينشب باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه:

أما بعد فإني قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم وتسخيرهم في ثغورهم فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه كثيراً إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه. فلما بلغ باذان الكتاب وأسلمت الأبناء تسعة من فارس ممن كان منهم باليمن، وكانت حمير تسمى خرخسرة ذا المفخرة للمنطقة التي أعطاه إياها النبي ﷺ والمنطقة بلسانهم المفخرة، وقد كان بانويه قال لباذان: ما كلمت رجلاً قط أهيب عندي منه، فقال: هل معك شرط؟ قال: لا!

قال الواقدي: وكتب إلى المقوقس عظيم القبط يدعوه إلى الإسلام فلم يسلم.

غزوة خيبر

ثم خرج رسول الله ﷺ غازياً إلى خيبر في بقية المحرم آخر السنة السادسة وهو في ألف وأربعمائة راجل ومائتي فارس، واستخلف نميلة بن عبد الله الليثي، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب، وسلك على الصهباء حتى نزل بواديها إلى الرجيع، فحيل بينهم وبين غطفان وقد كانوا أرادوا إمداد يهود خيبر، فلما خرجوا لذلك قذف الله في قلوبهم الرعب لحس سمعوه من ورائهم فانصرفوا وأقاموا في أماكنهم. وجعل رسول الله ﷺ يفتح حصون خيبر حصناً حصناً فافتتح أولاً منها حصن ناعم، وألقيت على محمود بن سلمة من أعلاه رحىً فقتله. ثم افتتح القموص حصن ابن أبي الحقيق، وأصيبت منهم سبايا: كانت منهن صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت عروساً عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق فوهبها عليه السلام لدحية الكلبي، ثم ابتاعها منه بسبعة أرؤس ووضعها عند أم سلمة حتى اعتدت وأسلمت ثم أعتقها وتزوجها. ثم فتح حصن الصعب بن معاذ، ولم يكن بخيبر أكثر طعاماً وودكاً منه. وآخر ما افتتح من حصونهم الوطيح والسلالم حصرهما بضع عشرة ليلة. ودفع إلى علي الراية في حصار بعض حصونهم فافتتحه، وكان أرمد فتفل في عينيه ﷺ فبرأ.

وكان فتح بعض خيبر عنوة وبعضها وهو الأكثر صلحاً على الجلاء، فقسمها ﷺ وأقر اليهود على أن يعملوها بأموالهم وأنفسهم ولهم النصف من كل ما تخرج من زرع أو ثمر يقرهم على ذلك ما بدا له، فبقوا على ذلك إلى آخر خلافة عمر فبلغه أن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: «لا يبقى دينان بأرض العرب » فأمر بإجلائهم عن خيبر وغيرها من بلاد العرب. وأخذ المسلمون ضياعهم من مغانم خيبر فتصرفوا فيها، وكان متولي قسمتها بين أصحابها جابر بن صخر من بني سلمة، وزيد بن سلمه من بني النجار، واستشهد من المسلمين جماعة تنيف على العشرين من المهاجرين والأنصار منهم عامر بن الأكوع وغيره وفي الغزاة حرمت لحوم الحمر الأهلية فأكفئت القدور وهي تفور بلحمها. وفيها أهدت اليهود زينب بنت الحرث امرأة سلام بن مشكم إلى النبي ﷺ شاة مصلية، وجعلت السم في الذراع منها وكان أحب اللحم إليه، فتناوله ولاك منه مضغة ثم لفظها، وقال: «إن هذا العظم يخبرني أنه مسموم»، وأكل معه بشر بن البراء بن معرور وازدرد لقمته فمات منها. ثم دعا باليهودية فاعترفت ولم يقتلها لإسلامها حينئذ على ما قيل، ويقال إنه دفعها إلى أولياء بشر فقتلوها.

قدوم مهاجرة الحبشة

وكان مهاجرة الحبشة قد جاء جماعة منهم إلى مكة قبل الهجرة حين سمعوا بإسلام قريش ثم هاجروا إلى المدينة، وجاء آخرون منهم قبل خيبر بسنتين، ثم جاء بقيتهم إثر فتح خيبر. بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في شأنهم ليقدمهم عليه، فقدم جعفر بن أبي طالب وامرأته أسماء بنت عميس وبنوهما عبد الله ومحمد وعون، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية وامرأته أمينة بنت خلف وابنهما سعيد، وأم خالد وعمرو بن سعيد بن العاص، ومعيقب بن أبي فاطمة حليف أبي سعيد بن العاص وولي بيت المال لعمر، وأبو موسى الأشعري حليف آل عتبة بن ربيعة والأسود بن نوفل بن خويلد ابن أخي خديجة، وجهم بن قيس بن شرحبيل بن عبد الدار وابناه عمرو وخزيمة، والحرث بن خالد بن صخر من بني تميم، وعثمان بن ربيعة بن أهبان من بني جمح، ومحنية بن جون الزبيدي حليف بني

سهم ولي لرسول اللّه ﷺ الأخماس، ومعمر بن عبد اللّه بن نضلة من بني عدي، وأبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عامر بن لؤي، وأبي عمرو مالك بن ربيعة بن قيس بن عبد شمس، فكان هؤلاء آخر من بقي بأرض الحبشة. ولما قدم جعفر على النبي ﷺ يوم فتح خيبر قبّل ما بين عينيه والتزمه، وقال: « ما أدري بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟ ».

فتح فدك ووادي القرى

ولما اتصل بأهل فدك شأن أهل خيبر بعثوا إلى رسول اللّه ﷺ يسألونه الأمان على أن يتركوا الأموال، فأجابهم إلى ذلك فكانت خالصة لرسول اللّه ﷺ، مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فلم يقسمها ووضعها حيث أمره اللّه. ثم انصرف عن خيبر إلى وادي القرى فافتتحهما عنوةً وقسمهما، وقتل بها غلامه مدغم، قال فيه لما شهد له الناس بالجنة: « كلا إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم قبل القسم لتشتعل عليه ناراً » ثم رجع إلى المدينة في شهر صفر.

عمرة القضاء

وأقام ﷺ بعد خيبر إلى انقضاء شوال من السنة السابعة ثم خرج في ذي القعدة لقضاء العمرة التي عاهده عليها قريش يوم الحديبية وعقد لها الصلح، وخرج ملأ من قريش عن مكة عداوة لله ولرسوله وكرهاً في لقائه، فقضى عمرته وتزوج بعد إحلاله بميمونة بنت الحرث من بني هلال بن علي ابن خالة ابن عباس وخالد بن الوليد، وأراد أن يبني بها، وقد تمت الثلاثة التي عاهده قريش على المقام بها وأوصوا إليه بالخروج وأعجلوه على ذلك، فبنى بها بسرف.

غزوة جيش الأمراء أو غزوة مؤتة

وأقام رسول اللّه ﷺ بعد منصرفه من عمرة القضاء إلى جمادى الأول من السنة الثانية ثم بعث الأمراء إلى الشام، وقد كان أسلم قبل ذلك عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة وهم من كبراء قريش. وقد كان عمرو بن العاص مضى عن قريش إلى النجاشي يطلبه في المهاجرين الذين عنده، ولقي هنالك عمرو بن أمية الضمري وافد النبي ﷺ، فغضب النجاشي لما كلمه في ذلك، فوفقه اللّه ورأى الحق فأسلم وكتم إسلامه، ورجع إلى قريش ولقي خالد بن الوليد فأخبره فتفاوضا، ثم هاجرا إلى النبي ﷺ فأسلما.

وبعث رسول اللّه ﷺ خالداً مع بعث الشام وأمر على الجيش مولاه زيد بن حارثة وكانوا نحواً من ثلاثة آلاف، وقال:<« إن أصابه قدر فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن أصابه قدر فالأمير عبد اللّه بن رواحة، فإن أصيب فليرتض المسلمون برجل من بينهم يجعلوه أميراً عليهم » وشيعهم ﷺ وودعهم، ونهضوا حتى انتهوا إلى معان من أرض الشام، فأتاهم الخبر بأن هرقل ملك الروم قد نزل مؤاب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم ومائة ألف من نصارى العرب البادين هنالك من لخم وجذام وقبائل قضاعة من بهرا وبلي والقيس وعليهم مالك بن زاحلة من بني أراشة. فأقام المسلمون في معان ليلتين يتشاورون في الكتب إلى رسول اللّه ﷺ وانتظار أمره ومدده، ثم قال لهم عبد اللّه بن رواحة: أنتم إنما خرجتم تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة إلا بهذا الدين الذي أكرمنا اللّه به، فانطلقوا فهي إحدى الحسنيين إما ظهوره وإما شهادتنا فوافقوه ونهضوا إلى تخوم البلقاء فلقوا جموع هرقل عند قرية مؤتة ورتبوا الميمنة والميسرة، واقتتلوا فقتل زيد بن حارثة ملاقياً بصدره الرماح والراية في يده، فأخذها جعفر بن أبي طالب وعقر فرسه ثم قاتل حتى قطعت يمينه فأخذها بيساره فقطعت فقتل كذلك وكان ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأخذها عبد اللّه بن رواحة وتردد عن النزول بعض الشيء ثم صمم إلى العدو فقاتل حتى قتل.

فأخذ الراية ثابت بن أقرن من بني العجلان وناولها لخالد بن الوليد فانحاز بالمسلمين، وأنذر النبي ﷺ بقتل هؤلاء الأمراء قبل ورود الخبر وفي يوم قتلهم، واستشهد مع الأمراء جماعة من المسلمين يزيدون على العشرة أكرمهم اللّه بالشهادة، ورجعوا إلى النبي ﷺ، فأحزنه موت جعفر ولقيهم خارج المدينة وحمل عبد اللّه بن جعفر بين يديه على دابته وهو صبي وبكى عليه واستغفر له وقال: « أبدله اللّه بيديه جناحين يطير بهما في الجنة » فسمي ذا الجناحين.

فتح مكة

كان رسول اللّه ﷺ حين عقد الصلح بينه وبين قريش في الحديبية أدخل خزاعة في عقده المؤمن منهم والكافر، وأدخلت قريش بني بكر بن عبد مناة بن كنانة في عقدها وكانت بينهم تراث في الجاهلية وذحول كان فيها الأول للأسود بن رزق من بني الدئل

بن بكر بن عبد مناة وثأرهم عند خزاعة لما قتلت حليفهم مالك بن عباد الحضرمي، وكانوا قد عقدوا على رجل من خزاعة فقتلوه في مالك بن عباد حليفهم، وعدت خزاعة على سلمى وكلثوم وذؤيب بني الأسود بن رزق فقتلوهم وهم أشراف بني كنانة، وجاء الإسلام فاشتغل الناس به ونسوا أمر هذه الدماء، فلما انعقد هذا الصلح يوم الحديبية وأمن الناس بعضهم بعضاً، فاغتنم بنو الدئل هذه الفرصة في إدراك الثأر من خزاعة لقتلهم بني الأسود بن رزق، وخرج نوفل بن معاوية الدؤلي فيمن أطاعه من بني بكر بن عبد مناة وليس كلهم تابعه، وخرج معه بعضهم وخرجوا منهم وانحجزوا في دور مكة ودخلوا دار بديل بن ورقاء الخزاعي، ورجع بنو بكر وقد انتقض العهد فركب بديل بن ورقاء وعمرو بن سالم في وفد من قومهم إلى رسول الله ﷺ مستغيثين مما أصابهم به بنو الدئل بن عبد مناة وقريش، فأجاب ﷺ صريخهم وأخبرهم أن أبا سفيان يأتي يشد العقد ويزيد في المدة وإنه يرجع بغير حاجة.

وكان ذلك سبباً للفتح وندم قريش على مافعلوا، فخرج أبو سفيان إلى المدينة ليؤكد العقد ويزيد في المدة، ولقي بديل بن ورقاء بعسفان فكتمه الخبر وورّى له عن وجهه، وأتى أبو سفيان المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة فطوت دونه فراش النبي ﷺ وقالت: لا يجلس عليه مشرك! فقال لها: قد أصابك بعدي شر يا بنيتي. ثم أتى المسجد وكلم النبي ﷺ فلم يجبه، فذهب إلى أبي بكر وكلمه أن يتكلم في ذلك فأبى، فلقي عمر فقال: والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، فدخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة وابنه الحسن صبياً فكلمه فيما أتى له فقال علي: ما نستطيع أن نكلمه في أمر عزم عليه، فقال لفاطمة: يا بنت محمد! أما تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس؟ فقالت: لا يجير أحد على رسول الله ﷺ، فقال له علي: يا أبا سفيان! أنت سيد بني كنانة فقم فأجر وارجع إلى أرضك، فقال ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: ما أظنه! ولكن لا أجد لك سواه. فقام أبو سفيان في المسجد فنادى: ألا إني قد أجرت بين الناس ثم ذهب إلى مكة وأخبر قريشاً، فقالوا: ما جئت بشيء وما زاد ابن أبي طالب على أن لعب بك.

ثم أعلم رسول الله ﷺ إنه سائر إلى مكة، وأمر الناس بأن يتجهزوا، ودعا الله أن يطمس الأخبار عن قريش، وكتب إليهم حاطب بن أبي بلتعة بالخبر مع ظعينة قاصدة إلى مكة، فأوحى الله إليه بذلك فبعث علياً والزبير والمقداد إلى الظعينة فأدركوها بروضة خاخ وفتشوا رحلها فلم يجدوا شيئاً، وقالوا: رسول الله أصدق، فقال علي: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الحوائج، فأخرجته من قرون رأسها. فلما قرئ على النبي ﷺ قال: « ما هذا يا حاطب؟ » فقال يا رسول الله! والله ما شككت في الإسلام! ولكني ملصق في قريش فأردت عندهم يداً يحفظوني بها في مخلف أهلي وولدي، فقال عمر: يا رسول الله! دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: « وما يدريك يا عمر؟ لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم »

وخرج ﷺ لعشر خلون من رمضان من السنة الثامنة في عشرة آلاف فيهم من سليم ألف رجل وقيل سبعمائة، ومن مزينة ألف، ومن غفار أربعمائة، ومن أسلم أربعمائة، وطوائف من قريش وأسد وتميم وغيرهم، ومن سائر القبائل جموع وكتائب الله من المهاجرين والأنصار. واستخلف أبا رهم الغفاري على المدينة، ولقيه العباس بذي الحليفة وقيل بالجحفة مهاجراً، فبعث رحله إلى المدينة وانصرف معه غازياً، ولقيه بشق العقاب أبو سفيان بن الحرث وعبد الله بن أبي أمية مهاجرين واستأذنا فلم يؤذن لهما، وكلمته أم سلمة فأذن لهما، وأسلما فسار حتى نزل مر الظهران، وقد طوى الله أخباره عن قريش إلا أنهم يتوجسون الخيفة.

وخشي العباس تلافي قريش إن فاجأهم الجيش قبل أن يستأمنوا، فركب بغلة النبي ﷺ وذهب يتجسس، وقد خرج أبو سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام يتجسسون الخبر، وبينما العباس قد أتى الأراك ليلقي من السابلة من ينذر أهل مكة إذ سمع صوت أبي سفيان وبديل وقد أبصرا نيران العساكر، فيقول بديل: نيران بني خزاعة، فيقول أبو سفيان: خزاعة أذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها. فقال العباس: هذا رسول الله ﷺ بالناس والله إن ظفر بك ليقتلنك وأصباح قريش فارتدف خلفي. ونهض به إلى المعسكر ومر بعمر فخرج يشتد إلى رسول الله ﷺ يقول: الحمد لله الذي أمكنني منك بغير عقد ولا عهد، فسبقه العباس على البغلة ودخل على أثره فقال: يا رسول الله! هذا عدو الله أبو سفيان أمكنني الله منه بلا عهد فدعني أضرب عنقه، فقال العباس: قد أجرته! فزأره عمر، فقال العباس: لو كان من بني عدي ما قلت هذا ولكنه من عبد مناف، فقال عمر: والله لإسلامك كان أحب إلي من إسلام الخطاب لأني أعرف أنه عند رسول الله ﷺ كذلك. فأمر رسول الله ﷺ العباس أن يحمله إلى رحله ويأتيه به صباحاً، فلما أتى به قال له ﷺ: «ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟» فقال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد علمت لو كان معه إله غيره أغنى عنا، فقال: «ويحك ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟»، قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه فإن في

النفس منها حتى الآن شيئاً.

فقال له العباس: ويحك أسلم قبل أن يضرب عنقك فأسلم. فقال العباس: يا رسول اللّه! إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً. قال: «نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن». ثم أمر العباس أن يوقف أبا سفيان بخطم الوادي ليرى جنود اللّه ففعل ذلك، ومرت به القبائل قبيلة قبيلة، إلى أن جاء مركب رسول اللّه ﷺ في المهاجرين والأنصار، عليهم الدروع البيض، فقال: من هؤلاء؟ فقال له العباس: هذا رسول اللّه في المهاجرين والأنصار. فقال: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً. فقال: يا أبا سفيان إنها النبوة، فقال: فهي إذاً! فقال له العباس: النجاء إلى قومك. فأتى بهم مكة وأخبرهم بما أحاط بهم وبأمان رسول اللّه وبقول النبي ﷺ من أتى المسجد أو دار أبي سفيان أو أغلق بابه.

ورتب الجيش وأعطى سعد بن عبادة الراية فذهب يقول:

اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة

وبلغ ذلك النبي ﷺ فأمر علياً أن يأخذ الراية منه، ويقال أمر الزبير. وكان على الميمنة خالد بن الوليد ومنها أسلم وغفار ومزينة وجهينة، وعلى الميسرة الزبير، وعلى المقدمة أبو عبيدة بن الجراح.

وسرب رسول اللّه ﷺ الجيوش من ذي طوى، وأمرهم بالدخول إلى مكة: الزبير من أعلاها، وخالد من أسفلها، وأن يقاتلوا من تعرض لهم. وكان عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو قد جمعوا للقتال، فناوشهم أصحاب خالد القتال، واستشهد من المسلمين كرز بن جابر من بني محارب، وخنيس بن خالد من خزاعة، وسلمة بن جهينة، وانهزم المشركون وقتل منهم ثلاثة عشر وأمن النبي ﷺ سائر الناس.

وكان الفتح لعشر بقين من رمضان، وأهدر دم جماعة من المشركين سماهم يومئذ منهم: عبد العزى بن خطل من بني تميم، والأدرم بن غالب كان قد أسلم وبعثه رسول اللّه ﷺ مصدقاً ومعه رجل من المشركين فقتله وارتد ولحق بمكة وتعلق يوم الفتح بأستار الكعبة فقتله سعد بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي. ومنهم: عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح كان يكتب للنبي ﷺ ثم ارتد ولحق بمكة ونميت عنه أقوال، فاختفى يوم الفتح وأتى به عثمان بن عفان وهو أخوه من الرضاعة فاستأمن له فسكت عليه السلام ساعة ثم أمنه، فلما خرج قال لأصحابه: «هلا ضربتم عنقه!» فقال له بعض الأنصار: هلا أومأت إلي؟ فقال: «ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين» ولم يظهر بعد إسلامه إلا خير وصلاح واستعمله عمر وعثمان.

ومنهم الحويرث بن نفيل من بني عبد بن قصي كان يؤذي رسول اللّه ﷺ بمكة فقتله علي بن أبي طالب يوم الفتح. ومنهم مقيس بن صبابة كان هاجر في غزوة الخندق ثم عدا على رجل من الأنصار كان قتل أخاه قبل ذلك غلطاً ووداه فقتله وفر إلى مكة مرتداً، فقتله يوم الفتح نميلة بن عبد اللّه الليثي وهو ابن عمه.

ومنهم قينتا ابن خطل كانتا تغنيان بهجو النبي ﷺ فقتلت إحداهما واستؤمن للأخرى فأمنها.

ومنهم مولاة لبني عبد المطلب اسمها سارة واستؤمن لها فأمنها رسول اللّه ﷺ. واستجار رجلان من بني مخزوم بأم هاني بنت أبي طالب يقال إنهما الحرث بن هشام وزهير بن أبي أمية أخو أم سلمة فأمنتهما، وأمضى رسول اللّه ﷺ أمانهما فأسلما.

ثم دخل رسول اللّه ﷺ المسجد وطاف بالكعبة وأخذ المفتاح من عثمان بن طلحة بعد أن مانعت دونه أم عثمان ثم أسلمته، فدخل الكعبة ومعه أسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة وأبقى له حجابة البيت فهي في ولد شيبة إلى اليوم. وأمر بكسر الصور داخل الكعبة وخارجها، وبكسر الأصنام حواليها، ومر عليها وهي مسدودة بالرصاص يشير إليها بقضيب في يده وهو يقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ فما بقي منهم صنم إلا خرّ على وجهه. وأمر بلالاً فأذن على ظهر الكعبة ووقف رسول اللّه ﷺ بباب الكعبة ثاني يوم الفتح وخطب خطبته المعروفة، ووضع مآثر الجاهلية إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، وأخبر أن مكة لم تحل لأحد قبله ولا بعده، وإنما أحلت له ساعة من نهار ثم عادت كحرمتها بالأمس، ثم قال: «لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ألا إن كل مأثورة أو دم أو مال يدعى في الجاهلية فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة الكعبة وسقاية الحاج، ألا وإن قتل الخطأ مثل العمد بالسوط والعصا فيهما الدية مغلظة منها أربعون في بطونها أولادها، يا معشر قريش إن اللّه قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء الناس من آدم وآدم خلق من تراب»

ثم تلا رسول اللّه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ «يا معشر قريش ويا أهل مكة ما ترون أني فاعل فيكم؟» قالوا: خيراً! أخ كريم، ثم قال: «اذهبوا

فأنتم الطلقاء». وأعتقهم على الإسلام وحبس لهم فيما قيل على الصفا فبايعوه على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، ولما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء. أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يبايعهن واستغفر لهن رسول الله ﷺ لأنه كان لا يمس امرأةً حلالاً ولا حراماً.

وهرب صفوان بن أمية إلى اليمن واتبعه عمير بن وهب من قومه بأمان النبي ﷺ له فرجع وأنذره أربعة أشهر، وهرب ابن الزبير الشاعر إلى نجران ورجع فأسلم، وهرب هبيرة بن أبي وهب المخزومي زوج أم هاني إلى اليمن فمات هنالك كافراً.

ثم بعث النبي ﷺ السرايا حول مكة ولم يأمرهم بقتال، وفي جملتهم خالد بن الوليد إلى بني جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة فقتل منهم وأخذ ذلك عليه، وبعث إليهم علياً بمال فودى لهم قتلاهم ورد عليهم ما أخذ لهم. ثم بعث رسول الله ﷺ خالداً إلى العزى بيت بنخلة كانت قصر تعظمه من قريش وكنانة وغيرهم، وسدنة بنو شيبان من بني سليم حلفاء بني هاشم فهزمهم، ثم أن الأنصار توقفوا إلى أن يقيم ﷺ بمكة داره بعد أن فتحها فأعلمهم ذلك وخرجوا له، فخطبهم ﷺ وأخبرهم أن المحيا محياهم والممات مماتهم فسكتوا لذلك واطمأنوا.

غزوة حنين

وأقام رسول الله ﷺ بمكة خمس عشرة ليلة وهو يقصر الصلاة فبلغه أن هوازن وثقيف جمعوا له وهم عامدون إلى مكة وقد نزلوا حنيناً، وكانوا حين سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ من المدينة يظنون أنه إنما يريدهم، فاجتمعت هوازن إلى مالك بن عوف من بني النضير، وقد أوعب معه بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن وبني جشم بن معاوية، وبني سعد بن بكر وناساً من بني هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية والأحلاف، من بني مالك بن ثقيف بن بكر، ولم يحضرها من هوازن كعب ولا من كلاب. وفي جشم دريد بن الصمة بن بكر بن علقمة بن خزاعة بن أزية بن جشم رئيسهم وسيدهم شيخ كبير ليس فيه إلا ليؤتم برأيه ومعرفته.

وفي ثقيف سيدان ليس لهم في الأحلاف إلا قارب بن الأسود بن مسعود بن معتب، وفي بني مالك ذو الخمار سبيع بن الحرث بن مالك وأخوه أحمر. وجمع أمر الناس إلى مالك بن عوف. فلما أتاهم أن رسول الله ﷺ قد فتح مكة أقبلوا عامدين إليه، وساق مالك مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم يرى أنه أثبت لموقفهم، فنزلوا بأوطاس، فقال دريد بن الصمة لمالك: ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمار وبعار الشاء وبكاء الصغير، فقال: أموال الناس وأبناؤهم سقنا معهم ليقاتلوا عنها، فقال: راعي ضأن والله وهل يرد المنهزم شيء؟ إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسلاحه وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك. ثم سأل عن كعب وكلاب وأسف لغيابهم وأنكر على مالك رأيه ذلك، وقال: لم تصنع بتقديم نقيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً ارفعهم إلى ممتنع بلادهم، ثم ألق الصبيان على متون الخيل فإن كانت لك لحق بك من وراءك وإن كانت لغيرك كنت قد أحرزت أهلك ومالك. وأبى عليه مالك واتبعه هوازن. ثم بعث النبي ﷺ عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي يستعلم بخبر القوم فجاءه وأطلعه على جلية الخبر وأنهم قاصدون إليه، فاستعار رسول الله ﷺ من صفوان بن أمية مائة درع وقيل أربعمائة وخرج على اثني عشر ألفاً من المسلمين عشرة آلاف الذين صحبوه من المدينة وألفان من مسلمة الفتح، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية ومضى لوجهه. وفي جملة من اتبعه عباس بن مرداس، والضحاك بن سفيان الكلابي، وجموع من عبس وذبيان، ومزينة وبني أسد.

ومر في طريقه بشجرة سدر خضراء، وكان لهم في الجاهلية مثلها يطوف بها الأعراب ويعظمونها ويسمونها ذات أنواط فقال له جفاة الأعراب: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال لهم: « قلتم كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم » وزجرهم عن ذلك.

ثم نهض حتى أتى وادي حنين من أودية تهامة أول يوم من شوال من السنة الثامنة وهو وادي الحزن، فتوسطه في غبش الصبح وقد كمنت هوازن جانبيه فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد، فولى المسلمون لا يلوي أحد على أحد، وناداهم ﷺ فلم يرجعوا. وثبت معه أبو بكر وعمر وعلي والعباس وأبو سفيان بن الحرث وابنه جعفر والفضل وقثم ابنا العباس وجماعة سواهم، والنبي ﷺ على بغلته البيضاء دلدل والعباس آخذ بشكائمها وكان جهير الصوت فأمره رسول الله ﷺ أن ينادي بالأنصار وأصحاب الشجرة وقيل وبالمهاجرين، فلما سمعوا الصوت وذهبوا ليرجعوا فصدهم ازدحام المنهزمين أن يثنوا رواحلهم، فاستقاموا وتناولوا سيوفهم وتراسهم واقتحموا عن الرواحل راجعين إلى النبي ﷺ، وقد اجتمع منهم حواليه نحو المائة فاستقبلوا هوازن والناس متلاحقون، واشتدت الحرب وحمي الوطيس وقذف الله في قلوب هوازن الرعب حين وصلوا إلى

رسول الله ﷺ فلم يملكوا أنفسهم، فولوا منهزمين ولحق آخر الناس وأسرى هوازن مغلولة بين يديه. وغنم المسلمون عيالهم وأموالهم واستحر القتل في بني مالك من ثقيف فقتل منهم يومئذ سبعون رجلاً في جملتهم ذو الخمار وأخوه عثمان ابنا عبد الله بن ربيعة بن حبيب سيداهم، وأما قارب بن الأسود سيد الأحلاف من ثقيف ففر بقومه منذ أول الأمر وترك رايته فلم يقتل منهم أحد، ولحق بعضهم بنخلة. وهرب مالك بن عوف النصري مع جماعة من قومه فدخلوا الطائف مع ثقيف، واتجهت طوائف من هوازن إلى أوطاس واتبعتهم طائفة من خيل المسلمين الذين توجهوا من نخلة فأدركوا فيهم دريد بن الصمة فقتلوه، يقال قتله ربيعة بن رافع بن أهبان بن ثعلبة بن يربوع بن سماك بن عوف بن امرئ القيس. وبعث ﷺ إلى من اجتمع بأوطاس من هوازن أبا عامر الأشعري عم أبي موسى فقاتلهم، وقتل بسهم رماه به سلمة بن دريد بن الصمة فأخذ أبو موسى الراية وشد على قاتل عمه فقتله. وانهزم المشركون واستحر القتل في بني رباب من بني نصر بن معاوية، وانفضت جموع هوازن كلها. واستشهد من المسلمين يوم حنين أربعة منهم أيمن ابن أم أيمن أخو أسامة لأمه، ويزيد بن زمعة بن الأسود، وسراقة بن الحرث من بني العجلان، وأبو عامر الأشعري.

حصار الطائف

ثم أمر رسول الله ﷺ بالسبايا والأموال فحبست بالجعرانة بنظر مسعود بن عمرو الغفاري، وسار من فوره إلى الطائف فحاصر بها ثقيف خمس عشرة ليلة، وقاتلوا من وراء الحصون، وأسلم من كان حولهم من الناس وجاءت وفودهم إليه. وقد كان مر في طريقه بحصن مالك بن عوف النصري فأمر بهدمه، ونزل على أطم لبعض ثقيف فتمنع فيه صاحبه فأمر بهدمه فأخرب وتحصنت ثقيف. وقد كان عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة من ساداتهم ذهبا إلى جرش يتعلمان صنعة المجانيق والدبابات للحصار لما أحسوا من قصد رسول الله ﷺ إياهم فلم يشهدا الحصار ولا حنيناً قبله، وحاصرهم المسلمون بضع عشرة أو نصف شهر أو بضع وعشرين ليلة واستشهد بعضهم بالنبل ورماهم ﷺ بالمنجنيق، ودخل نفر من المسلمين تحت دبابة ودنوا إلى سور الطائف فصبوا عليهم سكك الحديد المحماة ورموهم بالنبل فأصابوا منهم قوماً، وأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناقهم، ورغب إليه ابن الأسود بن مسعود في ماله وكان بعيداً من الطائف وكف عنه، ثم رحل عن الطائف وتركهم ونزل أبو بكرة فأسلم.

واستشهد من المسلمين في حصاره: سعيد بن سعيد بن العاص، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة أخو أم سلمة، وعبد الله بن عامر بن ربيعة العنزي حليف بني عدي في آخرين قريباً من اثني عشر فيهم أربعة من الأنصار.

ثم انصرف رسول الله ﷺ من الجعرانة وأتاه هنالك وفد هوازن مسلمين راغبين، فخيرهم بين العيال والأبناء والأموال فاختاروا العيال والأبناء، وكلموا المسلمين في ذلك بأمر رسول الله ﷺ فقال ﷺ : « ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم » وقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. وامتنع الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن أن يردا عليهم ما وقع لهما من الفيء وساعدهما قومهما، وامتنع العباس بن مرداس كذلك. وخالفهم بنو سليم وقالوا: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فعرض رسول الله ﷺ من لم تطب نفسه عن نصيبه. ورد عليهم نساءهم وأبناءهم بأجمعهم.

وكان عدد سبي هوازن ستة آلاف بين ذكر وأنثى فيهن الشيماء أخت النبي ﷺ من الرضاعة وهي بنت الحرث بن عبد العزى من بني ساعدة بن بكر من هوازن، وأكرمها رسول الله ﷺ وأحسن إليها وخيرها فاختارت قومها فردها إليهم. وقسم الأموال بين المسلمين، ثم أعطى من نصيبه من خمس الخمس قوماً يستألفهم على الإسلام من قريش وغيرهم، فمنهم من أعطاه مائة مائة، ومنهم خمسين خمسين، ومنهم ما بين ذلك، ويسمون المؤلفة وهم مذكورون في كتب السير يقاربون الأربعين: منهم أبو سفيان وابنه معاوية وحكيم بن حزام وصفوان بن أمية ومالك بن عوف وغيرهم، ومنهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر والأقرع بن حابس وهما من أصحاب المائة، وأعطى ابن عباس بن مرادس دونهما، فأنشده أبياته المعروفة يتسخط فيها، فقال: « اقطعوا عني لسانه فأتموا إليه المائة »

ولما أعطى المؤلفة قلوبهم وَجد الأنصار في أنفسهم إذ لم يعطهم مثل ذلك وتكلم شبانهم مع ما كانوا يظنون أنه إذا فتح الله عليه بلده يرجع إلى قومه ويتركهم، فجمعهم ووعظهم وذكرهم وقال: «إنما أعطي قوماً حديثي عهد بالإسلام أتألفهم عليه، أما ترضون أن ينصرف الناس بالشاء والبعير وتنصرفوا برسول الله صلى ا لله عليه وسلم إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الأنصار شعباً وسلك الناس شعباً لسلكت شعب الأنصار» فرضوا وافترقوا.

ثم اعتمر رسول الله ﷺ من الجعرانة إلى مكة، ثم رجع إلى المدينة فدخلها لست بقين من ذي القعدة من السنة الثامنة

لشهرين ونصف من خروجه، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد شاباً ينيف عمره على عشرين سنة، وكان غلبه الورع والزهد فأقام الحج بالمسلمين في سنته وهو أول أمير أقام حج الإسلام وحج المشركون على مشاعرهم.

وخلف بمكة معاذ بن جبل يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن، وبعث عمرو بن العاص إلى أهل حنين وعمرو بن الجلندي من الأزد بعمان مصدقاً فأطاعوا له بذلك. واستعمل ﷺ مالك بن عوف على من أسلم من قومه ومن سلم منهم وما له حوالي الطائف من ثقيف، وأمره بمغادرة الطائف من التضييق عليهم ففعل حتى جاؤوا مسلمين كما يذكر بعد. وحسن إسلام المؤلفة قلوبهم ممن أسلم يوم الفتح أو بعده وإن كانوا متفاوتين في ذلك. ووفد على النبي ﷺ كعب بن زهير فأهدر دمه وضاقت به الأرض، وجاء فأسلم وأنشد النبي ﷺ قصيدته المعروفة بمدحه التي أولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول... إلخ.

وأعطاه بردة في ثواب مدحه فاشتراها معاوية من ورثته بعد موته وصار الخلفاء يتوارثونها شعاراً.

غزوة تبوك

ووفد في السنة تسع على رسول الله ﷺ بالمدينة بنو أسد فأسلموا وكان منهم ضرار بن الأزور، وقالوا: قدمنا يا رسول الله قبل أن يرسل إلينا فنزلت ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ الآية. ووفد فيها وفدتين في شهر ربيع الأول ونزلوا على رويفع بن ثابت البلوي. وأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد منصرفه من الطائف في ذي الحجة إلى شهر رجب من السنة التاسعة.

ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم: وكان في غزواته كثيراً ما يوري بغير الجهة التي يقصدها على طريقة الحرب إلا ما كان من هذه الغزاة لعسرها بشدة الحر، وبعد البلاد وفصل الفواكه وقلة الظلال وكثرة العدو الذين يصدون. وتجهز الناس على ما في أنفسهم من استثقال ذلك، وطفق المنافقون يثبطونهم عن الغزو، وكان نفر منهم يجتمعون في بيت بعض اليهود، فأمر طلحة بن عبيد الله أن يخرب عليهم البيت فخربها. واستأذن ابن قيس من بني سلمة في القعود فأذن له وأعرض عنه، وانتدب كثير من المسلمين للإنفاق والحملان وكان من أعظمهم في ذلك عثمان بن عفان يقال: إنه أنفق فيها ألف دينار وحمل على تسعمائة بعير ومائة فرس وجهز ركاباً. وجاء بعض المسلمين يستحمل رسول الله ﷺ فلم يجد ما يحملهم عليه فتولوا باكين لذلك، وحمل بعضهم يامين بن عمير النضير وهما أبو ليلى بن كعب من بني مازن بن النجار وعبد الله بن مغفل المزني. واعتذر المخلفون من الأعراب فعذرهم رسول الله ﷺ. ثم نهض وخلف على المدينة محمد بن مسلمة وقيل: بل سباع بن عرفطة وقيل: بل علي بن أبي طالب، وخرج معه عبد الله بن أبي بن سلول في عدد وعدة، فلما سار ﷺ تخلف هو فيمن تخلف من المنافقين. ومر ﷺ بالحجر على ديار ثمود فأمر أن لا يستعمل ماؤها ويعلف ما عجن منه للإبل، وأذن لهم في بئر الناقة، وأمر أن لا يدخلوا عليهم بيوتهم إلا باكين، ونهى أن يخرج أحد منفرداً عن صاحبه.

فخرج رجلان من بني ساعدة جن أحدهما فمسح عليه فشفي، والآخر رمته الريح في جبل طيء فردوه بعد ذلك إلى النبي ﷺ. وضل ﷺ عن ناقته في بعض الطريق، فقال أحد المنافقين: محمد يدعي علم خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: « والله لا أعلم إلا ما علمني الله وأن الناقة بموضع كذا » وكان قد أوحي إليه بها فوجدوها ثمّ، وكان قائل هذا القول زيد بن اللصيت من بني قينقاع وقيل: إنه تاب بعد ذلك. وفضح الوحي قوماً من المنافقين كانوا يخذلون بالناس ويهولون عليهم أمر الروم، فتاب منهم مخشي بن جهير ودعا أن يكفر عنه بشهادة يخفي مكانه فقتل يوم اليمامة.

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة وأهل جرباء وأذرح فصالحوا على الجزية وكتب لكل كتاباً. وبعث ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل من كندة كان ملكاً عليها وكان نصرانياً وأخبر أنه يجده يصيد البقر، واتفق أن بقر الوحش باتت تهد القصر بقرونها فنشط أكيدر لصيدها وخرج ليلاً، فوافق وصوله خالداً، فأخذه وبعث به إلى رسول الله ﷺ فعفا عنه وصالحه على الجزية ورده. وأقام بتبوك عشرين ليلة، ثم انصرف، وكان في طريقه ماء قليل نهى أن يسبق إليه أحد، فسبق رجلان واستنفدا ما فيه فنكر عليهما ذلك، ثم وضع يده تحت وشلة فصب ما شاء الله أن يصب ونضح بالوشل ودعا فجاش الماء حتى كفى العسكر.

وأخبر ﷺ أن ذلك الموضع سمي جناباً ولما قرب من المدينة بساعة من نهار أنفذ مالك بن الدخشم من بني سليم ومعن بن عدي من بني العجلان إلى مسجد الضرار، فأحرقاه وهدماه، وقد كان جماعة من المنافقين بنوه وأتوا إلى النبي ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فسألوه الصلاة فيه، فقال: « أنا على سفر ولو قدمنا أتيناكم فصلينا لكم فيه » فلما رجع أمر بهدمه.

وفي هذه الغزاة تخلف كعب بن مالك من بني سلمة ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف وهلال بن أمية بن واقف وكانوا صالحين، فنهى ﷺ عن كلامهم خمسين يوماً، ثم نزلت توبتهم، وكان المتخلفون من غير عذر نيفاً وثلاثين رجلاً. وكان وصوله ﷺ من تبوك في رمضان سنة تسع، وفيه كانت وفادة ثقيف وإسلامهم، ونزل الكثير من سورة براءة في شأن المنافقين وما قالوه في غزوة تبوك آخر غزوة غزاها ﷺ.

إسلام عروة بن مسعود ثم وفد ثقيف وهدم اللات

كان ﷺ لما أفرج عن الطائف وارتحل إلى المدينة اتبعه عروة بن مسعود سيدهم، فأدركه في طريقه وأسلم ورجع يدعو قومه، فرمي بسهم في سطح بيته وهو يؤذن للصلاة فمات، ومنع قومه من الطلب بدمه وقال: هي شهادة ساقها الله إلي وأوصى أن يدفن مع شهداء المسلمين. ثم قدم ابنه أبو المليح وقارب بن مسعود فأسلما، وضيق مالك بن عوف على ثقيف واستباح سرحهم وقطع سابلتهم. وبلغهم رجوع النبي ﷺ من تبوك وائتمروا في الوفادة وعلموا أن لا طاقة لهم بحرب العرب المسلمين، وفزعوا إلى عبد ياليل بن عمرو بن عمير، فشرط عليهم أن يبعثوا معه رجالا منهم ليحضروا مشهده خشية على نفسه مما نزل بعروة، فبعثوا معه رجلين من أحلاف قومه وثلاثاً من بني مالك، فخرج بهم عبد ياليل وقدموا على رسول الله ﷺ في رمضان من السنة التاسعة يريدون البيعة والإسلام فضرب لهم قبة في المسجد، وكان خالد بن سعيد بن العاص يمشي في أمرهم وهو الذي كتب كتابهم بخطه، وكانوا لا يأكلون طعاماً يأتيهم حتى يأكل منه خالد، وسألوه أن يدع لهم اللات ثلاث سنين رعياً لنسائهم وأبنائهم حتى يأنسوا فأبى، وسألوه أن يعفيهم من الصلاة فقال: لا خير في دين لا صلاة فيه، فسألوه أن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم فقال: أما هذه فأنا سنكفيكهم منها. فأسلموا وكتب لهم وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص أصغرهم سناً لأنه كان حريصاً على الفقه وتعلم القرآن. ثم رجعوا إلى بلادهم، وخرج معهم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم اللات، وتأخر أبو سفيان حتى دخل المغيرة فتناولها بيده ليهدمها، وقام بنو معتب دونه خشية عليه. ثم جاء أبو سفيان وجمع ما كان لها من الحلي وقضى منه دين عروة والأسود ابني مسعود كما أمر النبي ﷺ وقسم الباقي.

الوفود

ولما فرغ رسول الله ﷺ من تبوك وأسلمت ثقيف ضربت إليه وفود العرب من كل وجه حتى لقد سميت سنة الوفود. قال ابن إسحاق: وإنما كانت العرب تتربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر النبي ﷺ، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم وأهل البيت والحرم وصريح ولد إسماعيل وقادتهم لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحربه وخلافه. فلما افتتحت مكة ودانت قريش ودخلها الإسلام عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم بحربه وعداوته، فدخلوا في دينه أفواجاً يضربون إليه من كل وجه انتهى.

فأول من قدم إليه بعد تبوك وفد بني تميم وفيه من رؤوسهم: عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس من بني دارم بن مالك، والحباب بن يزيد، والأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر من بني سعد، وقيس بن عاصم، وعمرو بن الأهتم وهما من بني منقر، ونعيم بن زيد ومعهم عيينة بن حصن الفزاري. وقد كان الأقرع وعيينة شهدا فتح مكة وخيبر وحصار الطائف، ثم جاءا مع وفد بني تميم، فلما دخلوا المسجد نادوا من وراء الحجرات فنزلت الآيات في إنكار ذلك عليهم. ولما خرج قالوا جئنا: نفاخرك بخطيبنا وشاعرنا فأذن لهم، فخطب عطارد وفاخر ويقال والأقرع بن حابس، ثم أنشد الزبرقان بن بدر شعراً بالمفاخرة، ودعا رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن الشماس من بني الحرث بن الخزرج فخطب وحسان بن ثابت فأنشد مساجلين لهم، فأذعنوا للخطبة والشعر والسؤدد والحلم، وقالوا: هذا الرجل هو مؤيد من الله خطيبه أخطب من خطيبنا وشاعره أشعر من شاعرنا وأصواتهم أعلى من أصواتنا، ثم أسلموا وأحسن رسول الله ﷺ جوازهم. وهذا كان شأنه مع الوفود ينزلهم إذا قدموا ويجهزهم إذا رحلوا.

ثم قدم على رسول الله ﷺ في آخر رمضان مقدمه من تبوك كتاب ملوك حمير مع رسولهم ومع الحرث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان قيل ذي رعين وهمدان ومعافر. وبعث زرعة بن ذي يزن رسوله مالك بن مرة الرهاوي بإسلامهم ومفارقة الشرك، وأهله وكتب إليهم النبي ﷺ كتابه. وبعث إلى ذي يزن معاذ بن جبل مع رسوله مالك بن مرة لجمع الصدقات، وأوصاهم برسله معاذ وأصحابه. ثم مات عبد الله بن أبي بن سلول في ذي القعدة، ونعى رسول الله ﷺ النجاشي وإنه مات في رجب قبل تبوك.

وقدم وفد بهرا في ثلاثة عشر رجلاً ونزلوا على المقداد بن

عمرو وجاء بهم فأسلموا وأجازهم وانصرفوا.

وقدم وفد بني البكاء ثلاثة نفر منهم. وقدم وفد بني فرازة بضعة عشر رجلاً فيهم خارجة بن حصن وابن أخيه الحر بن قيس فأسلموا. ووفد عدي بن حاتم بن طيء فأسلم وكان رسول اللّه ﷺ قد بعث قبل تبوك إلى بلاد طيء علي بن أبي طالب في سرية فأغار عليهم، وأصيب حاتم وسبيت ابنته وغنم سيفين في بيت أصنامه كانتا من قربان الحرث بن أبي شمر، وكان عدي قد هرب قبل ذلك ولحق ببلاد قضاعة بالشام فرارا من جيوش المسلمين وجوارا لأهل دينه من النصارى وأقام بينهم، ولما سيقت ابنة حاتم جعلت في الحظيرة بباب المسجد التي كانت السبايا تحبس بها، ومر بها رسول اللّه ﷺ فكلمته أن يمن عليها، فقال: قد فعلت ولا تعجلي حتى تجدي ذا ثقة من قومك يبلغك إلى بلادك ثم آذنيني، قالت: فأقمت حتى قدم ركب من بني قضاعة وأنا أريد أن آتي أخي بالشام فعرفت رسول اللّه ﷺ فكساني وحملني وزودني وخرجت معه فقدمت الشام فلما لقيها عدي تلاوم ساعة ثم قال لها: ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ فأشارت عليه باللحاق به فوفد، وأكرمه رسول اللّه ﷺ وأدخله إلى بيته وأجلسه على وسادته، بعد أن استوقفته في طريقه امرأة فوقف لها، فعلم عدي أنه ليس بملك وإنما هو نبي، ثم أخبره عن أخذه المرباع من قومه ولا يحل له فازداد استبعاداً فيه، ثم قال: لعله إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من يأخذه، أو لعله يمنعك ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم فواللّه ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها تزور هذا البيت لا تخاف، أو لعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان لغيرهم فيوشك أن تسمع بالقصور البيض من بابل قد فتحت. فأسلم عدي وانصرف إلى قومه.

ثم أنزل اللّه على نبيه الأربعين آية من أول سورة براءة في نبذ العهد الذي بينه وبين المشركين لا يصدوا عن البيت، ونهوا أن يقرب المسجد الحرام مشرك بعد ذلك، وأن لا يطوف بالبيت عرياناً، وإن كان بينه وبين رسول اللّه ﷺ عهد فيتم له إلى مدته، وأجلهم أربعة أشهر من يوم النحر. فبعث رسول اللّه صلى اللّه عليه والسلام بهذه الآيات أبا بكر وأمره على إقامة الحج بالموسم من هذه السنة، فبلغ ذي الحليفة فاتبعه بعلي فأخذها منه، فرجع أبو بكر مشفقا أن يكون نزل فيه قرآن، فقال له النبي ﷺ: لم ينزل شيء ولكن: لا يبلغ عني غيري أو رجل مني. فسار أبو بكر على الحج وعلي على الأذن ببراءة، فحج أبو بكر بالناس وهم على حج الجاهلية، وقام علي عند العقبة يوم الأضحى فأذن بالآية التي جاء بها. قال الطبري: وفي هذه السنة فرضت الصدقات لقوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ الآية.

وفيها قدم وفد ثعلبة بن منقذ ووفد هذيم من قضاعة. قال الطبري: وفيها بعث بنو سعد بن بكر ضمضام بن ثعلبة وافداً فاستحلف رسول اللّه ﷺ على ما جاء به من الإسلام، وذكر التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج واحدة واحدة حتى إذا فرغ تشهد وأسلم، وقال: لأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيت عنه ثم لا أزيد عليها ولا أنقص، فلما انصرف قال ﷺ: إن صدق دخل الجنة، ثم قدم على قومه فأسلموا كلهم يوم قدومه. والذي عليه الجمهور: أن قدوم ضمضام وقصته كانت سنة خمس.

ثم دخلت سنة عشر فبعث رسول اللّه ﷺ خالد بن الوليد في ربيع أو جمادى في سرية أربعمائة إلى نجران وما حولها يدعو بني الحرث بن كعب إلى الإسلام ويقاتلهم إن لم يفعلوا، فأسلموا وأجابوا داعيته، وبعث الرسل في كل وجه فأسلم الناس فكتب بذلك إلى رسول اللّه ﷺ، فكتب إليه بأن يقدم مع وفدهم، فأقبل خالد ومعه وفد بني الحرث بن كعب منهم قيس بن الحصين ذو القصة ويزيد بن عبد اللّه المران ويزيد بن المحجل وعبد اللّه بن قريض الزيادي وشداد بن عبد اللّه الضبابي وعمرو بن عبد اللّه الضبابي، فأكرمهم النبي ﷺ وقال لهم: بم كنتم تغلبون من يقاتلكم في الجاهلية؟ قالوا: كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحداً بظلم. قال: صدقتم، فأسلموا وأمر عليهم قيس بن الحصين، ورجعوا صدر ذي القعدة من سنة عشر، ثم اتبعهم عمرو بن حزام من بني النجار ليفقههم في الدين ويعلمهم السنة، وكتب إليه كتاباً عهد إليه في عهده وأمره بأمره، وأقام عاملا على نجران. وهذا الكتاب وقع في السير مروياً واعتمده الفقهاء في الاستدلالات وفيه مآخذ كثيرة للأحكام الفقهية ونصه:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم. هذا كتاب من اللّه ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾، عهداً من محمد النبي رسول اللّه ﷺ لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن أمره بتقوى اللّه في أمره كله فإن اللّه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره اللّه وأن يبشر الناس بالخير ويأمرهم به ويعلم الناس القرآن ويفقههم فيه، وينهى الناس فلا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر، ويخبر الناس بالذي لهم والذي عليهم، ويلين للناس في الحق ويشتد عليهم في الظلم فإن اللّه حرم الظلم ونهى عنه فقال: ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، وأن يبشر الناس بالجنة وبعملها وينذر الناس بالنار وعملها، ويستألف الناس حتى يتفقهوا في الدين، ويعلم الناس معالم الحج وسننه وفرائضه وما أمر اللّه به

والحج الأكبر والحج الأصغر وهو العمرة، وينهى الناس أن يصلي أحد في ثوب صغير إلا أن يكون ثوباً يثنى طرفيه على عاتقه، وينهى أن يحتبي أحد في ثوب واحد ويفضي بفرجه إلى السماء، وينهى أن يقص أحد شعر رأسه إذا عفا في قفاه، وينهي إذا كان بين الناس هيج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر وليكن دعاؤه إلى الله وحده لا شريك له فمن لم يدع إلى الله ودعا القبائل والعشائر فليعطفوه بالسيف حتى يكون دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له، ويأمر الناس بإسباغ الوضوء في وجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى الكعبين ويمسحوا برؤوسهم كما أمرهم الله، وأمرهم بالصلاة بوقتها وإتمام الركوع والسجود يغلس بالصبح ويهجر بالهاجرة حتى تميل الشمس وصلاة العصر والشمس في الأرض مدبرة والمغرب حين يقبل الليل لا تؤخر حتى تبدو نجوم السماء والعشاء أول الليل، وآمر بالسعي إلى الجمعة إذا نودي لها والغسل عند الرواح إليها، وآمره أن يأخذ من الغنائم خمس الله، وما كتب على المؤمنين في الصدقة من العقار عشر ما سقت العين أو سقت السماء وعلى ما سقى الغرب نصف العشر وفي كل عشر من الإبل شاتان وفي كل عشرين أربع شياة وفي كل أربعين من البقر بقرة وفي كل ثلاثين من البقر تبيع أو تبيعة جذع أو جذعة وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة فإنها فريضة الله التي افترض على المؤمنين في الصدقة فمن زاد خيراً فهو خير له، وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني إسلاماً خالصاً من نفسه ودان بدين الإسلام فإنه من المؤمنين له مثل مالهم وعليه ما عليهم ومن كان نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يرد عنها وعليه الجزية، وعلى كل محتلم ذكراً وأنثى حر أو عبد دينار واف أو عوضه ثياباً. فمن أدى ذلك فإن له ذمة الاسلام ذمة الله وذمة رسوله. ومن منع ذلك فإنه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعاً صلوات الله على محمد والسلام عليه ورحمته وبركاته».

وقدم وفد غسان في رمضان من هذه السنة العاشرة في ثلاثة نفر فأسلموا وانصرفوا إلى قومهم فلم يجيبوا إلى الإسلام فكتموا أمرهم وهلك اثنان منهم ولقي الثالث أبو عبيدة عام اليرموك فأخبره بإسلامه. وقدم عليه وفد عامر عشرة نفر فأسلموا وتعلموا شرائع الإسلام وأقرأهم النبي القرآن وانصرفوا.

وقدم في شوال وفد سلامان بسبعة نفر رئيسهم حبيب فأسلموا من قومهم وتعلموا القرآن وانصرفوا.

وفيها قدم أزد جرش وفد فيهم صرد بن عبد الله الأزدي في عشرة من قومه، ونزلوا على فروة بن عمرو، وأمر النبي ﷺ بعد أن أسلموا صرداً على من أسلم منهم، وأن يجاهد المشركين حوله. فحاصر جرش ومن بها من خثعم وقبائل اليمن، وكانت مدينة حصينة اجتمع إليها أهل اليمن حين سمعوا بزحف المسلمين، فحاصرهم شهراً، ثم قفل عنهم فظنوا أنه انهزم فاتبعوه إلى جبل شكر، فصف وحمل عليهم ونال منهم، وكانوا بعثوا إلى رسول الله ﷺ رائدين وأخبرها ذلك اليوم بواقعة شكر وقال: إن بدن الله لتنحر عنده الآن فرجعا إلى قومهما فأخبرهم بذلك وأسلموا وحمى لهم حمى حول قريتهم.

ومنها كان إسلام همدان ووفادتهم على يد علي رضي الله عنه، وذلك أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام، فمكث ستة أشهر لا يجيبونه، فبعث عليه السلام علي بن أبي طالب وأمره أن يقفل خالداً، فلما بلغ علي أوائل اليمن جمعوا له فلما لقوه صفوا فقدم علي الإنذار وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان كلها في ذلك اليوم، وكتب بذلك إلى النبي ﷺ فسجد لله شكراً، ثم قال: السلام على همدان ثلاث مرات. ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام وقدمت وفودهم، وكان عمرو بن معديكرب الزبيدي قال لقيس بن مكشوم المرادي: إذهب بنا إلى هذا الرجل فلن يخفى علينا أمره فأبى قيس من ذلك، فقدم عمرو على النبي ﷺ فأسلم، وكان فروة بن مسيك المرادي على زبيد لأنه وفد قبل عمرو مفارقاً لملوك كندة فأسلم ونزل على سعد بن عبادة وتعلم القرآن وفرائض الإسلام واستعمله رسول الله ﷺ على مراد وزبيد ومذحج كلها وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة فكان معهم في بلاده حتى كانت الوفاة.

وفي هذه السنة قدم وفد عبد القيس يقدمهم الجارود بن عمرو وكانوا على دين النصرانية، فأسلموا ورجعوا إلى قومهم. ولما كانت الوفاة ارتد عبد القيس ونصبوا المنذر بن النعمان بن المنذر الذي يسمى الغرور وثبت الجارود على الإسلام، وكان له المقام المحمود وهلك قبل أن يراجعوا. وقد كان رسول الله ﷺ بعث العلاء بن الحضرمي قبل فتح مكة إلى المنذر بن ساوي العبدي فأسلم وحسن إسلامه، وهلك بعد الوفاة وقبل ردة أهل البحرين والعلاء أمير عنده لرسول الله ﷺ على البحرين.

وفي هذه السنة قدم وفد بني حنيفة في سنة عشر فيهم: مسيلمة بن حبيب الكذاب، ورجال بن عنفوة، وطلق بن علي بن قيس، وعليهم سلمان بن حنظلة، فأسلموا وأقاموا أياماً يتعلمون القرآن من أبي بن كعب، ورجال يتعلم، وطلق يؤذن لهم، ومسيلمة في الرحال، وذكروا للنبي ﷺ مكانه في رحالهم فأجازه، وقال: ليس بشركم مكاناً لحفظه رحالكم، فقال مسيلمة: عرف أن

الأمر لي من بعده. ثم ادعى مسيلمة بعد ذلك النبوة، وشهد له طلق أن رسول الله ﷺ أشركه في الأمر فافتتن الناس به كما سنذكره.

وفيها قدم وفد كندة يقدمهم الأشعث بن قيس في بضعة عشر وقيل في ستين وقيل في ثمانين، وعليهم الديباج والحرير، وأسلموا ونهاهم النبي ﷺ عنه فتركوه. وقال له أشعث نحن بنو آكل المرار وأنت ابن آكل المرار فضحك وقال: ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحرث وكانا تاجرين فإذا ساحا في أرض العرب قال: نحن بنو آكل المرار فيعتز بذلك كأن لهم عليه ولادة من الأمهات، ثم قال نحن بنو النضر بن كنانة فانتفوا منا ولا ينتفي من الينا.

وقدم مع وفد كنانة وفد حضرموت وهم بنو وليعة، وملوكهم صمرة ومخوش ومرح والضعة فأسلموا ودعا لمخوش بإزالة الرتة من لسانه. وقدم وائل بن حجر راغباً في الإسلام فدعا له ومسح رأسه، ونودي الصلاة جامعة سروراً بقدومه، وأمر معاوية أن ينزل بالحرة، فمشى معه وكان راكباً فقال له معاوية: أعطني نعلك أتوقى بها الرمضاء، فقال: ما كنت لألبسها وقد لبستها. وفي رواية لا يبلغ أهل اليمن أن سوقة لبس نعل ملك فقال: أردفني قال: لست من أرداف الملوك، ثم قال: إن الرمضاء قد أحرقت قدمي قال: امش في ظل ناقتي كفاك به شرفاً. ويقال إنه وفد على معاوية في خلافته فأكرمه وكتب له رسول الله ﷺ كتاباً:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب محمد النبي لوائل بن حجر قيل حضرموت إنك إن أسلمت جعلت لك ما في يديك من الأرض والحصون ويؤخذ منك من كل عشرة واحدة ينظر في ذلك ذوو عدل منكم وجعلت لك ألا تظلم فيها معلم الدين. والنبي ﷺ والمؤمنين عليه أنصار».

قال عياض: وفيه إلى الأقيال العباهلة والأوراع المشايبب. وفيه في العبية شاة مقورة لالياط ولا ضناك وفي السيوب الخمس ومن زنى من بكر فاصفعوه مائة واستوفضوه عاماً، ومن زنى من ثيب فضرجوه بالاضاحيم، ولا توصيم في الدين ولا غمة في فرائض الله وكل مسكر حرام ووائل بن حجر يترفل على الأقيال.

وفيها قدم وفد محارب في عشرة نفر فأسلموا. وفيها قدم وفد الرها من مذحج في خمسة عشر نفرا وأهدوا فرساً، فأسلموا وتعلموا القرآن وانصرفوا، ثم قدم نفر منهم وحجوا مع رسول الله ﷺ، وتوفي فأوصى لهم بمائة وسق من خيبر جارية عليهم من الكتيبة وباعوها من معاوية.

وفيها قدم وفد نجران النصارى في سبعين راكباً يقدمهم أميرهم العاقب عبد المسيح من كندة، وأسقفهم أبو حارثة من بكر بن وائل، والسيد الأيهم وجادلوا عن دينهم، فنزل صدر سورة آل عمران وآية المباهلة فأبوا منها وفرقوا وسألوا الصلح، وكتب لهم به على ألف حلة في صفر وألف في رجب وعلى دروع ورماح وخيل وحمل ثلاثين من كل صنف، وطلبوا أن يبعث معهم والياً يحكم بينهم فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح، ثم جاء العاقب والسيد وأسلما.

وفيها قدم وفد الصدف من حضرموت في بضعة عشر نفرا فأسلموا، وعلمهم أوقات الصلاة وذلك في حجة الوداع. وفي هذه السنة قدم وفد عبس، قال ابن الكلبي: وفد منهم رجل واحد فأسلم ورجع ومات في طريقه. وقال الطبري: وفيها وفد عدي بن حاتم في شعبان انتهى.

وفيها قدم وفد خولان عشرة نفر فأسلموا وهدموا صنمهم، وكان وفد على رسول الله ﷺ في هدنة الحديبية قبل خيبر رفاعة بن زيد الضبيبي من جذام وأهدى غلاماً فأسلم، وكتب له رسول الله ﷺ كتاباً يدعوهم إلى الإسلام فأسلموا، ولم يلبث أن قفل دحية بن خليفة الكلبي منصرفاً من عند هرقل حين بعثه النبي ﷺ ومعه تجارة، فأغار عليه الهنيد بن عوض وقومه بنو الضليع من بطون جذام فأصابوا كل شيء معه، وبلغ ذلك مسلمين من بني الضبيب فاستنقذوا ما أخذه الهنيد وابنه وردوه على دحية، وقدم دحية على النبي ﷺ فأخبره الخبر، فبعث النبي ﷺ زيد بن حارثة في جيش من المسلمين فأغار عليهم بالقضقاض من حرة الرمل، وقتلوا الهنيد وابنه في جماعة وكان معهم ناس من بني الضبيب فاستباحوهم معهم وقتلوهم، فركب رفاعة بن زيد ومعه أبو زيد بن عمرو من قومه في جماعة منهم فقدموا على النبي ﷺ وأخبروه الخبر، فقال: كيف أصنع بالقتلى؟ فقالوا: يا رسول الله أطلق لنا من كان حياً، فبعث معهم علي بن أبي طالب وحمله على جمل وأعطاه سيفه فلحقه بفيفاء الفحلتين وأمره برد أموالهم فردها.

وفي هذه السنة قدم وفد عامر بن صعصعة فيهم: عامر بن الطفيل بن مالك، وأربد ابن ربيعة بن مالك، فقال له عامر: يا محمد اجعل لي الأمر بعدك، قال: ليس ذلك لك ولقومك، قال: اجعل لي الوبر ولك المدر، قال: لا ولكن أجعل لك أعنة الخيل فإنك امرؤ فارس، فقال: لأملأنها عليك خيلا ورجلاً ثم ولوا. فقال: اللهم أكفنيهم اللهم اهد عامر وأغن الإسلام عن عامر.

وذكر ابن إسحاق والطبري: أنهما أرادا الغدر برسول اللّه ﷺ فلم يقدروا عليه في قصة ذكرها أهل الصحيح، ثم رجعوا إلى بلادهم فأخذه الطاعون في عنقه فمات في طريقه في أحياء بني سلول وأصابت أخاه أربد صاعقة بعد ذلك. ثم قدم علقمة بن علاثة بن عوف وعوف بن خالد بن ربيعة وابنه فأسلموا.

وفيها قدم وفد طيء في خمسة عشر نفرا يقدمهم سيدهم زيد الخيل وقبيصة بن الأسود من بني نبهان فأسلموا، وسماه رسول اللّه ﷺ زيد الخير وأقطع له بئراً وأرضين معها وكتب له بذلك ومات في مرجعه.

وفي هذه السنة ادعى مسيلمة النبوة وأنه أشرك مع رسول اللّه ﷺ الأمر، وكتب إليه: من مسيلمة رسول اللّه إلى محمد رسول اللّه سلام عليك فإني قد أشركت في الأمر معك وأن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريش قوم لا يعدلون، وكتب إليه رسول اللّه ﷺ:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم. من محمد رسول اللّه ﷺ إلى مسيلمة الكذاب! سلام على من اتبع الهدى؟ أما بعد فـ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾».

قال الطبري: وقد قيل: إن ذلك كان بعد منصرف النبي ﷺ من حجة الوداع كما نذكر.

حجة الوداع

ثم خرج النبي ﷺ إلى حجة الوداع في خمسة ليال بقين من ذي العقدة ومعه من أشراف الناس ومائة من الإبل هدايا، ودخل مكة يوم الأحد لأربع خلون من ذي الحجة، ولقيه علي بن أبي طالب بصدقات نجران فحج معه، وعلم ﷺ الناس مناسكهم واسترحمهم وخطب الناس بعرفة خطبته التي بين فيها ما بين، حمد اللّه والثناء عليه ثم قال: «أيها الناس إسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وإن كان رباً فهو موضوع: فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون قضى اللّه أنه لا ربا إن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع كله وإن أول دم وضع دم ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب وكان مسترضعاً في بني ليث، فقتله بنو هذيل فهو أول ما أبدئ من دم الجاهلية. أيها الناس إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم أبرح الناس!. ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ الا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السموات والأرض وإن عدة الشهور عند اللّه اثنا عشر شهراً في كتاب اللّه يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الفرد الذي بين جمادى وشعبان أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن اللّه قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوار لا يملكن لأنفسهن من الخير شيئاً وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة اللّه واستحللتم فروجهن بكلمة اللّه فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي فإني قد بلغت وتركت فيكم ما إن استعصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب اللّه وسنة نبيه، أيها الناس! اسمعوا قولي واعلموا إن كل مسلم أخو المسلم وإن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من مال أخيه إلا ما أعطاه إياه عن طيب نفس فلا تظلموا أنفسكم ألا اللّهم قد بلغت» فذكر أنهم قالوا: اللّهم نعم. فقال رسول اللّه ﷺ: «اللّهم اشهد». وكانت هذه الحجة تسمى حجة البلاغ وحجة الوداع لأنه لم يحج بعدها وقد كان حج قبل ذلك حجتين واعتمر مع حجة الوداع عمرة فتلك ثلاث ثم انصرف إلى المدينة في بقية ذي الحجة من العاشر.

العمال على النواحي

كان رسول اللّه ﷺ حين أسلم باذان عامل كسرى على اليمن وأسلمت اليمن أمره على جميع مخاليفها ولم يشرك معه فيها أحد حتى مات، وبلغه موته وهو منصرف من حجة الوداع فقسم عمله على جماعة من الصحابة، فولى على صنعاء ابنه شمر بن باذان، وعلى مأرب أبا موسى الأشعري، وعلى الجند يعلى بن أمية، وعلي همدان عامر بن شمر الهمداني، وعلى عك والأشعريين الطاهر بن أبي هالة وعلى ما بين نجران وزمع وزبيد خالد بن سعيد بن العاص، وعلى نجران عمرو بن حزام، وعلى بلاد حضرموت زياد بن لبيد البياضي، وعلى السكاسك والسكون عكاشة بن ثور بن أصغر الغوثي، وعلى معاوية بن كندة عبد اللّه المهاجر بن أبي أمية واشتكى المهاجر فلم يذهب فكان زياد بن لبيد

يقوم على عمله، وبعث معاذ بن جبل معلماً لأهل اليمن وحضرموت، وكان قبل ذلك قد بعث على الصدقات عدي بن حاتم على صدقة طيء وأسد، ومالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة، وقسم صدقة بني سعد بين رجلين منهم، وبعث العلاء بن الحضرمي على البحرين وبعث علي بن أبي طالب إلى نجران ليجمع صدقاتهم وجزيتهم ويقدم عليه بها فوافاه من حجة الوداع كما مر.

خبر العنسي

كان الأسود العنسي واسمه عيهلة بن كعب ولقبه ذو الخمار، وكان كاهناً مشعوذاً يفعل الأعاجيب ويخلب بحلاوة منطقه، وكانت داره كهف خيار بها ولد ونشأ وادعى النبوة، وكاتب مذحجاً عامة فأجابوه وأوعدوا نجران فوثبوا بها وأخرجوا عمرو بن حزام وخالد بن سعيد بن العاص وأقاموه في عملها، ووثب قيس بن عبد يغوث على فروة بن مسيك وهو على مراد فأجلوه، وسار الأسود في سبعمائة فارس إلى شمر بن باذان بصنعاء فلقيه شمر بن باذان فهزمه الأسود فقتله، وغلب على ما بين صنعاء وحضرموت إلى أعمال الطائف إلى البحرين من قبل عدن، وجعل يطير استطارة الحريق وعامله المسلمون بالتقية، وارتد كثير من أهل اليمن. وكان عمرو بن معدي يكرب مع خالد بن سعيد بن العاص، فخالفه واستجاب للأسود، فسار إليه خالد ولقيه فاختلفا ضربتين فقطع خالد سيفه الصمصامة وأخذها، ونزل عمرو عن فرسه وفتك في الخيل ولحق عمرو بالأسود فولاه على مذحج وكان أمر جنده إلى قيس بن عبد يغوث المرادي، وأمر الأبناء إلى فيروز ودادويه وتزوج امرأة شهر بن باذان واستفحل أمره. وخرج معاذ بن جبل هارباً ومر بأبي موسى الأشعري في مأرب فخرج معه ولحقا بحضرموت، ونزل معاذ في السكون وأبو موسى في السكاسك، ولحق عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بالمدينة. وأقام الطاهر بن أبي هالة ببلاد عك جبال صنعاء، فلما ملك الأسود اليمن واستفحل استخف بقيس بن عبد يغوث وبفيروز ودادويه، وكانت ابنة عم فيروز هي زوجة شمر بن باذان التي تزوجها الأسود بعد مقتله واسمها أزاد. وبلغ إلى النبي ﷺ فكتب مع وبر بن عنيس إلى الأبناء وأبي موسى ومعاذ والطاهر يأمرهم فيه أن يعملوا في أمر الأسود بالغيلة أو المصادقة ويبلغ عنه ما يروم عنده ديناً أو نجدة، وأقام معاذ والأبناء في ذلك فداخلوا قيس بن عبد يغوث في أمره فأجاب، ثم داخل فيروز بنت عمه زوجة الأسود فواعدته قتله، وكتب النبي ﷺ إلى عامر بن شمر الهمداني وبعث جرير بن عبد الله إلى ذي الكلاع وذي أمران وذي ظليم من أهل ناحيته وإلى أهل نجران من عربهم ونصاراهم واعترضوا الأسود ومشوا وتنحوا إلى مكان واحد. وأخبر الأسود شيطانه بغدر قيس وفيروز ودادويه فعاتبهم وهم بهم، ففروا إلى امرأته وواعدتهم أن ينقبوا البيت من ظهره ويدخلوا فيبيتوه، ففعلوا ذلك ودخل فيروز ومعه قيس فقتل عنقه ثم ذبحه، فنادى بالأذان عند طلوع الفجر ونادى دادويه بشعار الإسلام، وأقام وبر بن حنيس الصلاة واهتاج الناس مسلمهم وكافرهم وماج بعضهم في بعض واختطف الكثير من أصحابه صبياناً من أبناء المسلمين، وبرزوا وتركوا كثيراً من أبنائهم ثم تراسلوا في رد كل ما بيده وأقاموا يترددون فيما بين صنعاء ونجران، وخلصت صنعاء والجنود، وتراجع أصحاب النبي ﷺ إلى أعمالهم وتنافسوا الإمارة في صنعاء، ثم اتفقوا على معاذ يصلي بهم وكتبوا إلى رسول الله ﷺ بالخبر، وكان قد أتاه خبر الواقعة من السماء فقال في غداتها: قتل العنسي البارحة قتله رجل مبارك وهو فيروز. ثم قدمت الرسل، وقد توفي النبي ﷺ.

بعث أسامة:

ولما رجع النبي ﷺ من حجة الوداع آخر ذي الحجة ضرب على الناس في شهر المحرم بعثاً إلى الشام وأمر عليهم مولاه أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يوطيء الخيل تخوم البلقاء والداروم إلى الأردن من أرض فلسطين ومشارف الشام، فتجهز الناس وأوعب معه المهاجرون الأولون. فبينا الناس على ذلك ابتدأ ﷺ بشكواه التي قبضه الله فيها إلى كرامته ورحمته، وتكلم المنافقون في شأن أسامه، وبلغ الخبر بارتداد الأسود ومسيلمة، وخرج رسول الله ﷺ عاصباً رأسه من الصداع وقال: «إني رأيت البارحة في نومي أن في عضدي سوارين من ذهب فكرهتهما فنفختهما فطارا فأولتهما هذين الكذابين: صاحب اليمامة وصاحب اليمن».

«وقد بلغني أن أقواماً تكلموا في إمارة أسامة طعنوا في إمارته لقد طعنوا في إمارة أبيه من قبله وإن كان أبوه لحقيقاً بالإمارة وإنه لحقيق بها انفروا».

فبعث أسامة فضرب أسامة بالحرق وتمهل، ونقل رسول الله ﷺ وتوفاه الله قبل توجه أسامة.

أخبار الأسود ومسيلمة وطليحة

كان النبي ﷺ بعدما قضى حجة الوداع تحلل به السير فاشتكى وطارت الأخبار بذلك فوثب الأسود باليمن كما مر

ووثب مسيلمة باليمامة، ثم وثب طليحة بن خويلد في بني أسد، يدعي كلهم النبوة. وحاربهم رسول اللّه ﷺ بالرسل والكتب إلى عماله ومن ثبت على إسلامه من قومهم أن يجدوا في جهادهم، فأصيب الأسود قبل وفاته بيوم ولم يشغله ما كان فيه من الوجع عن أمر اللّه والذب عن دينه، فبعث إلى المسلمين من العرب في كل ناحية من نواحي هؤلاء الكذابين يأمرهم بجهادهم. وجاء كتاب مسيلمة إليه فأجابه كما مر وجاء ابن أخي طليحة يطلب الموادعة فدعا عليه ﷺ حتى كان من حكم اللّه فيهم بعد وفاته ما كان.

مرضه ﷺ

أول ما بدئ به رسول اللّه ﷺ من ذلك أن اللّه نعى إليه نفسه بقوله: ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخر السورة، ثم بداه الوجع لليلتين بقيتا من صفر وتمادى به وجعه وهو يدور على نسائه حتى استقر به في بيت ميمونة، فاستأذن نساءه أن يمرض في بيت عائشة فأذنّ له. وخرج على الناس فخطبهم وتحلل منهم وصلى على شهداء أحد واستغفر لهم، ثم قال لهم: «إن عبداً من عباد اللّه خيره اللّه بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده». وفهمها أبو بكر فبكى، فقال: بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا، فقال: على رسلك يا أبا بكر » ثم جمع رسول اللّه ﷺ أصحابه فرحب بهم وعيناه تدمعان ودعا لهم كثيراً وقال: أوصيكم بتقوى اللّه وأوصي اللّه بكم وأستخلفه عليكم وأودعكم إليه إني لكم نذير وبشير ألاّ تعلوا على اللّه في بلاده وعباده فإنه قال لي ولكم:﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ =لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَ=لا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقال ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾. »

ثم سألوه عن مغسله، فقال: « الأدنون من أهلي » وسألوه عن الكفن، فقال: في ثيابي هذه أو بياض مصر أو حلة يمانية » وسألوه عن الصلاة عليه، فقال: « دعوني على سريري في بيتي على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة حتى تصلي علي الملائكة ثم ادخلوا فوجاً بعد فوج فصلوا وليبدأ رجال أهل بيتي ثم نساؤهم » وسألوه عمن يدخله القبر، فقال: « أهلي » ثم قال: « ائتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده » فتنازعوا وقال بعضهم إنه يهجر وقال بعضهم: أهجر؟ يستفهم. ثم ذهبوا يعيدون عليه، ثم قال: « دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني إليه » وأوصى بثلاث: أن يخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأن يجيزوا الوفد كما كان يجيزهم، وسكت عن الثالثة أو نسيها الرواي. وأوصى بالأنصار فقال: « إنهم كرشي وعيلتي التي أويت إليها فأكرموا كريمهم وتجاوزوا عن مسيئهم فقد أصبحتم يا معشر المهاجرين تزيدون والأنصار لا يزيدون » ثم قال: « سدوا هذه الأبواب في المسجد إلا باب أبي بكر فإني لا أعلم امرءاً أفضل يداً عندي في الصحبة من أبي بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صحبة إخاء وإيمان حتى يجمعنا اللّه عنده ».

ثم ثقل به الوجع وأغمي عليه فاجتمع إليه نساؤه وبنوه وأهل بيته والعباس وعلي، ثم حضر وقت الصلاة فقال: « مروا أبا بكر فليصل بالناس » فقالت عائشة: إنه رجل أسيف لا يستطيع أن يقوم مقامك، فمر عمر فامتنع عمر، وصلى أبو بكر، ووجد رسول اللّه ﷺ خفة فخرج فلما أحسن به أبو بكر تأخر فجذبه رسول اللّه ﷺ وأقامه مكانه وقرأ من حيث انتهى أبو بكر، ثم كان أبو بكر يصلي بصلاته والناس بصلاة أبي بكر، قيل: صلوا كذلك سبع عشرة صلاة. وكان يدخل يده في القدح وهو في النزع فيسمح وجهه في الماء ويقول: « اللّهم أعني على سكرات الموت » فلما كان يوم الاثنين وهو يوم وفاته خرج إلى صلاة الصبح عاصباً رأسه وأبو بكر يصلي، فنكص عن صلاته، ورده رسول اللّه ﷺ بيده وصلى قاعداً على يمينه، ثم أقبل على الناس بعد الصلاة فوعظهم وذكرهم، ولما فرغ من كلامه قال له أبو بكر: إني أراك قد أصبحت بنعمة اللّه وفضله كما نحب. وخرج إلى أهله في السنح. ودخل رسول اللّه ﷺ في بيته فاضطجع في حجرة عائشة، ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر عليه وفي يده سواك أخضر، فنظر إليه وعرفت عائشة أنه يريده قالت: فمضغته حتى لان وأعطيته إياه فاستن به ثم وضعه. ثم ثقل في حجري فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول: « الرفيق الأعلى من الجنة » فعلمت أنه خيّر فاختار.

وفاته ﷺ

وكانت تقول: قبض رسول اللّه ﷺ بين سحري ونحري. وذلك نصف نهار يوم الاثنين لليلتين من شهر ربيع الأول ودفن من الغد نصف النهار من يوم الثلاثاء. ونادى النعي في الناس بموته وأبو بكر غائب في أهله بالسنح، وعمر حاضر فقام في الناس فقال: إن رجالاً من المنافقين زعموا أن رسول اللّه ﷺ مات وأنه لم يمت وأنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ولير جعن فيقطعن

أيدي رجال وأرجلهم. وأقبل أبو بكر وقد بلغه الخبر فدخل على رسول اللّه ﷺ فكشف عن وجهه وقبّله وقال: بأبي أنت وأمي قد ذقت الموتة التي كتب اللّه عليك ولن يصيبك بعدها موته أبداً. وخرج إلى عمر وهو يتكلم، فقال: أنصت! فأبى، وأقبل على الناس يتكلم فجاؤوا إليه وتركوا عمر، فحمد اللّه وأثنى عليه وقال: أيها الناس! من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد اللّه فإن اللّه حي لا يموت ثم تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الآية. فكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية في المنزل قال عمر: فما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فوقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي وعرفت أنه قد مات، وقيل: تلا معها: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ الآية. وبينما هم كذلك إذ جاء رجل يسعى بخبر الأنصار أنهم اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يبايعوا سعد بن عبادة يقولون: منا أمير ومن قريش أمير، فانطلق أبو بكر وعمر وجماعة المهاجرين إليهم، وأقام علي والعباس وابناه الفضل وقثم وأسامة بن زيد يتولون تجهيز رسول اللّه ﷺ، فغسله علي مسنده إلى ظهره والعباس وابناه يقلّبونه معه وأسامة وشقران يصبان الماء وعلي يدلك من وراء القميص لا يفضي إلى بشرته بعد أن كانوا اختلفوا في تجهيزه، ثم أصابتهم سنة فخففونا وسمعوا من وراء البيت أن اغسلوه وعليه ثيابه ففعلوا، ثم كفنوه في ثوبين صحارين وبرد حبرة أدرج فيهن إدراجاً، واستدعوا حفارين أحدهما يلحد والآخر يشق، ثم بعث إليهما العباس رجلين وقال: اللّهم اغفر لرسولك فجاء الذي يلحد وهو أبو طلحة زيد بن سهل كان يحفر لأهل المدينة فلحد لرسول اللّه ﷺ. ولما فرغوا من جهازه يوم الثلاثاء وضع على سريره في بيته واختلفوا أيدفن في مسجده أو بيته، فقال أبو بكر: سمعته ﷺ يقول: ما قبض نبي إلا يدفن حيث قبض » فرفع فراشه الذي قبض عليه وحفر له تحته، ودخل الناس يصلون عليه أفواجاً الرجال ثم النساء ثم الصبيان ثم العبيد لا يؤم أحدهم أحداً، ثم دفن من وسط الليل ليلة الأربعاء وعن عائشة توفي لاثنتي عشر ليلة من ربيع الأول فكملت سنو الهجرة عشر سنين كواملَ، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة وقيل خمس وستين سنة وقيل ستين.

خبر السقيفة

ولما قبض رسول اللّه ﷺ إرتاع الحاضرون لفقده حتى ظن بعضهم أنه لم يمت، واجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة يبايعون سعد بن عبادة وهم يرون أن الأمر لهم بما أووا ونصروا، وبلغ الخبر إلى أبي بكر وعمر فجاؤوا إليهم ومعهم أبو عبيدة ولقيهم عاصم بن عدي وعويم بن ساعدة فأرادوهم على الرجوع وخفضوا عليهم الشأن، فأبوا إلا أن يأتوهم فأتوهم في مكانهم ذلك فأعجلوهم عن شأنهم وغلبوهم عليه جماعاً وموعظة. وقال أبو بكر: نحن أولياء النبي وعشيرته وأحق الناس بأمره ولا ننازع في ذلك، وأنتم لكم حق السابقة والنصرة، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. وقال الحباب بن المنذر بن الجموح: منا أمير ومنكم أمير وإن أبوا فاجلوهم يامعشر الأنصار عن البلاد فبأسيافكم دان الناس لهذا الدين وإن شئتم أعدناها جذعة أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب. وقال عمر: إن رسول اللّه ﷺ أوصانا بكم كما تعلمون ولو كنتم الأمراء لأوصاكم بنا، ثم وقعت ملاحاة بين عمر والمنذر بن الحباب، وأبو عبيدة يخفضهما ويقول: اتقوا اللّه يامعشر الأنصار أنتم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدّل وغيّر.

فقام بشير بن سعد بن النعمان بن كعب بن الخزرج فقال: ألا إن محمداً من قريش وقومه أحق وأولى، ونحن وإن كنا أولي فضل في الجهاد وسابقة في الدين، فما أردنا بذلك إلا رضى اللّه وطاعة نبيه فلا نبتغي به من الدنيا عوضاً، ولا نستطيل به على الناس. فقال الحباب بن المنذر: نفست واللّه عن ابن عمك يابشير. فقال: لا واللّه! ولكن كرهت أن أنازع قوماً حقهم. فأشار أبو بكر إلى عمر وأبو عبيدة فامتنعا وبايعا أبا بكر وسبقهما إليه بشير بن سعد، ثم تناجى الأوس فيما بينهم وكان فيهم أسيد بن حضير أحد النقباء وكرهوا إمارة الخزرج عليهم وذهبوا إلى بيعة أبي بكر فبايعوه، وأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر وكادوا يطأون سعد بن عبادة، فقال ناس من أصحابه: اتقوا سعداً ولا تقتلوه. فقال عمر: اقتلوه قتله اللّه. وتماسكا فقال أبو بكر: مهلاً يا عمر الرفق هنا أبلغ. فأعرض عمر ثم طلب سعداً في البيعة فأبى وأشار بشير بن سعد بتركه، وقال: إنما هو رجل واحد، فأقام سعد لا يجتمع معهم في الصلاة ولا يفيض معهم في الحديث حتى هلك أبو بكر. ونقل الطبري أن سعداً بايع يومئذ، وفي أخبارهم أنه لحق بالشام فلم يزل هنالك حتى مات وأن الجن قتله وينشدون البيتين الشهيرين وهما

نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عباده
فرميناه بسهمين فلم نخطئ فؤاده

الخبر عن الخلافة الإسلامية في هذه الطبقة وما كان منها من الردة والفتوحات وما حدث بعد ذلك من الفتن والحروب في الإسلام ثم الاتفاق والجماعة

لما قبض رسول اللّه ﷺ وكان أمر السقيفة كما قدمناه، أجمع المهاجرون والأنصار على بيعة أبي بكر ولم يخالف إلا سعد إن صح خلافه فلم يلتفت إليه لشذوذه. وكان من أول ما اعتمده إنفاذ بعث أسامة، وقد ارتدت العرب إما القبيلة مستوعبة وإما بعض منها، ونجم النفاق والمسلمون كالغنم في الليلة المطرة لقلتهم وكثرة عدوهم وإظلام الجو بفقد نبيهم، ووقف أسامة بالناس ورغب من عمر التخلف عن هذا البعث والمقام مع أبي بكر شفقة من أن يدهمه أمر، وقالت له الأنصار: فإن أبي إلا المضي فليول علينا أسن من أسامة. فأبلغ عمر ذلك كله أبا بكر فقام وقعد وقال: لا أترك أمر رسول اللّه ﷺ حتى أخرج أو أنفذه. ثم خرج حتى أتاهم فأشخصهم وشيعهم وأذن لعمر في الشخوص، وقال: أوصيكم بعشر فاحفظوها علي: لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الطفل ولا الشيخ ولا المرأة ولا تغرقوا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وإذا لقيتم أقواماً فحصوا أواسط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصايب فاضربوا بالسيف ما فحصوا عنه. فإذا قرب عليكم الطعام فاذكروا اسم اللّه عليه وكلوا ترفعوا باسم اللّه.

يا أسامة! اصنع ما أمرك به نبي اللّه ابدأ ببلاد قضاعة ثم أنت آفل ولا تقصر بشيء من أمر رسول اللّه ﷺ. ثم ودعه من الحرف ورجع. وقد كان بعث معه من القبائل حول المدينة الذين لهم الهجرة في ديارهم وحبس من بقي منهم فصار مسالح حول قبائلهم ومضى أسامة مغذاً وانتهى لما أمره به النبي ﷺ ، وبعث الجنود في بلاد قضاعة وأغار على أبنى فسبى وغنم ورجع لأربعين يوماً وقيل لسبعين، ولم يحدث أبو بكر في مغيبه شيئاً، وقد جاء الخبر بارتداد العرب عامة وخاصة إلا قريشاً وثقيفاً، واستغلظ أمر مسيلمة واجتمع على طليحة عوام طيء وأسد وارتدت غطفان وتوقفت هوازن فأمسكوا الصدقة، وارتد خواص من بني سليم وكذا سائر الناس بكل مكان. وقدمت رسل النبي ﷺ من اليمن واليمامة وبني أسد من الأمراء من كل مكان بانتقاض العرب عامة أو خاصة، وحاربهم بالكتب والرسل وانتظر بمصادمتهم قدوم أسامة، فعاجلته عبس وذبيان ونزلوا في الأبرق ونزل آخرون بذي القصة ومعهم خبال من بني أسد ومن انتسب إليهم من بني كنانة، وبعثوا وفداً إلى أبي بكر نزلوا على وجوه الناس يطلبون الاقتصار على الصلاة دون الزكاة، فأبى أبو بكر من ذلك، وجعل على أنقاب المدينة علياً والزبير وطلحة وعبد اللّه بن مسعود، وأخذ أهل المدينة بحضور المسجد، ورجع وفد المرتدين وأخبروا قومهم بقلة أهل المدينة فأغاروا على من كان بأنقاب المدينة، فبعثوا إلى أبي بكر فخرج في أهل المسجد على النواضح، فهربوا والمسلمون في اتباعهم إلى ذي خشب، ثم نفروا إبل المسلمين بلعبات اتخذوها فنفرت ورجعت بهم وهم لا يملكونها إلى المدينة ولم يصبهم شيء، وظن القوم بالمسلمين الوهن فبعثوا إلى أهل ذي القصة يستقدمونهم. ثم خرج أبو بكر في التعبئة وعلى ميمنته النعمان بن مقرن وعلى ميسرته عبد اللّه بن مقرن، وعلى الساقة سويد بن مقرن، وطلع عليهم مع الفجر واقتتلوا فما ذر قرن الشمس إلا وقد هزموهم وغنموا ما معهم من الظهر وقتل خبال، واتبعهم: أبو بكر إلى ذي القصة فجهز بها النعمان بن مقرن في عدد ورجع إلى المدينة، ووثب بنو ذبيان وعبس على من كان فيهم من المسلمين فقتلوهم وفعل ذلك غيرهم من المرتدين، وحلف أبو بكر ليقتلن من المشركين مثل من قتلوهم من المسلمين وزيادة. واعتز المسلمون بوقعة أبي بكر وطرقت المدينة صدقات. وقدم أسامة فاستخلفه أبو بكر على المدينة، وخرج في نفر إلى ذي خشب وإلى ذي قصة ثم سار حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق وبها عبس وذبيان وبنو بكر من كنانة وثعلبة بن سعد ومن يليهم من مرة، فاقتتلوا وانهزم القوم، وأقام أبو بكر على الأبرق، وحرم تلك البلاد على بني ذبيان ثم رجع إلى المدينة.

ردة اليمن

توفي رسول اللّه ﷺ وعلى مكة وبني كنانة عتاب بن أسيد، وعلى الطائف وأرضها عثمان بن أبي العاص على المدر، ومالك بن عوف على الوبر، وعلى عجز هوازن عكرمة بن أبي جهل، وعلى نجران وأرضها عمرو بن حزام على الصلاة، وأبو سفيان بن حرب على الصدقات، وعلى ما بين زمع وزبيد إلى نجران خالد بن سعيد بن العاص، وعلى همدان كلها عامر بن شمر الهمداني، وعلى صنعاء فيروز الديلمي ومساند دادويه وقيس بن مكشوح المرادي ورجعوا إليها بعد مقتل الأسود، وعلى الجند يعلى بن أمية، وعلى مأرب أبو موسى الأشعري، وعلى

الأشعريين وعك الطاهر بن أبي هالة، وعلى حضرموت زياد بن لبيد البياض وعكاشة بن ثور بن أصفر العوثي، وعلى كندة المهاجر بن أبي أمية، وقد كان رسول اللّه ﷺ غضب عليه في غزوة تبوك فاسترضته له أم سلمة وولاه على كندة، ومرض فلم يصل إليها، وأقام زياد بن لبيد ينوب عنه. وكان معاذ بن جبل يعلم القرآن باليمن يتنقل على هؤلاء في أعمالهم.

وثار الأسود في حياة رسول اللّه ﷺ وحاربه بالرسل وبالكتب فقتله اللّه وعاد الإسلام في اليمن كما كان، فلما بلغه الموت انتقضت اليمن وارتد أهلها في جميع النواحي وكانت الغالة من جند العنسي بين نجران وصنعاء لا يأوون إلى أحد، ورجع عمرو بن حزام إلى المدينة واتبعه خالد بن سعيد، وكان عمرو بن معديكرب بالجبال حيال فروة بن مسيك وابن مكشوح وتحيل في قتل الأبناء فيروز دادويه وخشنش والاستبداد بصنعاء، وبعث إلى الغالة من جيش الأسود يغريهم بالأبناء ويعدهم المظاهرة عليهم فجاءوا إليه، وخشي الأبناء غائلتهم وفزعوا إليه فأظهر لهم المناصحة، وهيأ طعاماً فجمعهم له ليغدر بهم، فظفر منهم بدادويه وهرب فيروز وخشنش وخرج قيس في أثرهما، فامتنعا بحولان أخوال فيروز وثار قيس بصنعاء وجبى ما حولها وجمع الغالة من جنود الأسود إليه، وكتب فيروز إلى أبي بكر بالخبر، فكتب له بولاية صنعاء، وكتب إلى الطاهر بن أبي هالة بإعانته، وإلى عكاشة بن ثور بأن يجمع أهل تهامة ويقيم بمكانه، وكتب إلى ذي الكلاع سميفع وذي ظليم حوشب، وذي تبان شهر بإعانة الأبناء وطاعة فيروز وإن الجند يأتيهم. وأرسل إليهم قيس بن مكشوح يغريهم بالأبناء، فاعتزل الفريقان واتبعت عوامهم قيس بن مكشوح في شأنه، وعمد قيس إلى عيلات الأبناء الذين مع فيروز فغر بهم وأخرجهم من اليمن في البر والبحر وعرضهم للنهب.

فأرسل فيروز إلى بني عقيل بن ربيعة وإلى عك يستصرخهم، فاعترضوا عيال فيروز والأبناء الذين معه فاستنقذوهم وقتلوا من كان معه، وجاءوا إلى فيروز فقاتلوا معه قيس بن مكشوح دون صنعاء فهزموه، ورجع إلى المكان الذي كان به مع فالة الأسود العنسي. وانضاف قيس إلى عمرو بن معديكرب وهو مرتد منذ تنبأ الأسود العنسي، وقام حيال فروة بن مسيك، وقد كان فروة وفد أسلم وكذلك قيس، واستعمل رسول اللّه ﷺ قيساً على صدقات مراد، وكان عمرو قد فارق قومه سعد العشيرة مع بني زبيد وأحلافها وانحاز إليهم فأسلم معهم وكان فيهم فلما انتقض الأسود، واتبعه عوام مذحج كان عمرو فيمن اتبعه، وأقام فروة فيمن معه على الإسلام فولى الأسود عمراً وجعله بحياله.

وكانت كندة قد ارتدوا وتابعوا الأسود العنسي بسبب ما وقع بينهم وبين زياد الكندي في أمر فريضة من فرائض الصدقة أطلقها بعض بني عمرو بن معاوية بعد أن وقع عليها ميسم الصدقة غلطاً، فقاتلهم زياد وهزمهم، فاتفق بنو معاوية على منع الصدقة والردة إلا شراحيل بن السمط وابنه، وأشير على زياد بمعاجلتهم قبل أن ينضم إليهم بعض السكاسك وحضرموت، وأبضعه وجمد ومشرح ومخوس وأختهم العمردة، وهرب الباقون ورجع زياد بالسبي والغنائم، ومر بالأشعث بن قيس وبني الحرث بن معاوية واستغاث نساء السبي فسار الأشعث وتنقذهم، ثم جمع بني معاوية كلهم ومن أطاعه من السكاسك وحضرموت وأقام على ردته. وكان أبو بكر قد حارب أهل الردة أولاً بالكتب كما حاربهم رسول اللّه صلى اله عليه وسلم إلى أن رجع أسامة بن زيد ثم كان أول مصارم فخرج إلى الأبرق واستنفر من لم يرتد إلى من ارتد وابتدأ بالمهاجرين والأنصار، ثم استنفر كلاً على من يليه حتى فرغ من آخر أمور الناس لا يستعين بمرتد، وكتب إلى عتاب بن أسيد بمكة وعثمان بن أبي العاص بالطائف بركوب من ارتد بمن لم يرتد وثبت على الإسلام من أهل عملها. وقد كان اجتمع بتهامة وشباب من مدلج وخزاعة، فبعث عتاب إليهم ففرقهم وقتلهم. واجتمع بشنوءة جمع من الأزد وخثعم وبجيلة فبعث إليهم عثمان بن أبي العاص من فرقهم وقتلهم. واجتمع بطريق الساحل من تهامة جموع من عك والأشعريين فسار إليهم الطاهر بن أبي هالة ومعه مسروق العكي فهزموهم وقتلوهم، وأقام بالأجناد ينتظر أمر أبي بكر ومعه مسروق العكي. وبعث أهل نجران من بني الأدعى الذين كانوا بها قبل بني الحرث وهم في أربعين ألف مقاتل، وجاء وفدهم يطلبون إمضاء العهد الذي بأيديهم من النبي ﷺ، فأمضاه أبو بكر إلا ما نسخه الوحي بأن لا يترك دينان بأرض العرب.

ورجعت رسل النبي ﷺ الذين كان بعثهم عند انتقاض الأسود العنسي وهم: جرير بن عبد اللّه والأقرع ووبر بن مخنس فرد أبو بكر جريراً، ليستنفر من ثبت على الإسلام على من ارتد ويقاتل خثعم الذين غضبوا لهدم ذي الخليفة فيقتلهم ويقيم بنجران، فنفذ ما أمره به، ولم يمر به أحد إلا رجال قليل تتبعهم بالقتل، وسار إلى نجران.

وكتب أبو بكر إلى عثمان بن أبي العاص أن يضرب البعوث على مخاليف أهل الطائف، فضرب على كل مخلاف عشرين وأمر عليهم أخاه.

وكتب إلى عتاب بن أسيد أن يضرب على مكة وعملها خمسمائة بعث وأمر عليهم أخاه خالداً وأقاموا ينتظرون، ثم أمر المهاجر بن أبي أمية بأن يسير إلى اليمن ليصلح من أمره ثم ينفذ إلى عمله وأمره بقتال من بين نجران وأقصى اليمن ففعل ذلك. ومر بمكة والطائف فسار معهم خالد بن أسيد وعبد الرحمن بن أبي العاص بمن معهما، ومر بجرير بن عبد الله وعكاشة بن ثور فضمهما إليه، ثم مر بنجران وانضم إليه فروة بن مسيك، وجاءه عمرو بن معديكرب وقيس بن مكشوح فأوثقهما وبعث بهما إلى أبي بكر، وسار إلى لقائه فتبعهم بالقتل ولم يؤمنهم فقتلوا بكل سبيل. وحضر قيس عند أبي بكر فحظر قتل دادويه ولم يجد أمراً جلياً في أمره، وتاب عمرو بن معديكرب واستقالا فأقالهما وردهما.

وسار المهاجر حتى نزل صنعاء وتتبع ارتداد القبائل فقتل من قدر عليه وقبل توبة من رجع إليه وكتب إلى أبي بكر بدخوله صنعاء، فجاءه الجواب بأن يسير إلى كندة مع عكرمة بن أبي جهل وقد جاءه من ناحية عمان ومعه خلق كثير من مهرة والأزد وناجية وعبد القيس وقوم من مالك بن كنانة وبني العبتر، وقدم أبين وأقام بها لاجتماع النخع وحمير ثم سار مع المهاجر إلى كندة، وكتب زياد إلى المهاجر يستحثه فلقيه الكتاب بالمفازة بين مأرب وحضرموت، فاستخلف عكرمة على الناس وتعجل إلى زياد ونهدوا إلى كندة وعليهم الأشعث بن قيس فهزموهم وقتلوهم وفروا إلى النجير حصن له فتحصنوا فيه مع من استغووه من السكاسك وشذاذ السكون وحضرموت وسدوا عليهم الطرق، إلا واحدة جاء عكرمة بعدهم فسدها وقطعوا عنهم المدد وخرجوا مستميتين في بعض الأيام فغلبوهم وأخرجوهم. واستأمن الأشعث إلى عكرمة بما كانت أسماء بنت النعمان بن الجون تحته فخرج إليه، وجاء به إلى المهاجر وأمنه في أهله وماله وتسعة من قومه على أن يفتح لهم الباب، فاقتحمه المسلمون وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية فكان في السبي ألف امرأة، فلما فرغ من النجير دعا بكتاب الأمان من الأشعث وإذا هو قد كتب غرض نفسه في التسعة رجال من أصحابه، فأوثقه كتافاً وبعث به إلى أبي بكر ينظر في أمره، فقدم السبايا والأسرى، فقال له أبو بكر: أقتلك؟ قال إني راودت القوم على عشرة وأتيتهم بالكتاب مختومة، فقال أبو بكر: إنما الصلح على من كان في الصحيفة وأما غير ذلك فهو مردود. فقال يا أبا بكر: احتسب في وأقلني واقبل إسلامي ورد علي زوجتي، وقد كان تزوج أم فروة أخت أبي بكر حين قدم على رسول الله ﷺ وأخرها إلى أن يرجع، فأطلقه أبو بكر وقبل إسلامه ورد عليه زوجته وقال: ليبلغني عنك خيراً، ثم خلى عن القوم فذهبوا وقسم الأنفال.

بعث الجيوش للمرتدة

لما قدم أسامة ببعث الشام على أبي بكر استخلفه على المدينة ومضى إلى الربذة فهزم بني عبس وذبيان وكنانة بالأبرق ورجع إلى المدينة كما قدمناه، حتى إذا استجم جند أسامة وتاب من حوالي المدينة خرج إلى ذي القصة على بريد من تلقاء نجد، عقد فيها أحد عشر لواء على أحد عشر جنداً لقتال أهل الردة، وأمر كل واحد باستنفار من يليه من المسلمين من كل قبيلة، وترك بعضها لحماية البلاد. فعقد لخالد بن الوليد وأمره لطليحة وبعده لمالك بن نويرة بالبطاح، ولعكرمة بن أبي جهل وأمره بمسيلمة واليمامة ثم أردفه بشرحبيل بن حسنة وقال له: إذا فرغت من اليمامة فسر إلى قتال قضاعة والمهاجر بن أبي أمية وأمره بالغالة من جنود العنسي باليمن وبإعانة الأبناء مع قيس بن مكشوح ومن معه ثم تمضي إلى كندة بحضرموت، ولخالد بن سعيد بن العاص وقد كان قدم بعد الوفاة إلى المدينة من اليمن وترك عماله فبعثه إلى مشارف الشام، ولعمرو بن العاص إلى قتال المرتدة من قضاعة، ولحذيفة بن محصن وعرفجة بن هرثمة فحذيفة لأهل دبا وعرفجة لمهرة وكل واحد منهما أمير في عمله على صاحبه.

ولطريفة بن حاجز وبعثه إلى بني سليم ومن معهم من هوازن، ولسويد بن مقرن وبعثه إلى تهامة اليمن، وللعلاء بن الحضرمي وبعثه إلى البحرين. وكتب إلى الأمراء عهودهم بنص واحد:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله سره وجهره وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بدعاية الإسلام، فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن الغارة عليهم حتى يقروا له، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم. فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف. وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به، ومن لم يجب

إلى داعية اللّه قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل اللّه من أحد شيئاً مما أعطى إلا الإسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وأعانه، ومن أبى قاتله فإن أظهره اللّه عليه عز وجل قتلهم فيه كل قتلة بالسلاح والنيران. ثم قسم ما أفاء اللّه عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه ويمنع أصحابه العجلة والفساد وأن يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم لئلا يكونوا عيوناً ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم، وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول انتهى.

وكتب إلى كل من بعث إليه الجنود من المرتدة كتاباً واحداً في نسخ كثيرة على يد رسل تقدموا بين أيديهم نصه بعد البسملة: هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول اللّه ﷺ إلى من بلغه كتابي هذا من عامة أو خاصة أقام على الإسلام أو رجع عنه، سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع إلى الضلالة والهوى، فإني أحمد إليكم اللّه الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وأومن بما جاء به وأكفر من أبى وأجاهده أما بعد: ثم قرر أمر النبوة ووفاة رسول اللّه ﷺ وأطنب في الموعظة ثم قال: وإني بعثت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية اللّه، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه، ومن أبى أمرته أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقي على أحد منهم هدر عليه، فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز اللّه، وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية للأذان فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم وإن لم يؤذنوا فاسألوهم بما عليهم فإن أبو عاجلوهم وإن أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي لهم انتهى. فنفذت الرسل بالكتب أمام الجنود وخرجت الأمراء ومعهم العهود وكان أول ما بدأ به خالد طليحة وبني أسد.

خبر طليحة

كان طليحة قد ارتد في حياة رسول اللّه ﷺ وكان كاهناً فادعى النبوة واتبعه أفاريق من بني إسرائيل ونزل سميراء، وبعث رسول اللّه ﷺ ضرار بن الأزور إلى قتاله مع جماعة، فاجتمع عليهم المسلمون وهم ضرار بمناجزته، فأتى الخبر بموت النبي ﷺ فاستطار أمر طليحة واجتمعت إليه غطفان وهوازن وطيء، وفر ضرار ومن معه من العمال إلى المدينة وقدمت وفودهم على أبي بكر في الموادعة على ترك الزكاة فأبى من ذلك، وخرج كما قدمناه إلى غطفان وأوقع بهم بذي القصة فانضموا بعد الهزيمة إلى طليحة وبني أسد بالبزاخة وكذلك فعلت طيء وأقامت بنو عامر وهوازن ينتظرون. وصعد خالد إلى طليحة ومعه عيينة بن حصن على بزاخة من مياه بني أسد وأظهر أنه يقصد خيبر ثم ينزل إلى سلمى وأجا فيبدأ بطيء. وكان عدي بن حاتم قد خرج معه في الجيش فقال له: أنا أجمع لك قبائل طيء يصحبونك إلى عدوك. وسار إليهم فجاء بهم وبعث خالد عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم من الأنصار طليعة ولقيهما طليحة وأخوه فقتلاهما ومر بهما المسلمون فعظم عليهم قتلهما. ثم عبى خالد كتائبه وثابت بن قيس على الأنصار وعدي بن حاتم على طيء ولقي القوم فقاتلهم، وعيينة بن حصن مع طليحة في سبعمائة من غطفان، واشتد المجال بينهم وطليحة في عباءة يتكذب لهم في انتظار الوحي، فجاء عيينة بعدما ضجر من القتال وقال: هل جاءك أحد بعد؟ قال: لا! ثم راجعه ثانية ثم ثالثة فقال: جاء. وقال إن لك رحى كرحاه، وحديثاً لا تنساه. فقال عيينة: يا بني فزارة الرجل كذاب، وانصرف فانهزموا وقتل من قتل وأسلم الناس طليحة فوثب على فرسه واحتقب امرأته فنجا بها إلى الشام، ونزل في كلب من قضاعة على النقع حتى أسلمت أسد وغطفان، فأسلم ثم خرج معتمراً أيام عمر ولقيه بالمدينة فبايعه وبعثه في عساكر الشام، فأبلى في الفتح، ولم يصب من عيالات بني أسد في واقعة بزاخة شيء، لأنهم كانوا أخرجوهم في الحصون عند واسط وأسلموا خشية على ذراريهم.

خبر هوازن وسليم وبني عامر

كان بنو عامر ينتظرون أمر طليحة وما تصنع أسد وغطفان حتى أحيط بهم، وكان قرة بن هبيرة في كعب وعلقمة بن علاقة في كلاب وكان علقمة قد ارتد بعد فتح الطائف، ولما قبض النبي ﷺ رجع إلى قومه، وبلغ أبا بكر خبره فبعث إليه سرية مع القعقاع بن عمرو من بني تميم فأغار عليهم، فأفلت وجاء بأهله وولده وقومه فأسلموا. وكان قرة بن هبيرة قد لقي عمرو بن العاص منصرفه من عمان بعد الوفاة وأضافه وقال له: اتركوا الزكاة فإن العرب لا تدين لكم بالأتاوة، فغضب لها عمرو وأسمعه وأبلغها أبا بكر، فلما أوقع خالد ببني أسد وغطفان وكانت هوازن وسليم وعامر ينتظرون أمرهم فجاءوا إلى خالد وأسلموا وقبل منهم الإسلام، إلا من عدا على أحد من المسلمين أيام الردة فإنه تتبعهم فأحرق وقحط ورضخ بالحجارة ورمى من رؤوس الجبال، ولما فرغ من أمر بني عامر أوثق عيينة بن حصن

وقرة بن هبيرة وبعث بهما إلى أبي بكر فتجاوز لهما وحقن دماءهما.

ثم اجتمعت قبائل غطفان إلى سلمى بنت مالك بن حذيفة من بدر بن ظفر في الحوأب فنزلوا إليها وتذمروا، وكانت سلمى هذه قد سبيت قبل وأعتقتها عائشة وقال لها النبي ﷺ يوماً وقد دخل عليها وهي في نسوة ببيت عائشة فقال: «إن إحداكن تستنبح كلاب الحوأب» وفعلت ذلك سلمى حين ارتدت واجتمعت إليها الفلال من غطفان، وهوازن وسليم وطيء وأسد، وبلغ ذلك خالداً وهو يتبع الثأر ويأخذ الصدقات، فسار إليهم وقاتلهم وسلمى واقفة على جملها حتى عقد وقتلت، وقتل حول هودجها مائة رجل، فانهزموا وبعث خالد بالفتح على أثره بعده بعشرين ليلة.

وأما بنو سليم فكان الفجاءة بن عبد يا ليل قدم على أبي بكر ليستعينه بسلاح مدعياً إسلامه ويضمن له قتال أهل الردة فأعطاه وأمره، وخرج إلى الجون وارتد وبعث نجية بن أبي المثنى من بني الشريد، وأمره بشن الغارة على المسلمين في سليم وهوازن. فبعث أبو بكر إلى طريفة بن حاجز قائده على جرهم وأعانه بعبد الله بن قيس الحاسبي فنهضا إليه ولقياه، فقتل تحتة وهرب الفجاءة فلحقه طريفة فأسره وجاء به إلى أبي بكر فأوقد له في مصلى المدينة حطباً ثم رمى به في النار مقموطاً، وفاءت بنو سليم كلهم وفاء معهم أبو شجرة بن عبد العزى أبو الخنساء وكان فيمن ارتد.

خبر بني تميم وسجاح

قبض رسول الله ﷺ وعماله في بني تميم الزبرقان بن بدر على الرباب وعوف والأبناء وقيس بن عاصم على المقاعس والبطون وصفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو على بني عمرو ووكيع بن مالك على بني مالك ومالك بن نويرة على بني حنظلة، فجاء صفوان إلى أبي بكر حين بلغته الوفاة بصدقات بني عمرو، وجاء الزبرقان بصدقات أصحابه، وخالفه قيس بن عاصم في المقاعس والبطون، لأنه كان ينتظره، وبقي من أسلم منهم متشاغلا بمن تربص أو ارتاب. وبينما هم على ذلك فجأتهم سجاح بنت الحارث بن سويد من بني عقفان أحد بطون تغلب وكانت تنبأت بعد الوفاة، واتبعها الهذيل بن عمران من بني تغلب وعقبة بن هلال في النمر والسليل بن قيس في شيبان وزياد بن بلال وكان الهذيل نصرانياً فترك دينه إلى دينها، وأقبلت من الجزيرة في هذه الجموع قاصدة المدينة لتغزو أبا بكر والمسلمين، وانتهت إلى الحرف فدهم بني تميم أمر عظيم لما كانوا عليه من اختلاف الكلمة، فوادعها مالك بن نويرة وثناها عن الغزو وحرضها على بني تميم ففروا أمامها، ورجع إليها وكيع بن مالك واجتمعت الرباب وضبة فهزموا أصحاب سجاح أسروا منهم، ثم اصطلحوا.

وسارت سجاح فيمن معها تريد المدينة فبلغت النباج فاعترضهم بنو النجيم فيمن تأشب إليهم من بني عمرو وأغاروا عليهم فأسروا الهذيل وعقبة، ثم تحاجزوا على أن تطلق أسراهم ويرجعوا ولا يجتازوا عليهم، ورجع عن سجاح مالك بن نويرة ووكيع بن مالك إلى قومهم وبنست سجاح وأصحابها من الجواز عليهم، ونهدت إلى بني حنيفة، وسار معها من تميم الزبرقان بن بدر وعطارد بن حاجب وعمرو بن الأهتم وغيلان بن حريث وشبث بن ربعي ونظراؤهم، وصانعها مسيلمة بما كان فيه من مزاحمة ثمامة بن إثال له في اليمامة. وزحف شرحبيل بن حسنة والمسلمون إليه فأهدى لها واستأمنها وكانت نصرانية أخذت الدين من نصارى تغلب، فقال لها مسيلمة: نصف الأرض لنا ونصف الأرض لقريش لكنهم لم يعدلوا فقد جعلت نصفهم لك. ويقال إنها جاءت إليه واستأمنته وخرج إليها من الحصن إلى قبة ضربت لها بعد أن جمرها فدخل إليها وتحرك الحرث حوالي القبة وسجع لها وسجعت له من أسجاع الفرية، فشهدت له بالنبوة وخطبها لنفسه فتزوجته وأقامت عنده ثلاثاً ورجعت إلى قومها، فعذلوها في التزويج على غير صداق فرجعت إليه فقال لها: نادي في أصحابك إني وضعت عنهم صلاة الفجر والعتمة مما فرض عليهم محمد، وصالحته على أن يحمل لها النصف من غلات اليمامة فأخذته وسألت أن يسلفها النصف للعام القابل، ودفعت الهذيل وعقبة لقبضه فهم على ذلك، وإذا بخالد بن الوليد وعساكره قد أقبلوا فانفضت جموعهم وافترقوا، ولحقت سجاح بالجزيرة فلم تزل في بني تغلب حتى نقل معاوية عام الجماعة بني عقفان عشيرتها إلى الكوفة، وأسلمت حينئذ سجاح وحسن إسلامها.

ولما افترق وفد الزبرقان والأقرع على أبي بكر وقالا: إجعل لنا خراج البحرين ونحن نضمن لك أمرها ففعل وكتب لهم بذلك، وكان طلحة بن عبيد الله يتردد بينهم في ذلك، فجاء إلى عمر ليشهد في الكتاب فمزقه ومحاه وغضب طلحة، وقال لأبي بكر رضي الله عنه: أنت الأمير أم عمر رضي الله عنه؟ فقال عمر: غير أن الطاعة لي! وشهد الأقرع والزبرقان مع خالد اليمامة والمشاهد كلها. ثم مضى الأقرع مع شرحبيل إلى دومة.

خبر البطاح ومالك بن نويرة

لما انصرفت سجاح إلى الجزيرة وراجع بنو تميم الإسلام أقام مالك بن نويرة متحيراً في أمره واجتمع إليه من تميم بنو حنظلة واجتمعوا بالبطاح، فسار إليهم خالد بعد أن تقاعد عنه الأنصار يسألونه انتظار كتاب أبي بكر، فأبى إلا انتهاز الفرصة من هؤلاء، فرجعوا إلى اتباعه ولحقوا به. وكان مالك بن نويرة لما تردد في أمره فرق بني حنظلة في أموالهم ونهاهم عن القتال ورجع إلى منزله، ولما قدم خالد بعث السرايا يدعون إلى الإسلام ويأتون بمن لم يجب وأن يقتلوه، فجاءوا بمالك بن نويرة في نفر معه من بني ثعلبة بن يربوع واختلفت السرية فيهم، فشهد أبو قتادة أنهم أذنوا وصلوا فحبسهم عند ضرار بن الأزور وكانت ليلة ممطرة فنادى مناديه أن ادفئوا أسراكم وكانت في لغتة كناية عن القتل فبادر ضرار بقتلهم وكان كنانياً. وسمع خالد الداعية فخرج متأسفاً وقد فرغوا منهم، وأنكر عليه أبو قتادة فزجره خالد، فغضب ولحق بأبي بكر ويقال: إنهم لما جاءوا بهم إلى خالد خاطبه مالك بقوله: فعل صاحبكم شأن صاحبكم فقال له خالد: أوليس لك بصاحب؟ ثم قتله وأصحابه كلهم ثم قدم خالد على أبي بكر وأشار عمر أن يقيد منه بمالك بن نويرة أو يعزله فأبى، وقال: ما كنت أشيم سيفاً سله الله على الكافرين، وودى مالكاً وأصحابه ورد خالداً إلى عمله.

خبر مسيلمة واليمامة

لما بعث أبو بكر رضي الله عنه عكرمة بن أبي جهل إلى مسيلمة الكذاب واتبعه شرحبيل استعجل عكرمة فانهزم وكتب إلى أبي بكر بالخبر، فكتب إليه لا ترجع فتوهن الناس وامض إلى حذيفة وعرفجة فقاتلوا مهرة وأهل عمان فإذا فرغتم فامض أنت وجنودك واستنفروا من مررتم عليه حتى تلقوا المهاجر بن أمية باليمن وحضرموت، وكتب إلى شرحبيل أن يمضي إلى خالد فإذا فرغتم فامض أنت إلى قضاعة فكن مع عمرو بن العاص على من ارتد منهم. ولما فرغ خالد من البطاح ورضي عنه أبو بكر بعثه نحو مسيلمة وأوعب معه الناس، وعلى المهاجرين أبو حذيفة وزيد وعلى الأنصار ثابت بن قيس والبراء بن عازب، وتعجل خالد إلى البطاح وانتظر البعوث حتى قدمت عليه، فنهض إلى اليمامة وبنو حنيفة يومئذ كثير يقال أربعون ألف مقاتل متفرقين في قراها وحجرها، وتعجل شرحبيل كما فعل عكرمة بقتال مسيلمة فنكب وجاء خالد فلامه على ذلك.

ثم جاء خليط من عند أبي بكر مدداً لخالد ليكون رداءً له من خلفه ففرت جموع كانت تجمعت هنالك من فلال سجاح، وكان مسيلمة قد جعل لهم جعلاً. وكان الرجّال بن عنفوة من أشراف بني حنيفة شهد لمسيلمة بأن رسول الله ﷺ أشركه معه في الأمر لأن الرجال، كان قد هاجر وأقام مع رسول الله ﷺ وقرأ القرآن وتفقه في الدين فلما ارتد مسيلمة بعثه النبي ﷺ معلماً لأهل اليمامة ومشغباً على مسيلمة فكان أعظم فتنة على بني حنيفة منه. واتبع مسيلمة على شأنه وشهد له وكان يؤذن لمسيلمة ويشهد له بالرسالة بعد النبي ﷺ، فعظم شأنه فيهم وكان مسيلمة ينتهي إلى أمره، وكان مسيلمة يسجع لهم بأسجاع كثيرة يزعم أنها قرآن يأتيه، ويأتي بمخارق يزعم أنها معجزات فيقع منها ضد المقصود. ولما بلغ مسيلمة وبني حنيفة دنو خالد، خرجوا وعسكروا في منتهى ريف اليمن واستنفروا الناس فنفروا إليهم، وأقبل خالد ولقيه شرحبيل بن حسنة فجعله على مقدمته، حتى إذا كان على ليلة من القوم هجموا على مجاعة في سرية أربعين أو ستين راجعين من بلاد بني عامر وبني تميم يشأرون فيهم فوجدوهم دون ثنية اليمامة فقتلوهم أجمعين، وقيل له استبق مجاعة بن مرارة إن كنت تريد اليمامة فاستبقى.

ثم سار خالد ونازل بني حنيفة ومسيلمة والرجّال على مقدمة مسيلمة واشتدت الحرب وانكشف المسلمون حتى دخل بنو حنيفة خباء خالد، ومجاعة بها أسير مع أم متمم زوجة خالد، فدافعهم عنها مجاعة وقالت: نعمت الحرة. ثم تراجع المسلمون وكروا على بني حنيفة فقال المحكم بن الطفيل: ادخلوا الحديقة يا بني حنيفة فإني أمنع أدباركم، فقاتل ساعة ثم قتله عبد الرحمن بن أبي بكر، ثم تذامر المسلمون وقاتل ثابت بن قيس فقتل ثم زيد بن الخطاب ثم أبو حذيفة ثم سالم مولاه ثم البراء أخو أنس بن مالك وكان تأخذه عند الحرب رعدة حتى ينتفض ويقعد عليه الرجال حتى يبول، ثم يثور كالأسد فقاتل وفعل الأفاعيل.

ثم هزم الله العدو وألجأهم المسلمون إلى الحديقة وفيها مسيلمة فقال البراء: ألقوني عليهم من أعلى الجدار فاقتحم، وقاتلهم من أعلى الحديقة ودخل المسلمون عليهم، وقتل مسيلمة وهو مزبد متساند لا يعقل من الغيظ، وكان زيد بن الخطاب قتل الرجال بن عنفوة. وكان خالد لما نزل بني حنيفة ومسيلمة ودارت الرحى عليه طلب البراز فقتل جماعة، ثم دعا مسيلمة للبراز والكلام فحادثة فحاول فيه غرة وشيطانه يوسوس إليه، ثم ركبه خالد فأرهقه وأدبروا وزالوا عن مراكزهم وركبهم المسلمون فانهزموا.

وتطاير الناس عن مسيلمة بعد أن قالوا: أين ما كنت تعدنا؟ فقال: قاتلوا على أحسابكم. وأتاه وحشي فرماه بحربه فقتل.

واقتحم الناس عليه حديقة الموت من حيطانها وأبوابها فقتل فيها سبعة عشر ألف مقاتل من بني حنيفة، وجاء خالد بمجاعة ووقفه على القتلى ليريه مسيلمة فمر بمحكم فقال: هوذا! فقال مجاعة: هذا واللّه خير منه، ثم أراه مسيلمة وهو رجل ذميم أخينس، فقال خالد: هذا الذي فعل فيكم ما فعل، فقال مجاعة: قد كان ذلك وإنه واللّه ما جاءك إلا سرعان الناس وإن جماهيرهم في الحصون فهلم أصالحك على قومي.

وقد كان خالد التقط من دون الحصون ما وجد من مال ونساء وصبيان ونادى بالنزول عليها فلما قال له مجاعة ذلك قال له: أصالحك على ما دون النفوس. وانطلق يشاوره فأفرغ السلاح على النساء ووقفن بالسور ثم رجع إليه وقال: أبوا أن يجيزوا ذلك، ونظر خالد إلى رؤوس الحصون قد اسودت والمسلمون قد نهكتهم الحرب وقد قتل من الأنصار ما ينيف على الثلاثمائة والستين، ومن المهاجرين مثلها ومن التابعين لهم مثلها أو يزيدون، وقد فشت الجراحات فيمن بقي، فجنح إلى السلم فصالحه على الصفراء والبيضاء، ونصف السبي والحلقة وحائط ومزرعة من كل قرية، فأبوا فصالحهم على الربع فصالحوه. وفتحت الحصون فلم يجد فيها إلا النساء والصبيان

فقال خالد: خدعتني يا مجاعة فقال: قومي! ولم أستطع إلا ما صنعت فعقد لهم وخيرهم ثلاثاً فقال له سلمة بن عمير لا نقبل صلحاً! ونعتصم بالحصون ونبعث إلى أهل القرى فالطعام كثير والشتاء قد حضر، فتشاءم مجاعة برأيه وقال لهم: لولا أني خدعت القوم ما أجابوا إلى هذا، فخرج معه سبعة من وجوه القوم وصالحوا خالداً وكتب لهم وخرجوا إلى خالد للبيعة والبراءة مما كانوا عليه.

وقد أضمر سلمة بن عمير الفتك بخالد فطرده حين وقعت عينه عليه وأطلع أصحابه على عذره فأوثقوه وحبسوه ثم أفلت فأتبعوه وقتلوه. وكان أبو بكر بعث إلى خالد مع سلمة بن وقش إن أظفره اللّه أن يقتل من جرت عليه الموسى من بني حنيفة، فوجده قد صالحهم فأتم عقده معهم، ووفى لهم وبعث وفداً منهم إلى أبي بكر بإسلامهم فقبلهم وسألهم عن أسجاع مسيلمة فقصوها عليه، فقال: سبحان اللّه هذا الكلام ما خرج إلا من إلّ أو برّ فأين يذهب بكم عن أحلامكم وردهم اللّه إلى قومهم.

ردة الحطم وأهل البحرين

لما فرغ خالد من اليمامة ارتحل إلى واد من أوديتها وكانت عبد القيس وبكر بن وائل وغيرهم من أحياء ربيعة قد ارتدوا بعد الوفاة وكذلك المنذر بن ساوى من بعدها بقليل، فأما عبد القيس فردهم الجارود بن المعلى وكان قد وفد وأسلم ودعا قومه فأسلموا فلما بلغهم خبر الوفاة ارتدوا وقالوا: لو كان نبياً ما مات فقال لهم الجارود: تعلمون أن لله أنبياء من قبله ولم تروهم وتعلمون أنهم ماتوا ومحمد ﷺ قد مات ثم تشهد فتشهدوا معه وثبتوا على إسلامهم، وخلوا بين سائر ربيعة وبين المنذر بن ساوى والمسلمين.

وقال ابن إسحاق: كان أبو بكر بعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر وقد كان رسول اللّه ﷺ ولاه فلما كانت الوفاة وارتدت ربيعة ونصبوا المنذر بن النعمان بن المنذر- وكان يسمى المغرور- فأقاموه ملكاً كما كان قومه بالحيرة، وثبت الجارود وعبد القيس على الإسلام واستمر بكر بن وائل على الردة، وخرج الحطم بن ربيعة أخو بني قيس بن ثعلبة حتى نزل بين القطيف وهجر، وبعث إلى دارين فأقاموا فجعل عبد القيس بينه وبينهم، وأرسل إلى المغرور بن سويد أخي النعمان بن المنذر وبعثه إلى جوائى وقال: أثبت فإن ظفرت ملكتك بالبحرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة، فحاصره المسلمون بجوائى.

وجاء العلاء بن الحضرمي لقتال أهل الردة بالبحرين ومر باليمامة فاستنفر ثمامة بن أثال في مسلمة بني حنيفة وكان متردداً، وألحق عكرمة بعمان ومهرة، وأمر شرحبيل بالمقام حيث هو يغاور مع عمرو بن العاص أهل الردة من قضاعة، عمرو يغاور سعداً وبلق وشرحبيل يغاور كلباً ولفها.

ثم مر ببلاد بني تميم فاستقبله بنو الرباب وبنو عمر ومالك بن نويرة بالبطاح يقاتلهم ووكيع بن مالك يواقف عمرو بن العاص وقيس بن عاصم من المقاعس، والبطون يواقفون الزبرقان بن بدر والأبناء وعوف وقد أطاعوه على الإسلام وحنظلة متوقفون. فلما رأى قيس بن عاصم يلقى الرباب وعمرو العلاء وقدم وجاء بالصدقات إلى العلاء وخرج معه لقتال البحرين، فسار مع العلاء من بني تميم مثل عسكره ونزل هجر وبعث إلى الجارود أن ينازل بعبد القيس الحطم وقومه مما يليه، فاجتمع المشركون إلى الحطم إلا أهل دارين، والمسلمون إلى العلاء، وخندقوا واقتتلوا وسمعوا في بعض الليالي ضوضاء شديدة -أي جلبة وصياحاً- وبعثوا من يأتيهم بخبرها فجاءهم بأن القوم سكارى، فبيتوهم

ووضعوا السيوف فيهم واقتحموا الخندق وفر القوم هراباً فمتمرد وناج ومقتول ومأسور. وقتل قيس بن عاصم الحطم بن ربيعة، ولحق جابر بن بجير وضربه فقطع عصبه ومات، وأسر عفيف بن المنذر المغرور بن سويد وقال للعلاء: أجرني فقال له العلاء: أنت غررت بالناس! فقال: لكني أنا مغرور! ثم أرسل وأقام بهجر.

ويقال: إن المغرور اسمه وليس هو بلقب وقتل المغرور بن سويد بن المنذر وقسم الأنفال بين الناس، وأعطى عفيف بن المنذر وقيس بن عاصم وثمامة بن أثال من أسلاب القوم وثيابهم، وقصد الفلال إلى دارين وركبوا السفن إليها ورجع الآخرون إلى قومهم.

فكتب العلاء إلى من أقام على إسلامه من بكر بن وائل بالقعود لأهل الردة في السبل وإلى خصفة التميمي والمثنى بن حارثة بمثل ذلك، فرجعوا إلى دارين وجمعهم الله بها. ثم لما جاءته كتب بكر بن وائل وعلم حسن إسلامهم أمر أن يؤتى من خلفه على أهل البحرين.

ثم لما ندب الناس إلى دارين أن يستعرضوا البحر، فارتحلوا واقتحموا البحر على الظهر، وكلهم يدعو: يا أرحم الراحمين يا كريم يا حليم يا أحد يا صمد يا محيي الموتى يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت يا ربنا. ثم أجازوا الخليج يمشون على مثل رمل مشياً فوقها ما يغمر أخفاف الإبل في مسيرة يوم وليلة، فلقوا العدو واقتتلوا، وما تركوا بدارين مخبراً وسبوا الذراري واستاقوا الأموال، وبلغ نفل الفارس ستة آلاف والراجل ألفين. ورجع العلاء إلى البحرين وضرب الإسلام بجرانه.

ثم أرجف المرجفون بأن أبا شيبان وثعلبة والحرّ قد جمعهم مفروق الشيباني على الردة، فوثق العلاء بأن اللّهازم تفارقهم وكانوا مجمعين على نصره، وأقبل العلاء بالناس فرجعوا إلى من أحب المقام، وقفل ثمامة بن أثال فيهم. ومروا بقيس بن ثعلبة بن بكر بن وائل فرأوا خيصة الحطم عليه فقالوا: هو قتله فقال: لم أقتله ولكن الأمير نفلنيها فلم يقبلوا وقتلوه. وكتب العلاء إلى أبي بكر بهزيمة أهل الخندق وقتل الحطم قتله زيد ومسمع فكتب إليه أبو بكر أن بلغك عن بني ثعلبة ما خاض فيه المرجفون فابعث إليهم جنداً وأوصهم وشرد بهم من خلفهم.

ردة أهل عمان ومهرة واليمن

نبغ بعمان بعد الوفاة رجل من الأزد يقال له لقيط بن مالك الأزدي يسامى في الجاهلية الجلندي فدفع عنها الملكين اللذين كانا بها، وهما جيفر وعباد ابنا الجلندي، فارتد وادعى النبوة وتغلّب على عُمان ودفع عنها الملكين، وبعث جيفر إلى أبي بكر بالخبر، فبعث أبو بكر حذيفة بن محصن من حمير وعرفجة البارقي، حذيفة إلى عمان وعرفجة إلى مهرة، وإن اجتمعا فالأمير صاحب العمل، وأمرهما أن يكاتبا جيفر أو يأخذا برأيه. وقد كان بعث عكرمة إلى اليمامة ومسيلمة ووقعت عليه النكبة كما مر، فأمره بالمسير إلى حذيفة وعرفجة ليقاتل معهما عمان ومهرة ويتوجه إذا فرغ من ذلك إلى اليمن، فمضى عكرمة فلحق بهما قبل أن يصلا إلى عمان، وقد عهد إليهم أبو بكر أن ينتهوا إلى رأي عكرمة، فراسلوا جيفر وعباداً وبلغ لقيطاً مجيء الجيوش فعسكر بمدينة دبا وعسكر جيفر وعباد بصحار، واستقدموا عكرمة وحذيفة وعرفجة وكاتبوا رؤساء الدين مع لقيط فقدموا بجيوشهم، ثم صمدوا إلى لقيط وأصحابه فقاتلوهم، وقد أقام لقيط عياله وراء صفوفه، وهم المسلمون بالهزيمة حتى جاءهم مددهم من بني ناجية وعليهم الخريت بن راشد ومن عبد القيس وعليهم سيحان بن صوحان فانهزم العدو وظفر المسلمون، وقتلوا نحواً من عشرة آلاف وسبوا الذراري والنساء وتم الفتح، وقسموا الأنفال وبعثوا بالخمس إلى أبي بكر مع عرفجة وكان الخمس ثمانمائة رأس.

وأقام حذيفة بعمان وسار عكرمة إلى مهرة وقد استنفر أهل عمان ومن حولها من ناحية الأزد وعبد القيس وبني سعيد من تميم، فاقتحم مهرة بلادهم وهم على فرقتين يتنازعان الرياسة فأجابه أحد الفريقين، وسار إلى الآخرين فهزمهم وقتل رئيسهم، ثم أصابوا منهم ألفي نجيبة. وأفاد المسلمون قوة بغنيمتهم وأجاب أهل تلك النواحي إلى الإسلام وهم أهل نجد والروضة والشاطئ والجزائر والمر واللبان وأهل جيرة وظهور الشمر والفرات وذات الخيم، فاجتمعوا كلهم على الإسلام، وبعث إلى أبي بكر بذلك مع البشير وسار هو إلى اليمن للقاء المهاجر بن أبي أمية كما عهد إليه أبو بكر.

بعوث العراق وصلح الحيرة

ولما فرغ خالد من أمر اليمامة بعث إليه أبو بكر في المحرم من سنة اثنتي عشرة فأمره بالمسير إلى العراق ومرج الهند وهي الأبلة منتهى بحر فارس في جهة الشمال قرب البصرة، فيتألف أهل فارس ومن في مملكتهم من الأمم. فسار من اليمامة وقيل قدم على أبي بكر ثم سار من المدينة، وانتهى إلى قرية بالسواد وهي بانقيا وباروسما والليس وكانت لابن صلوبا فصالحهم على عشرة

آلاف دينار فقبضها خالد، ثم سار إلى الحيرة وخرج إليه أشرافها مع إياس بن قبيصة الطائي الأمير عليها بعد النعمان بن المنذر، فدعاهم إلى الإسلام أو الجزية أو المناجزة، فصالحوه على تسعين ألف درهم، وقيل إنما أمره أبو بكر أن يبدأ بالأبلة ويدخل من أسفل العراق.

وكتب إلى عياض بن غنم أن يبدأ بالمضيخ ويدخل من أعلى العراق، وأمر خالداً بالقعقاع بن عمرو التيمي وعياضاً بن عوف الحميري، وقد كان المثنى بن حارثة الشيباني استأذن أبا بكر في غزو العراق فأذن له فكان يغزوهم قبل قدوم خالد، فكتب أبو بكر إليه وإلى حرملة ومدعور وسلمان أن يلحقوا بخالد بالأبلة وكانوا في ثمانية آلاف فارس، ومع خالد عشرة آلاف، فسار خالد في أول مقدمته المثنى وبعده عدي بن حاتم وجاء هو بعدهما على مسيرة يوم بين كل عسكر، وواعدهما الحفير ليجتمعوا به ويصادموا عدوهم وكان صاحب ذلك المرج من أساورة الفرس اسمه هرمز وكان يحارب العرب في البر والهند في البحر.

فكتب إلى أردشير كسرى بالخبر وتعجل هو إلى الكواظم في سرعان أصحابه حتى نزل الحفير، جعل على مجنبتيه قباذ وانوشجان يناسبانه في أردشير الأكبر واقترنوا بالسلاسل لئلا يفروا، وأروا خالداً أنهم سبقوا إلى الحفير فمال إلى كاظمة فسبقه هرمز إليها أيضاً. وكان للعرب على هرمز حنق لسوء مجاورته وقدم خالد فنزل قبالتهم على غير ماء وقال: ليعيدن الماء فإن اللّه جاعله لأصبر الفريقين، ثم أرسل اللّه سحابة فأغدرت من ورائهم.

ولما حطوا أثقالهم قدم خالد ودعا إلى النزال فبرز إليه هرمز وترجل ثم اختلفا ضربتين فاحتضنه خالد وحمل أصحاب هرمز للغدر به فلم يشغله ذلك عن قتله، وحمل القعقاع بن عمرو فقتلهم وانهزم أهل فارس وركبهم المسلمون.

وسميت الواقعة ذات السلاسل. وأخذ خالد سلب هرمز وكانت قلنسوته بمائة ألف، وبعث بالفتح والأخماس إلى أبي بكر. وسار فنزل بمكان البصرة وبعث المثنى- بن حارثة في آثار العدو فحاصر حصن المرأة وفتحه وأسلمت فتزوجها، وبعث معقل بن مقرن إلى الأبلة ففتحها وقيل إنما عقبة بن غزوان أيام عمر سنة أربع عشرة، ولم يتعرض خالد وأصحابه إلى الفلاحين وتركهم وعمارة البلاد كما أمر أبو بكر به.

وكان كسرى أردشير لما جاءه كتاب هرمز بمسير خالد أمره بقارن بن فريانس فسار من المدائن ولما انتهى إلى الدار لقيه المنهزمون عن هرمز ومعهم قباذ وأنوشجان فتذامروا ورجعوا ونزلوا النهر، وسار إليهم خالد واقتتلوا وبرز قان فقتله معقل بن الأعشى بن النباش وقتل عاصم أنوشجان وقتل عدي قباذ، وانهزمت الفرس وقتل منهم نحو ثلاثين ألفاً سوى من غرق ومنعت المياه المسلمين من طلبهم. وكانت الغنيمة عظيمة وأخذ الجزية في الفلاحين وصاروا في ذمة، ولم يقاتل المسلمين من الفرس بعد قارن أعظم منه، وتسمى هذه الوقعة بالثني وهو النهر.

ولما جاء الخبر إلى أردشير بالهزيمة بعد الأندرزغر وكان فارساً من مولد السواد فأرسل في أثره مع بهمن حاذويه، وحشد الأندرزغر ما بين الحيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين وعسكر بالوجة، وسار إليهم خالد فقاتلهم وصبروا، ثم جاءهم كمين من خلفهم فانهزموا ومات الأندرزغر عطشاً. وبذل خالد الأمان للفلاحين فصاروا ذمة، وسبى ذراري المقاتلة ومن أعانهم وأصاب اثنين من نصارى بكر بن وائل أحدهما جابر بن بجير والآخر ابن عبد الأسود من عجل فأسرهما، وغضب بكر بن وائل لذلك.

فاجتمعوا على الليث وعليهم عبد الأسود العجلي، فكتب أردشير إلى بهمن حاذويه، وقد أقام بعد الهزيمة بقسيناثا يأمره بالمسير إلى نصارى العرب بالليس فيكون معهم إلى أن يقدم عليهم جابان من المرازبة، فقدم بهمن على أردشير ليشاوره وخالفه جابان إلى نصارى العرب من عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من الحيرة وهم مجتمعون على الليث. وسار إليهم خالد حين بلغه خبرهم ولا يشعر بجابان.

فلما حط الأثقال سار إليهم وطلب المبارزة، فبرز إليه مالك بن قيس فقتله خالد، واشتد القتال بينهم وسائر المشركين ينتظرون قدوم بهمن، ثم انهزموا واستأسر الكثير منهم وقتلهم خالد حتى سال النهر بالدم وسمي نهر الدم، ووقف على طعام الأعاجم وكانوا قعوداً للأكل فنفله المسلمين، وجعل العرب يتساءلون عن الرقاق يحسبونه رقاعاً. وبلغ عدد القتلى سبعين ألفاً. ولما فرغ من الليس سار إلى أمغيشيا فغزا أهلها وأعجلهم أن ينقلوا أموالهم فغنم جميع ما فيها وخربها.

فتح الحيرة

ثم سار خالد إلى الحيرة وحمل الرجال والأنفال في السفن، وخرج مرزبان الحيرة وهو ابن زيان من الحيرة ومعه الأزادية فعسكر عند الغريين وأرسل ابنه ليقاطع الماء على السفن، فوقفت

على الأرض. وسار إليه خالد فلقيه على فرات بازقلة فقتله وجميع من معه، وسار نحو أبيه على الحيرة فهرب بغير قتال لما كان بلغه من موت أردشير كسرى وقتل ابنه. ونزل خالد منزله بالغريين وحاصر قصور الحيرة وافتتح الديور وصاح القسيسون والرهبان بأهل القصور فرجعوا على الإباية، وخرج إياس بن قبيصة من القصر الأبيض، وعمرو بن عبد المسيح بن قيس بن حيان بن بقيلة - وكان معمراً - وسأله خالد عن عجيبة قد رآها، فقال: رأيت القرى ما بين دمشق والحيرة تسافر بينهما المرأة فلا تتزود إلا رغيفاً واحداً. ثم جاءه واستقرب منه ورأى مع خادمه كيساً فيه سم فأخذه خالد ونثره في يده، وقال ما هذا؟ قال خشيت أن تكونوا على غير ما وجدت فيكون الموت أحب إلي من مكروه أدخله على قومي، فقال له خالد: لن تموت نفس حتى تأتي على أجلها. ثم قال: باسم الله الذي لا يضُرُّ مع اسمه شيء وابتلع السم فوعك ساعة ثم قام كأنما نشط من عقال. فقال عبد المسيح: لتبلغن ما أردتم ما دام أحد منكم هكذا، ثم صالحهم على مائة أو مائتين وتسعين ألفاً وعلى كرامة بنت عبد المسيح لشريك كان النبي ﷺ وعده بها إذا فتحت الحيرة فأخذها شريك، وافتدت منه بألف درهم وكتب لهم بالصلح وذلك في أول سنة اثنتي عشرة.

فتح ما وراء الحيرة

كان الدهاقين يتربصون بخالد ما يصنع بأهل الحيرة فلما صالحهم واستقاموا له جاءته الدهاقين من كل ناحية فصالحوه عما يلي الحيرة من الفلاليج وغيرها على ألف ألف وقيل على ألفي ألف سوى جباية كسرى، وبعث خالد ضرار بن الأزور وضرار بن الخطاب والقعقاع بن عمرو والمثنى بن حارثة وعيينة بن الشماس فكانوا في الثغور وأمرهم بالغارة، فمخروا السواد كله إلى شاطئ دجلة. وكتب إلى ملوك فارس:

أما بعد فالحمد لله الذي حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ولو نفعل ذلك كان شراً لكم فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجوزكم إلى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة.

وكتب إلى المرازبة: أما بعد فالحمد لله الذي فض حدتكم وفرق كلمتكم وفلّ حدكم وكسر شوكتم تسلموا وإلا فاعتقدوا مني الذمة وأدوا الجزية وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر انتهى.

وكان العجم مختلفين بموت أردشير وقد أزالوا بهمن حاذويه فيمن سيره في العساكر فجبى خالد خراج السواد في خمسين ليلة، وغلب العجم عليه، وأقام بالحيرة سنة يصعد ويصوب، والفرس حائرون يخلعون ويملكون ولم يجدوا من يجتمعون عليه لأن سيرين كان قتل جميع من تناسب إلى بهرام جور. فلما وصلهم كتاب خالد تكلم نساء آل كسرى وولوا الفرخ زاد بن البندوان إلى أن يجدوا من يجتمعون عليه، ووصل جرير بن عبد الله البجلي إلى خالد بعد فتح الحيرة، وكان مع خالد بن سعيد بن العاص بالشام، ثم قدم على أبي بكر فكلمه أن يجمع له قومه كما وعد النبي ﷺ وكانوا أوزاعاً متفرقين في العرب، فسخط ذلك منه أبو بكر فقال: تكلمني بما لا يعني وأنت ترى ما نحن فيه من فارس والروم. وأمره بالمسير إلى خالد فقدم عليه بعد فتح الحيرة.

فتح الأنبار وعين التمر

وتسمى هذه الغزوة ذات العيون

ثم سار خالد على تعبيته إلى الأنبار وعلى مقدمته الأقرع بن حابس، وكان بالأنبار شيرزاد صاحب ساباط فحاصرهم ورشقوهم بالنبال حتى فقأوا منهم ألف عين. ثم نحر ضعاف الإبل وألقاها في الخندق حتى ردمه بها وجاز هو وأصحابه فوقها، فاجتمع المسلمون والكفار في الخندق، وصالح شيرزاد على أن يلحقوه بمأمنه ويخلي لهم عن البلد وما فيها، فلحق بهمن جادويه.

ثم استخلف خالد على الأنبار الزبرقان بن بدر، وسار إلى عين التمر وبها مهران بن بهرام جوبين في جمع عظيم من العجم، وعقّة بن أبي عقة في جمع عظيم من العرب، وحولهم طوائف من النمر وتغلب وإياد وغيرهم من العرب. وقال عقبة لبهرام: دعنا وخالداً فالعرب أعرف لقتال العرب. فدفعه لذلك واتقى به وسار عقبة إلى خالد وحمل خالد عليه وهو يقيم صفوفه، فاحتضنه وأخذه أسيراً.

وانهزم العسكر عن غير قتال وأسر أكثرهم. وبلغ الخبر إلى مهران فهرب وترك الحصن وتحصن به المنهزمون، واستأمنوا لخالد فأبى، فنزلوا على حكمه فقتلهم أجمعين، وعقة معهم. وغنم ما في الحصن وسبى أهليهم وأولادهم وأخذ من البيعة وهي الكنيسة غلماناً كانوا يتعلمون الإنجيل فقسمهم في الناس منهم: سيرين أبو محمد ونصير أبو موسى وحمران مولى عثمان، وبعث إلى أبي بكر بالفتح والخمس. وقتل من المسلمين عمير بن رباب السهمي من مهاجرة الحبشة وبشير بن سعد والد النعمان.

مطلب وقعة دومة الجندل

ولما فرغ خالد من عين التمر وافق وصول كتاب عياض بن غنم وهو على من بإزائه من نصارى العرب بناحية دومة الجندل وهم بهرا وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم، وكانت رياسة دومة لأكيدر بن عبد الملك والجودي بن ربيعة يقتسمانها، وأشار أكيدر بصلح خالد فلم يقبلوا منه فخرج عنه، وبلغ خالد مسيره فأرسل من اعترضه فقتله وأخذ ما معه، وسار خالد فنزل دومة وعياض عليها من الجهة الأخرى، وخرج الجودي لقتال عياض، فانهزموا من الجهتين إلى الحصن فأغلق دونهم وقتل الجودي وافتتح الحصن عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية.

الوقائع بالعراق

وأقام خالد بدومة الجندل وطمع الأعاجم في الحيرة وملأهم عرب الجزيرة غضباً لعقة، فخرج اسواران إلى الأنبار وانتهيا إلى حصيد والخنافس، فبعث القعقاع من الحيرة عسكرين حالا بينهما وبين الريف، ثم جاء خالد إلى الحيرة فعجل القعقاع بن عمرو وأبو ليلى بن فدكى إلى لقائهما بالحصيد، فقتل من العجم مقتلة عظيمة، وقتل الأسواران، وغنم المسلمون ما في الحصيد، وانهزمت الأعاجم إلى الخنافس وبها البهبوذان من الأساورة. وسار أبو ليلى في اتباعهم فهزم البهبوذان إلى المصيخ وكان بهما الهذيل بن عمران وربيعة بن بجير من عرب الجزيرة غضباً لعقة وجاءا مدداً لأهل الحصيد، فكتب خالد إلى القعقاع وأبي ليلى وأوعدهما المصيخ، وسار إليهم فتوافوا هنالك وأغاروا على الهذيل ومن معه من ثلاثة أوجه، فأكثروا فيهم القتل ففر الهذيل في قليل، وكان مع الهذيل عبد العزيز بن أبي رهم من أوس مناة ولبيد بن جرير وكانا أسلما وكتب لهما أبو بكر بإسلامهما فقتلا في المعركة، فوداهما أبو بكر وأوصى بأولادهما.

وكان عمر يعتمد بقتلهما وقتل مالك بن نويرة على خالد. ولما فرغ خالد من الهذيل بالمصيخ واعد القعقاع وأبا ليلى إلى الثني شرقي الرصافة ليغير على ربيعة بن بجير التغلبي صاحب الهذيل الذي جاء معه لمدد الفرس وتبييتهم فلم يفلت منهم أحداً، ثم اتبع الهذيل بعد مفره من المصيخ إلى اليسير وقد لحق هنالك بعتاب بن أسيد فبيتهم خالد قبل أن يصل إليهم خبر ربيعة فقتل منهم مقتلة عظيمة، وسار إلى الرصافة وبها هلال بن عقبة فتفرق عنه أصحابه وهرب فلم يلق بها خالد. من الرضاب إلى الفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة فحميت الروم واستعانوا بمن يليهم من مسالح فارس، واجتمعت معهم تغلب وإياد والنمر وساروا إلى خالد وطلبوا منه العبور، فقال: اعبروا أسفل منا فعبروا وامتاز الروم من العرب، فانهزمت الروم ذلك اليوم وقتل منهم نحواً من مائة ألف.

وأقام خالد على الفراض إلى ذي القعدة، ثم أذن للناس بالرجوع إلى الحيرة، وجعل شجرة بن الأغر على الساقة. وخرج من الفراض حاجاً مكتتماً بحجة وذهب ليتعسَّف البلاد حتى أتى مكة فحج ورجع فوافى الحيرة مع جنده، وشجرة بن الأغر معهم ولم يعلم بحُجه إلا من أعلمه به، وعتب به أبو بكر في ذلك لما سمعه وكانت عقوبته إياه أن صرفه من غزو العراق إلى الشام، ثم شن خالد بن الوليد الغارات على نواحي السواد فأغار هو على شرق بغداد، وعلى قطربل، وعقرقوف، ومسكن، وبادروبا. وحج أبو بكر في هذه السنة واستخلف على المدينة عثمان بن عفان.

بعوث الشام

وكان من أول عمل أبي بكر بعد عوده من الحج أن بعث خالد بن سعيد بن العاص في الجنود إلى الشام أول سنة ثلاث عشرة، وقيل إنما بعثه إلى الشام لما بعث خالد بن الوليد إلى العراق أول السنة التي قبلها، ثم عزله قبل أن يسير لأنه كان لما قدم من اليمن عند الوفاة تخلف عن بيعة أبي بكر أياماً وغدا على علي وعثمان على الاستكانة لتيم وهما رؤوس بني عبد مناف فنهاه علي وبلغت الشيخين، فلما ولاه أبو بكر عقد له عمر فعزله وأمره أن يقيم بتيماء ويدعو من حوله من العرب إلى الجهاد حتى يأتيه أمره، فاجتمعت إليه جموع كثيرة، وبلغ الروم خبره فضربوا البعث على عرب الضاحية بالشام من بهرا وسليح وكلب وغسان ولخم وجذام، وسار إليهم خالد فغلبهم على منازلهم وافترقوا. وكتب له أبو بكر بالإقدام فسار متقدماً ولقيه البطريك ماهان من بطاركة الروم فهزمه خالد واستلحم الكثير من جنوده.

وكتب إلى أبي بكر يستمده، ووافق كتابه المستنفرين وفيهم ذو الكلاع ومعه حمير وعكرمة بن أبي جهل ومن معه من تهامة والسرو وعمان والبحرين فبعثهم إليه. وحينئذ اهتم أبو بكر بالشام وكان عمرو بن العاص لما بعثه رسول الله ﷺ تسليماً إلى عمان وعده أن يعيده إلى عمله عند فراغه من أمر عمان، فلما جاء بعد الوفاة أعاده إليها أبو بكر إنجازاً لوعده ﷺ وهي صدقات سعد هذيم وبني عذرة، فبعث إليه لأن يأمره باللحاق بخالد بن سعيد

لجهاد الروم وأن يقصد فلسطين، وبعث أيضا إلى الوليد بن عقبة وكان على صدقات قضاعة وولاه الأردن، وأمر يزيد بن أبي سفيان على جمهور من انتدب إليه منهم: سهيل بن عمرو وأشباهه، وأمر أبا عبيدة بن الجراح على جميعهم وعين له حمص، وأوصى كل واحد منهم.

ولما وصل المدد إلى خالد بن سعيد وبلغه توجه الأمراء تعجل للقاء الروم قبلهم فاستطرد له ماهان ودخل دمشق.

واقتحم خالد الشام ومعه ذي الكلاع وعكرمة والوليد حتى نزل مرج الصفر عند دمشق فانطوت مسالح ماهان عليه وسدوا الطريق دونه وزحف إليه ماهان، ولقي ابنه سعيداً في طريقه فقتلوه وبلغ الخبر أباه خالداً فهرب فيمن معه وانتهى إلى ذي المروة قرب المدينة. وأقام عكرمة ردءاً من خلفهم فرد عنهم الروم فأقام قريباً من الشام.

وجاء شرحبيل بن حسنة إلى أبي بكر وافداً من العراق من عند خالد فندب إليه الناس وبعثه مكان الوليد إلى أردن ومرّ بخالد ففصل ببعض أصحابه.

ثم بعث أبو بكر معاوية وأمره باللحاق بأخيه يزيد، وأذن لخالد بن سعيد بدخول المدينة.

وزحف الأمراء في العساكر نحو الشام، فعبى هرقل عساكر الروم ونزل حمص بعد أن أشار على الروم بعدم قتال العرب ومصالحتهم على ما يريدون، فأبوا ولجّوا، ثم فرقهم على أمراء المسلمين، فبعث شقيقه تذارق في تسعين ألفاً نحو عمرو بن العاص بفلسطين، وبعث جرجة بن توذر نحو يزيد بن أبي سفيان، وبعث الدراقص نحو شرحبيل بن حسنة بالأردن، وبعث القيقار بن نسطورس في ستين ألفاً نحو أبي عبيدة بالجابية. فهابهم المسلمون ثم رأوا أن الاجتماع أليق بهم وبلغهم كتاب أبي بكر بذلك فاجتمعوا باليرموك في بضعة وعشرين ألفاً. وأمر هرقل أيضاً باجتماع جنوده، ووعدهم بوصول ماهان إليهم فاجتمعوا بحيال المسلمين والوادي خندق بينهم. فأقاموا بإزائه ثلاثة أشهر، واستمدوا أبا بكر فكتب إلى خالد بن الوليد أن يستخلف على العراق المثنى بن حارثة ويلحق بهم وأمره على جند الشام.

بعوث الشام

ولما استمد المسلمون أبا بكر بعث إليهم خالد بن الوليد من العراق واستحثه في السير إليهم، فنفذ خالد لذلك ووافى المسلمين مكانهم عندما وافى ماهان الروم أيضاً. وولى خالد قباله وولى الأمراء قبل الآخرين إزاءهم فهزم ماهان، وتتابع الروم على الهزيمة وكانوا مائتين وأربعين ألفاً وتقسموا بين القتل والطرق في الواقوصة والهوي في الخندق، وقتل صناديد الروم وفرسانهم، وقتل تذارق أخو هرقل، وانتهت الهزيمة إلى هرقل وهو دون حمص فارتحل وأجاز إلى ما وراءها لتكون بينه وبين المسلمين وأمّر عليها وعلى دمشق.

ويقال: إن المسلمين كانوا يومئذ ستة وأربعين ألفاً: سبعة وعشرين منها مع الأمراء، وثلاثة آلاف من بلال مع خالد بن سعيد قد أمر عليهم أبو بكر معاوية بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وعشرة آلاف من إمداد أهل العراق مع خالد بن الوليد، وستة آلاف ثبتوا مع عكرمة ردءاً بعد خالد بن سعيد. وأن خالد بن سعيد عبّأهم كراديس ستة وثلاثين كردوساً لما رأى الروم تعبّوا كراديس، وكان كل كردوس ألفاً وكان ذلك في شهر جمادى، وأن أبا سفيان بن حرب أبلى يومئذ بلاءً حسناً بسعيه وتحريضه.

قالوا: وبينما الناس في القتال قدم البريد من المدينة بموت أبي بكر وولاية عمر، فأسرّه إلى خالد وكتمه عن الناس. ثم خرج جرجه من أمراء الروم فطلب خالداً وسأله عن أمره وأمر الإسلام، فوعظه خالد فاستبصر وأسلم وكانت وهناً على الروم. ثم زحف خالد بجماعة من المسلمين فيهم جرجه فقتل من يومه، واستشهد عكرمة بن أبي جهل وابنه عمرو، وأصيبت عين أبي سفيان، واستشهد سلمة بن هشام وعمرو وأبان ابنا سعيد وهشام بن العاص وسيّار بن سفيان والطفيل بن عمرو، وأثبت خالد بن سعيد فلا يعلم أين مات بعد ويقال استشهد في مرج الصفر في الوقعة الأولى.

ويقال إن خالداً لما جاءه من العراق مدداً للمسلمين بالشام طلب من الأدلاء أن يغوروا به حتى يخرج من وراء الروم، فسلك به رافع بن عمرو الطائي من فزارة في بلاد كلب حتى خرج إلى الشام ونحر فيها الإبل وأغار على مصيخ فوجد به رفقة فقتلهم وأسلبهم.

وقعة مرج راهط

وكان الحارث بن الأيهم وغسان قد اجتمعوا بمرج راهط فسلك إليهم واستباحهم، ثم نزل بصرى فافتتحها، ثم سار منها إلى المسلمين بالواقوصة فشهد معهم اليرموك. ويقال: إن خالداً لما جاء من العراق إلى الشام لقي أمراء المسلمين ببصرى فحاصروها جميعاً حتى فتحوها على الجزية، ثم ساروا جميعاً إلى فلسطين مدداً

لعمرو بن العاص، وعمرو بالغور والروم بجلق مع تدارق أخي هرقل، وانكشفوا عن جلق إلى أجنادين وراء الرملة شرقاً.

ثم تزاحف الناس فاقتتلوا، وانهزم الروم وذلك في منتصف جمادى الأولى من السنة، وقتل فيها تدارق، ثم رجع هرقل ولقي المسلمين بالفاقوصة عند اليرموك، فكانت واقعة اليرموك كما قدمنا في رجب بعد أجنادين، وبلغت المسلمين وفاة أبي بكر وأنها كانت لثمان بقين من جمادى الآخرة.

خلافة عمر رضي اللّه عنه

ولما احتضر أبو بكر عهد إلى عمر رضي اللّه عنهما بالأمر من بعده بعد أن شاور علياً طلحة وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم وأخبرهم بما يريد فيه، فأثنوا على رأيه، فأشرف على الناس وقال: إني قد استخلفت عمر ولم آل لكم نصحاً فاسمعوا له وأطيعوا. ودعا عثمان فأمره فكتب:

بسم اللّه الرحمن الرحيم

هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول اللّه ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة في الحالة التي يؤمن فيها الكافر ويتقي فيها الفاجر، إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب ولم آل لكم خيراً، فإن صبر وعدل فذلك علمي به ورأيي منه، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب والخير أردت ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

فكان أول ما انفذه من الأمور عزل خالد عن إمارة الجيوش بالشام وتوليه أبي عبيدة، وجاء الخبر بذلك والمسلمون مواقفون عدوهم في اليرموك فكتم أبو عبيدة الأمر كله، فلما انقضى أمر اليرموك كما مر سار المسلمون إلى فحل من أرض الأردن وبها واقعة الروم وخالد على مقدمة الناس فقاتلوا الروم.

فتح دمشق

واقتحموها عنوة وذلك في ذي القعدة ولحقت فواقعت الروم بدمشق وعليها ماهان من البطارقة فحاصرهم المسلمون حتى فتحوا دمشق، وأظهر أبو عبيدة أمارته وعزل خالد. وقال سببه إن أبا بكر كان يسخط خالد بن سعيد والوليد بن عقبة من أجل فرارهما كما مر، فلما ولي عمر رضي اللّه عنه أباح لهما دخول المدينة ثم بعثهما مع الناس إلى الشام، ولما فرغ أمر اليرموك وساروا إلى فحل وبلغ عمر خبر اليرموك فكتب بعزل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص حتى يصير الحرب إلى فلسطين فتولاها عمر، وإن خالداً قدم على عمر بعد العزل وذلك بعد فتح دمشق وإنهم ساروا إلى فحل فاقتحموها، ثم ساروا إلى دمشق وعليها نسطاس بن نسطورس فحاصروها سبعين ليلة وقيل ستة أشهر من نواحيها الأربع، خالد وأبو عبيدة ويزيد وعمرو كل واحد على ناحية. وقد جعلوا بينهم وبين هرقل مدينة حمص ومن دونها ذو الكلاع في جيش من المسلمين.

وبعث هرقل المدد إلى دمشق وكان فيهم ذو الكلاع فسقط في أيديهم وقدموا على دخول دمشق وطمع المسلمون فيهم، واستغفلهم خالد في بعض الليالي فتسور سورهم من ناحيته وقتل الوليد وفتح الباب واقتحم البلد وكبّر وكبروا فقتلوا جميع من لقوه. وفزع أهل النواحي إلى الأمراء الذين يلونهم فنادوا لهم بالصلح والدخول، فدخلوا من نواحيهم صلحاً فأجريت ناحية خالد على الصلح مثلهم.

قال سيف: وبعثوا إلى عمر بالفتح فوصل كتابه بأن يصرف جند العراق إلى العراق، فخرجوا وعليهم هاشم بن عتبة وعلى مقدمته القعقاع. وخرج الأمراء إلى فحل وأقام يزيد بن أبي سفيان بدمشق، وكان الفتح في رجب سنة أربع عشرة. وبعث يزيد دحية الكلبي إلى تدمر، وأبا الزهراء القشيري إلى حوران والبثنية، فصالحوهما وولي عليهما. ووصل الأمراء إلى فحل فبيتهم الروم فظفر المسلمون بهم وهزموهم فقتل منهم ثمانون ألفاً وكان على الناس في وقعة فحل شرحبيل بن حسنة، فسار بهم إلى بيسان وحاصرها فقتل مقاتلتها وصالحه الباقون فقبل منهم.

وكان أبو الأعور السلمي على طبرية محاصراً لها، فلما بلغهم شأن بيسان صالحوه فكمل فتح الأردن صلحاً ونزلت القواد في مدائنها وقراها وكتبوا إلى عمر بالفتح.

وزعم الواقدي: أن اليرموك كانت سنة خمسة عشرة وأن هرقل انتقل فيها من أنطاكية إلى قسطنطينية وأن اليرموك كانت آخر الوقائع. والذي تقدم لنا من رواية سيف أن اليرموك كانت سنة ثلاث عشرة وأن البريد بوفاة أبي بكر قدم يوم هربت الروم فيه، وأن الأمراء بعد اليرموك ساروا إلى دمشق ففتحوها ثم كانت بعدها وقعة فحل، ثم وقائع أخرى قبل شخوص هرقل واللّه أعلم.

خبر المثنى بالعراق بعد مسير خالد إلى الشام

لما وصل كتاب أبي بكر إلى خالد بعد رجوعه من حجه بأن ينصرف إلى الشام أميراً على المسلمين بها ويخرج في شطر الناس ويرجع بهم إذا فتح اللّه عليه إلى العراق ويترك الشطر الثاني بالعراق مع المثنى بن حارثة، وفعل ذلك خالد ومضى لوجهه، وأقام المثنى بالحيرة ورتب المصالح. واستقام أهل فارس بعد خروج خالد بقليل على شهريار بن شيرين بن شهريار ممن يناسبه إلى كسرى أبي سابور وذلك سنة ثلاث عشرة، فبعث إلى الحيرة هرمز فاقتتلوا هنالك قتالا شديداً بعدوة الضراء وغار الفيل بين الصفوف فقتله المثنى وناس معه، وانهزم أهل فارس واتبعهم المسلمون يقتلونهم حتى انتهوا إلى المدائن، ومات شهريار إثر ذلك وبقي ما دون دجلة من السواد في أيدي المسلمين.

ثم اجتمع أهل فارس من بعد شهريار على آزرميدخت ولم ينفذ لها أمر فخلعت، وملك سابور بن شهريار وقام بأمره الفرخزاذ بن البندوان وزوجة آزرميدخت، فغضبت وبعثت إلى سياوخش الوازن وكان من كبار الأساورة وشكت إليه، فأشار عليها بالقبول. وجاء ليلة العرس فقتل الفرخزاذ ومن معه، ونهض إلى سابور فحاصره ثم اقتحم عليه فقتله، وملكت آزرميدخت وتشاغلوا بذلك عن ملكها.

انتهى شأن أبي بكر وشق السواد في سلطانه، وتشاغل أهل فارس عن دفاع المسلمين عنه. ولما أبطأ خبر أبي بكر على المثنى استخلف المثنى على الناس بشر بن الخصاصية وخرج نحو المدينة يستعلم ويستأذن، فقدم وأبو بكر يجود بنفسه وقد عهد إلى عمر وأخبره الخبر، فأحضر عمر وأوصاه أن يندب الناس مع المثنى وأن يصرف أصحاب خالد من الشام إلى العراق، فقال عمر: يرحم اللّه أبا بكر علم إنه تستر في إمارة خالد فأمرني بصرف أصحابه ولم يذكره.

ولاية أبي عبيد بن مسعود على العراق ومقتله

ولما ولي عمر ندب الناس مع المثنى بن حارثة أياماً وكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود، فقال عمر للناس: إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك أين المهاجرون عن موعد اللّه؟ سيروا في الأرض التي وعدكم اللّه في الكتاب أن يورثكموها. فقال: ليظهره على الدين كله فاللّه مظهر دينه ومعز ناصره ومولي أهله مواريث الأمم. أين عباد اللّه الصالحون؟ فانتدب أبو عبيد الثقفي، ثم سعد بن عبيد الأنصاري، ثم سليط بن قيس، فولى أبا عبيد على البعث لسبقه، وقال: اسمع من أصحاب النبي ﷺ وأشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعاً بل اتئد فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف. ولم يمنعني أن أؤمر سليطاً إلا لسرعته إلى الحرب، وفي السرعة إلى الحرب- إلا عن بيان -ضياع واللّه لولا سرعته لأمرته. فكان بعث أبي عبيد هذا أول بعث بعثه عمر، ثم بعث بعده يعلى بن أمية إلى اليمن وأمره بإجلاء أهل نجران لوصية رسول اللّه ﷺ بذلك في مرضه، وقال: أخبرهم بأنا نجليهم بأمر اللّه ورسوله أن لا يترك دينان بأرض العرب ثم نعطيهم أرضاً كأرضهم وفاء بذمتهم كما أمر اللّه.

قالوا: فخرج أبو عبيد مع المثنى بن حارثة وسعد وسليط إلى العراق، وقد كانت بوران بنت كسرى كلما اختلفت الناس بالمدائن عدلت بينهم حتى يصطلحوا، فلما قتل الفرخزاذ بن البندوان وملكت آزرميدخت اختلف أهل فارس واشتغلوا عن المسلمين غيبة المثنى كلها، فبعثت بوران إلى رستم تستحثه للقدوم وكان على فرج خراسان، فأقبل في الناس إلى المدائن وعزل الفرخزاذ وفقأ عين آزرميدخت ونصب بوران، فملكته وأحضرت مرازبة فارس فأسلموا له ورضوا به وتوجته. وسبق المثنى إلى الحيرة، ولحقه أبو عبيد ومن معه. وكتب رستم إلى دهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين وبعث في كل رستاق رجلاً لذلك فكان في فرات باذقلا جابان وفي كسكر نرسي وبعث جند لمصادمة المثنى فساروا وتألفوا واجتمعوا أسفل الفرات. وخرج المثنى من الحيرة خوفاً أن يؤتى من خلفه، فقدم عليه أبو عبيد، ونزل جابان النمارق ومعه جمع عظيم، فلقيه أبو عبيد هنالك وهزم اللّه أهل فارس وأسر جابان ثم أطلق، وساروا في المنهزمين حتى دخلوا كسكر وكان بها نرسي ابن خالة كسرى فجمع الفالة إلى عسكره، وسار إليهم أبو عبيد من النمارق في تعبيته، وكان على مجنبتي نرسي نفدويه وشيرويه ابنا بسطام خال كسرى. واتصلت هزيمة جابان ببوران ورستم فبعثوا الجالينوس مدداً لنرسي وعاجلهم أبو عبيد فالتقوا أسفل من كسكر فاشتد القتال وانهزمت الفرس، وهرب نرسي وغنم المسلمون ما في عسكره.

وبعث أبو عبيد المثنى وعاصماً فهزموا من كان تجمع من أهل الرساتيق وخربوا وسبوا وأخذوا الجزية من أهل السواد وهم يتربصون قدوم الجالينوس ولما سمع به أبو عبيد سار إليه على

تعبيته فانهزم الجالينوس وهرب ورجع أبو عبيد فنزل الحيرة، وقد كان عمر قال له: إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والخزي تقدم على قوم تجرأوا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه فانظر كيف تكون واحرز لسانك ولا تفش سرك فإن صاحب السر- ما ضبط- متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه وإذا ضيعه كان بمضيعة.

ولما رجع الجالينوس إلى رستم بعث بهمن حادويه ذا الحاجب إلى الحيرة فأقبل ومعه درفش كابيان راية كسرى عرض ثمانية أذرع في طول اثني عشر من جلود النمر فنزل في قسي الناطف على الفرات، وأقبل أبو عبيد فنزل عدوته وقعد إلى أن نصبوا للفريقين جسراً على الفرات، وخيرهم بهمن حادويه في عبوره أو عبورهم، فاختار أبو عبيد العبور وأجاز إليهم. وماجت الأرض بالمقاتلة ونفر جنود المسلمين وكراديسهم من الفيلة وأمر بالتخفيف عن الخيل فترجل أبو عبيد والناس وصافحوا العدو بالسيوف، ودافعتهم الفيلة فقطعوا وضنها فسقطت رحالها وقتل من كان عليهم، وقابل أبو عبيد فيلاً منهم فوطئه بيده وقام عليه فأهلكه. وقاتلهم الناس ثم انهزموا عن المثنى وسبقه بعض المسلمين إلى الجسر فقطعه، وقال: موتوا أو تظفروا. وتواثب بعضهم الفرات فغرقوا وأقام المثنى وناس معه مثل عروة بن زيد الخيل وأبي محجن الثقفي وأنظارهم، وقاتل أبو زيد الطائي كان نصرانياً وقدم الحيرة لبعض أمره فحضر مع المثنى وقاتل حينئذ حمية، ونادى المثنى الذين عبروا من المسلمين فعقدوا الجسر وأجاز بالناس، وكان آخر من قتل عند الجسر سليط بن قيس فانفض أصحابه إلى المدينة وبقي المثنى في فِلّه جريحاً.

وبلغ الخبر إلى عمر فشق عليه وعذر المنهزمين، وهلك من المسلمين يومئذ أربعة آلاف قتلى وغرقى وهرب الفان وبقي الثلاثة آلاف وقتل من الفرس ستة الآف. وبينما بهمن خادويه يروم العبور خلف المسلمين أتاه الخبر بأن الفرس ثاروا برستم مع الفيرزان فرجع إلى المدائن، وكانت الوقعة في مدائن سنة ثلاث عشرة. ولما رجع بهمن حادويه اتبعه جابان ومعه مردان شاه، وخرج المثنى في أثرهما فلما أشرف عليهما أتياه يظنان أنه هارب فأخذهما أسيرين، وخرج أهل الليس على أصحابهما فأتوه بهم أسرى وعقدوا معه مهادنة وقتل جميع الأسرى.

ولما بلغ عمر رضي الله عنه عن وقعة ابن عبيد بالجسر ندب الناس إلى المثنى، وكان فيمن ندب بجيلة وأمرهم إلى جرير بن عبد الله الذي جمعهم من القبائل بعد أن كانوا مفترقين ووعده النبي ﷺ بذلك وشغل عن ذلك أبو بكر بأمر الردة ووفى له عمر به وسيره مدداً للمثنى بالعراق، وبعث عصمة بن عبد الله الضبي، وكتب إلى أهل الردة بأن يوافوا المثنى وبعث المثنى الرسل فيمن يليه من العرب، فوافوا في جموع عظيمة حتى نصارى النمر جاؤوه وعليهم أنس بن هلال وقالوا: نقاتل مع قومنا. وبلغ الخبر إلى رستم والفيرزان فبعثا مهران الهمداني إلى الحيرة والمثنى بين القادسية وخفان.

فلما بلغه الخبر استبقى فرات باذقلا وكتب بالخبر إلى جرير وعصمة أن يقصدا العذيب مما يلي الكوفة، فاجتمعوا هنالك ومهران قبالتهم عدوة الفرات وتركوا له العبور فأجاز إليهم. وسار إليه المثنى في التبعية وعلى مجنبتيه مهران مرزبان الحيرة ابن الأزاذبة ومردارشاه، ووقف المثنى على الرايات يحرض الناس فأعجلتهم فارس وخالطوهم وركدت حربهم واشتدت.

ثم حمل المثنى على مهران فأزاله عن مركزه، وأصيب مسعود أخو المثنى، وخالط المثنى القلب ووثب المجنبات على المجنبات قبالتهم فانهزمت الفرس، وسبقهم المثنى إلى الجسر فهربوا مصعدين ومنحدرين، واستلحمهم خيول المسلمين وقتل فيها مائة ألف أو يزيدون، وأحصي مئة رجل من المسلمين قتل كل واحد منهم عشرة. وتبعهم المسلمون إلى الليل، وأرسل المثنى في آثار الفرس، فبلغوا ساباط فغنموا وسبوا ساباط واستباحوا القرى وسخروا السواد بينهم وبين دجلة لا يلقون مانعاً.

ورجع المنهزمون إلى رستم فاستهانوا ورضوا أن يتركوا ما وراء دجلة. ثم خرج المثنى من الحيرة واستخرج بشير بن الخصاصية وسار نحو السواد ونزل الليث من قرى الأنبار فسميت الغزاة غزاة الأنبار الآخرة وغزاة الليس الآخرة.

وجاءت إلى المثنى عيون فدلوه على سوق الخنافس وسوق بغداد، وأن سوق الخنافس أقرب ويجتمع بها تجار المدائن والسواد وخفراؤهم ربيعة وقضاعة، فركب إليها وأغار عليها يوم سوق، فاشتف السوق وما فيها وسلب الخفراء ورجع إلى الأنبار فأتوه بالعلوفة والزاد وأخذ منهم أدلاء تظهر له المدائن وسار بهم إلى بغداد ليلاً، وصبح السوق فوضع فيهم السيف وأخذ ما شاء من الذهب والفضة والجيد من كل شيء.

ثم رجع إلى الأنبار وبعث المضارب العجلي إلى الكباث وبه جماعة من تغلب فهربوا عنه، ولحقهم المضارب فقتل في أخرياتهم وأكثر. ثم سرح فرات بن حيان التغلبي وعتيبة بن النهاس للإغارة على أحياء من تغلب بصفين، ثم اتبعهم المثنى بنفسه فوجدوا أحياء صفين قد هربوا عنها فعبر المثنى إلى الجزيرة، وفي زادهم

وأكلوا رواحلهم وأدركوا عيراً من أهل خفان، فحضر نفر من تغلب فأخذوا العير ودلهم أحد الحفراء على حي من تغلب ساروا إليه يومهم، وهجموا عليهم فقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية واستاقوا الأموال، وكان هذا الحي بوادي الرويحلة، فاشترى أسراهم من كان هنالك من ربيعة بنصيبهم من الفيء وأعتقوهم وكانت ربيعة لا تسبي في الجاهلية.

ولما سمع المثنى أن جميع من يملك البلاد قد انتجع شاطئ دجلة خرج في اتباعهم فأدركهم بتكريت، فغنم ما شاء وعاد إلى الأنبار، ومضى عتيبة وفرات حتى أغارا على النمر وتغلب بصفين، وتمكن رعب المسلمين من قلوب أهل فارس وملكوا ما بين الفرات ودجلة.

أخبار القادسية

ولما دهم فارس من المسلمين بالسواد ما دهمهم وهم مختلفون بين رستم والفيرزان واجتمع عظماؤهم وقالوا لهما: إما أن تجتمعا وإلا فنحن لكما حرب فقد عرضتمونا للهلكة وما بعد بغداد وتكريت إلى المدائن فأطاعا لذلك، وفزعوا إلى بوران يسألونها في ولد من آل كسرى يولونه عليهم، فأحضرت لهم النساء والسراري وبسطوا عليهن العذاب فذكروا لهم غلاماً من ولد شهريار بن كسرى اسمه يزدجرد أخذته أمه عندما قتل شيرويه أبناء أبيه، فسألوا أمه عنه فدلتهم عليه عند أخواله كانت أودعته عندهم حينئذ فجاؤوا به ابن إحدى وعشرين سنة فملكوه واجتمعوا عليه.

وتبارى المرازبة في طاعته وعين المسالح والجنود لكل ثغر ومنها الحيرة والأبلة والأنبار وخرجوا إليها من المدائن. وكتب المثنى بذلك إلى عمر، وبينما هم ينتظر الجواب انتقض أهل السواد وكفروا وخرج المثنى إلى ذي قار، ونزل الناس في عسكر واحد. ولما وصل كتابه إلى عمر قال: والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب، فلم يدع رئيساً ولا ذا رأي وشرف وبسطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس، بل وغررهم وكتب إلى المثنى يأمره بخروج المسلمين من بين العجم والتفرق في المياه بحيالهم، وأن يدعو الفرسان وأهل النجدات من ربيعة ومضر ويحضرهم طوعاً وكرهاً، فنزل المسلمون بالحلة وساروا إلى عصي وهو جبل البصرة متناظرين.

وكتب إلى عماله على العرب أن يبعثوا إليه من كانت له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأي وخرج إلى الحج، فحج سنة ثلاث عشرة، ورجع فجاءته أفواجهم إلى المدينة، ومن كان أقرب إلى العراق انضم إلى المثنى، فلما اجتمعت عنده أمراء العرب خرج من المدينة واستخلف عليها علياً وعسكر على صرار من ضواحيها، وبعث على المقدمة طلحة وجعل على المجنبتين عبد الرحمن والزبير وانتُبهم أمره على الناس، ولم يطق أحد سؤاله، فسأله عثمان. فأحضر الناس واستشارهم في المسير إلى العراق فقال العامة: سر لحن معك فوافقهم، ثم رجع إلى أصحاب رسول الله ﷺ وأحضر علياً وطلحة والزبير وعبد الرحمن واستشارهم فأشاروا بمقامه وأن يبعث رجلاً بعده آخر من الصحابة بالجنود حتى يفتح الله على المسلمين ويهلك عدوهم، فقبل ذلك ورأى فيه الصواب. وعين لذلك سعد بن أبي وقاص وكان على صدقات هوازن فأحضره وولاه حرب العراق وأوصاه وقال: ياسعد ابن أم سعد! لا يغرنك من الله أن يقال خال رسول الله وصاحب رسول الله فإن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته فالناس في دين الله سواء الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة. فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله ﷺ يلزمه فالزمه وعليك بالصبر.

ثم سرحه في أربعة آلاف ممن اجتمع إليه فيهم: حميضة بن النعمان بن حميضة على بارق، وعمرو بن معديكرب وأبو سبرة بن أبي رهم على مذحج، ويزيد بن الحرث الصدائي على عذرة وخبب ومسلية، وبشر بن عبد الله الهلالي على قيس عيلان، والحصين بن نمير ومعاوية بن خديج على السكون وكندة. ثم أمر بعد خروجه بألفي يماني وألفي فخري.

وسار سعد وبلغه في طريقه بِزَرْورد أن المثنى مات من جراحة انتقضت، وإنه استخلف على الناس بشير بن الخصاصية، وكانت جموع المثنى ثلاثة آلاف، وكذلك أربعة آلاف من تميم والرباب وأقاموا، وعمر ضرب على بني أسد أن ينزلوا على حد أرضهم، فنزلوا في ثلاثة آلاف وأقاموا بين سعد والمثنى، وسار سعد إلى سيراف فنزلها، واجتمعت إليه العساكر ولحقه الأشعث بن قيس ومعه ثلاثون ألفاً، ولم يكن أحد أجرأ على الفرس من ربيعة.

ثم عبأ سعد كتائب من سيراف وأمّر الأمراء وعرّف على كل عشرة عريفاً، وجعل الرايات لأهل السابقة ورتب المقدمة والساقة والمجنبات والطلائع وكل ذلك بأمر عمر ورأيه، وبعث في المقدمة زهرة بن عبد الله بن قتادة الحيوي من بني تميم فانتهى إلى العذيب، وعلى الميمنة عبد الله بن المعتمر، وعلى الميسرة شرحبيل

بن السمط وخليفة بن خالد بن عرفطة حليف بني عبد شمس، وعاصم بن عمر التميمي على السافلة، وسواد بن مالك التميمي على الطلائع، وسلمان بن ربيعة الباهلي على المجردة. ثم سار على التعبية ولقيه المعنى بن حارثة الشيباني بسيراف، وقد كان بعد موت أخيه المثنى سار بذي قار إلى قابوس بن قابوس بن المنذر بالقادسية وقد بعث الفرس إليها يستنفرون العرب فبيته المعنّى واستلحمه ومن معه ورجع إلى ذي قار.

وجاء إلى سعد بالخبر ليعلمه بوصية المثنى إليه أن لا تدخلوا بلاد فارس وقاتلوهم على حدود أرضهم بادئ حجر من أرض العرب، فإن يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم وإلا رجعتم إلى فئة ثم تكونوا أعلم بسبيهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يردّ الله الكرب. فترحم سعد ومن معه على المثنى وولى أخاه المعنّى على عمله وتزوج سلمى زوجته، ووصله كتاب عمر بمثل رأي المثنى يسأله عن سيراف. ونزل العرب ثم أتى القادسية فنزلها بحيال القنطرة بين العتيق والخندق.

ووصله كتاب عمر يؤكد عليهم في الوفاء بالأنبار ولو كان إشارة أو ملاعبة، وكان زهرة في المقدمة فبعث سرية للإغارة على الحيرة عليها بكر بن عبد الله الليثي، وإذا أخت مرزبان الحيرة تزف إلى زوجها فحمل بكير على ابن الأزادية فقتله وحملوا الأثقال والعروس في ثلاثين امرأة ومئة من التوابع ومعهم ما لا يعرف قيمته، ورجعوا بالغنائم فصبح سعد بالعذيب فقسمه في المسلمين.

ولما رجع سعد إلى القادسية أقام بها شهراً يشن الغارات بين كسكر والأنبار ولم يأته خبر عن الفرس، وقد بلغت أخبارهم إلى يزدجرد وإن ما بين الحيرة والفرات قد نهب وخرب، فأحضر رستم ودفعه لهذا الوجه، فتقاعد عنه وقال: ليس هذا من الرأي. وبعث الجيوش يعقب بعضها بعضاً أولى من مصادمة مرة، فأبى يزدجرد إلا مسيرة لذلك. فعسكر رستم بساباط وكتب سعد بذلك إلى عمر، فكتب إليه لا يكترثنك ما يأتيك عنهم واستعن بالله وتوكل عليه، وابعث رجالاً من أهل الرأي والجلد يدعونه فإن الله جاعل ذلك وهناً لهم. فأرسل سعد نفراً منهم النعمان بن مقرن، وبشر بن أبي أوهم وجملة من حيوة وحنظلة بن الربيع وعدي بن سهيل وعطارد بن حاجب والحرث بن حسان والمغيرة بن زرارة، والأشعث بن قيس، وفرات بن حبان وعاصم بن عمرو، وعمرو بن معديكرب، والمغيرة بن شعبة، والمعنّى بن حارثة. فقدموا على يزدجرد وتركوا رستم، واجتمعوا بل واجتمع الناس ينظرون إليهم وإلى خيولهم وبردوهم.

فأحضرهم يزدجرد وقال لترجمانه: سلهم ما جاءكم وما أولعكم بغزونا وبلادنا؟ من أجل أنا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا! فتكلم النعمان بن مقرن بعد أن استأذن أصحابه، وقال ما معناه: إن الله رحمنا وأرسل إلينا رسولاً صفته كذا يدعونا إلى كذا ووعدنا بكذا فأجابه منا قوم وتباعد قوم ثم أمر أن نجاهد من خالفه من العرب فدخلوا معه على وجهين: مكره اغتبط وطائع ازداد حتى اجتمعنا عليه وعرفنا فضل ما جاء به ثم أمرنا بجهاد من يلينا من الأمم ودعائهم إلى الإنصاف فإن أبيتم فالمناجزة.

فقال يزدجرد: لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم وقد كان أهل الضواحي يكفوننا أمركم ولا تطمعوا أن تقوموا للفرس فإن كان بكم جهد أعطيناكم قوتاً وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم. فقال المغيرة بن زرارة: هؤلاء أشراف العرب والأشراف يستحيون من الأشراف وأنا أكلمك وهم يشهدون، فأما ما ذكرت من سوء الحال فكما وصفت وأشد ثم ذكر من عيش العرب ورحمة الله بهم بإرسال النبي ﷺ مثلما قال النعمان الخ.

ثم قال له: إختر إما الجزية عن يد وأنت صاغر أو السيف وإلا فنج نفسك بالإسلام. فقال يزدجرد: لو قتل أحد الرسل قبلي لقتلتكم. ثم استدعى بوقر من تراب وحمل على أعظمهم، وقال: ارجعوا إلى صاحبكم واعلموه أني مرسل رستم حتى يدفنكم أجمعين في خندق القادسية ثم يدوخ بلادكم أعظم من تدويخ سابور. فقام عاصم بن عمرو فحمل التراب على عنقه، وقال: إنا أشرف هؤلاء. ولما رجع إلى سعد فقال: أبشر فقد أعطانا الله تراب أرضهم وعجب رستم من محاورتهم، وأخبر يزدجرد بما قاله عاصم بن عمرو، فبعث في أثرهم إلى الحيرة فأعجزوهم.

ثم أغار سواد بن مالك التميمي بعد مسير الوفد إلى يزدجرد على الفراض فاستاق ثلاثمائة دابة بين بغل وحمار وثور وآخرها سمكة وصبح بها العسكر، فقسمه سعد في الناس، وواصلوا السرايا والبعوث لطلب اللحم، وأما الطعام فكان عندهم كثيراً. وسار رستم إلى ساباط في ستين ألفاً وعلى مقدمته الجالينوس في أربعين ألفاً وساقته عشرون ألفاً وفي الميمنة الهرمزان وفي الميسرة مهران بن بهرام الرازي، وحمل معه ثلاثة وثلاثين فيلاً ثمانية عشر في القلب وخمسة عشر في الجنبين. ثم سار حتى نزل كوثى، فأتى برجل من العرب، فقال له رستم: ما جاء بكم وما تطلبون؟ فقال: نطلب وعد الله بأرضكم وأبنائكم إن لم تسلموا. قال رستم: فإن قتلتم دون ذلك؟ قال: من قُتل دخل الجنة ومن بقي أنجزه الله وعده.

قال رستم: فنحن إذا وضعنا في أيديكم، فقال: أعمالكم وضعتكم وأسلمكم الله بها فلا يغرنك من ترى حولك فلست تحاول الناس إنما تحاول القضاء والقدر. فغضب وأمر به فضربت عنقه. وسار فنزل الفرس وفشا في عسكره المنكر وغصبوا الرعايا أموالهم وأبناءهم حتى نادى رستم منهم بالويل، فقال: صدق والله العربي. وأتى ببعضهم فضرب عنقه. ثم سار حتى نزل الحيرة ودعا أهلها فعزرهم وهم بهم، فقال له ابن بقيلة: لا تجمع علينا أن تعجز عن نصرتنا وتلومنا على الدفع عن أنفسنا. وأرسل سعد السرايا إلى السواد وسمع بهم رستم فبعث لاعتراضهم الفرس، وبلغ ذلك سعداً فأمدهم بعاصم بن عمرو فجاءهم وخيل فارس تحتوشهم، فلما رأوا عاصماً هربوا.

وجاء عاصم بالغنائم. ثم أرسل سعد عمرو بن معديكرب وطليحة الأسدي طليعة فلما ساورا فرسخا وبعضه، لقوا المسالح فرجع عمرو، ومضى طليحة حتى دخل عسكر رستم وبات فيه وهتك أطناب خيمة أو خيمتين واقتاد بعض الخيل وخرج يعدو به فرسه، ونذر به الفرس فركبوا في طلبه إلى أن أصبح وهم في أثره فكر على فارس فقتله ثم آخر ثم آخر وأسر الرابع، وشارف عسكر المسلمين فرجعوا عنه. ودخل طليحة على سعد بالفارسي ولم يخلف بعده فيهم مثلهم بل مثله فأسلم ولزم طليحة.

ثم سار رستم فنزل القادسية بعد ستة أشهر من المدائن، وكان يطاول خوفاً وتقية، والملك يستحثه وكان رأى في منامه كأن ملكاً نزل من السماء ومعه النبي ﷺ وعمر وأخذ الملك سلاح أهل فارس فختمه ثم دفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ودفعه النبي إلى عمر فحزن لذلك أهل فارس في سيره. ولما وصل القادسية وقف على العتيق حيال عسكر المسلمين والناس يتلاحقون حتى اغتموا من كثرتهم، وركب رستم غداة تلك الليلة وصعد مع النهر وصوّب حتى وقف على القنطرة، وأرسل إلى زهرة فوافقه وعرض له بالصلح. وقال: كنتم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونحفظكم ويقرر صنيعهم مع العرب ويقول زهرة: ليس أمرنا من أولئك وإنما طلبنا وهمنا الآخرة وقد كنا كما ذكرت إلى أن بعث الله فينا رسولاً دعانا إلى دين الحق فأجبناه. وقال: قد سلطتكم على من لم يدن به وأنا منتقم بكم منهم وأجعل لكم الغلبة! فقال رستم: وما هو دين الحق. فقال: الشهادتان وإخراج الناس من عبادة الخلق إلى عبادة الله وإنهم إخوان في ذلك. فقال رستم: فإن أجبنا إلى هذا ترجعون؟ فقال: إي والله! فانصرف عنه رستم. ودعا رجال فارس وذكر ذلك لهم فأنفوا، وأرسل إلى سعد أن ابعث لنا رجلاً نكلمه ويكلمنا، فبعث إليه ربعي بن عامر وحبسوه على القنطرة حتى أعلموا رستم، فجلس على سرير من ذهب -وبسط النمارق والوسائد منسوجة بالذهب- وأقبل ربعي على فرسه وسيفه في خرقة- ورمحه مشدودة بعصب- وقدم حتى انتهى إلى البساط ووطئه بفرسه، ثم نزل وربطها بوسادتين شقهما وجعل الحبل فيهما، فلم يحفلوا بذلك وأظهروا التهاون. ثم أخذ عباءة بعيره فاشتملها.

وأشاروا إليه بوضع سلاحه فقال: لو أتيتكم فعلت كذا بأمركم وإنما دعوتموني. ثم أقبل يتوكأ على رمحه ويقارب خطوه حتى أفسد ما مرّ عليه من البسط، ثم دنا من رستم وجلس على الأرض وركز رمحه على البساط وقال: إنا لا نقعد على زينتكم! فقال له الترجمان: ما جاء بكم؟ فقال: الله بعثنا لنخرج عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام وأرسلنا بدينه إلى خلقه فمن قبله قبلنا منه وتركناه وأرضه ومن أبى قاتلناه حتى نفيء إلى الجنة أو الظفر. فقال رستم: هل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟ قال: نعم! كم أحب إليك يوماً أو يومين، قال: لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. فقال: إن مما سن لنا رسول الله ﷺ أن لا نمكن الأعداء أكثر من ثلاث فانظر في أمرك وأمرهم واختر إما الإسلام وندعك وأرضك وإما الجزية فنقبل ونكف عنك وإن احتجت إلينا نصرناك والمنابذة في الرابع أن تبذلوا كفيلاً بهذا عن أصحابي.

قال أسيدهم أنت؟ قال: لا ولكن المسلمون كالجسد الواحد يجير بعضهم عن بعض يجير أدناهم على أعلاهم. فخلا رستم برؤساء قومه وقال: رأيتم كلاماً قط مثل كلام هذا الرجل؟ فأروه الاستخفاف بشأنه وثيابه. فقال: ويحكم إنما انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة والعرب تستخف اللباس وتصون الأحساب.

ثم أرسل إلى سعد أن ابعث إلينا ذلك الرجل، فبعث اليهم حذيفة بن محصن ففعل كما فعل الأول ولم ينزل عن فرسه وتكلم وأجاب مثل الأول، فقال له: ما قعد بالأول عنا؟ فقال: أميرنا يعدل بيننا في الشدة والرخاء وهذه نوبتي. فقال رستم: والمواعدة إلى متى؟ فقال: إلى ثلاث من أمس وانصرف. وخلا رستم بأصحابه يعجبهم من شأن القوم. وبعث في الغد عن آخر فجاءه المغيرة بن شعبة فلما وصل إليهم وهم على زيهم وبسطهم على غلوة من مجلس رستم فجاء المغيرة حتى جلس معه على سريره فأنزلوه، فقال: لا أرى قوماً أسفه منكم إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً فظننتكم كذلك وكان أحسن بكم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض مع أني لم آتكم وإنما دعوتموني فقد علمت أنكم مغلوبون ولم يقم ملك على هذه السيرة. فقالت

السفلة: صدق واللّه العربي، وقالت الأساطين: لقد رمانا بكلام لا تزال عبيدنا ينزعون إليه قاتل اللّه من يصغر أمر هذه الأمة. ثم تكلم رستم فعظم من أمر فارس بل من شأن فارس وسلطانهم وصغر أمر العرب وقال: كانت عيشتكم سيئة وكنتم تقصدوننا في الجدب فنردكم بشيء من التمر والشعير ولم يحملكم على ما صنعتم إلا ما بكم من الجهد ونحن نعطي أميركم كسوة وبغلاً وألف درهم وكل رجل منكم حمل تمر وتنصرفون فلست أشتهي قتلكم.

فتكلم المغيرة وخطب فقال: أما الذي وصفتنا به من سوء الحال والضيق والاختلاف فنعرفه ولا ننكره والدنيا دول والشدة بعدها الرخاء ولو شكرتم ما آتاكم اللّه لكان شكركم قليلاً عما أوتيتم وقد أسلمكم ا لله بضعف الشكر إلى تغير الحال وأن اللّه بعث فينا رسولاً، ثم ذكر مثلما تقدم إلى التخيير بين الإسلام أو الجزية أو القتال، ثم قال: وإن عيالنا ذاقوا طعام بلادكم فقالوا لا صبر لنا عنه. فقال رستم: إذاً تموتون دونها، فقال المغيرة: يدخل من قتل منا الجنة ويظفر من بقي منا بكم. فاستشاط غضباً وحلف أن لا يقع الصلح أبداً حتى أقتلكم أجمعين.

وانصرف المغيرة وخلا رستم بأهل فارس وعرض عليهم مصالحة القوم، وحذرهم عاقبة حربهم، فلجّوا. وبعث إليه سعد يعرض عليه الإسلام ويرغّب، فأجابه بمثل ما كان يقول لأولئك من الامتنان على العرب والتعريض بالمطامع، فلم يتفق شيء من رأيهم. فقال رستم: تعبرون إلينا أم نعبر إليكم؟

فقالوا: بل اعبروا! وأرسل إليهم سعد بذلك وأرادوا القنطرة، فقال سعد: لا ولا كرامة لا نرد عليكم شيئاً غلبناكم عليه فأبى. فباتوا يسكرّون العتيق بالتراب والقصب والبرادع حتى جعلوا جسراً. ثم عبر رستم ونصب له سريره وجلس عليه وضرب طيارة عليه وعبر عسكره، وجعل الفيلة في القلب والمجنبتين عليها الصناديق والرجال والرايات أمثال الحصون، وجعل الجالينوس بينه وبين الميمنة والفيرزان بينه وبين الميسرة.

ورتب يزدجرد الرجال بين المدائن والقادسية وما بينه وبين رستم رجلاً على كل دعوة تنتقل إليه ينبئهم أخبار رستم في أسرع وقت. ثم أخذ المسلمون مصافهم واختط سعد قصره، وكان به عرق النساء وأصابته معه دماميل لا يستطيع معها الجلوس فصعد على سطح القصر راكباً على وسادة في صدره وأشرف على الناس، وعاب ذلك عليه بعض الناس فنزل واعتذر إليهم وأراهم القروح في جسده فعذروه.

واستخلف خالد بن عرفطة على الناس وحبس من شغب عليه في القصر وقيدهم، وكان فيهم أبو محجن الثقفي، وقيل إنما حبسه بسبب الخمر. ثم خطب الناس وحثهم على الجهاد وذكرهم بوعد اللّه، وذلك في المحرم سنة أربع عشرة، وأخبرهم أنه استخلف خالد بن عرفطة. وأرسل جماعة من أهل الرأي لتحريض الناس على القتال مثل المغيرة وحذيفة وعاصم وطليحة وقيس وغالب وعمرو، ومن الشعراء الشماخ والحطيئة والعبدي بل وعبدة بن الطبّب وغيرهم ففعلوا.

ثم أمر بقراءة سورة الجهاد وهي الأنفال فهشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها، فلما فرغت القراءة قال سعد: الزموا مواقفكم فإذا صليتم الظهر فإني مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا. فإذا سمعتم الثانية فكبروا وأتمّوا عدتكم، فإذا سمعتم الثالثة فكبروا ونشّطوا الناس، فإذا سمعتم الرابعة فازحفوا حتى تخالطوا عدوكم وقولوا: لا حول ولا قوة إلا باللّه.

فلما كبر الثالثة برز أهل النجدان فأنشبوا القتال وخرج أمثالهم من الفرس فاعتوروا الطعن والضرب، وارتجزوا الشعر، وأول من أسر في ذلك اليوم هرمز من ملوك اللباب وكان متوجاً أسره غالب بن عبد اللّه الأزدي فدفعه إلى سعد ورجع إلى الحرب. وطلب البراز أسوار منهم فبرز إليه عمرو بن معديكرب فأخذه وجلد به الأرض فذبحه وسلب سواريه ومنطقته. ثم حملوا الفيلة على المسلمين وأمالوها على بجيلة فثقلت عليهم، فأرسل سعد إلى بني أسد أن يدافعوا عنهم، فجاءه طليحة بن خويلد وحمل ابن مالك فردوا الفيلة، وخرج على طليحة عظيم منهم فقتله طليحة.

وعبر الأشعث بن قيس كندة بما يفعله بنو أسد فاستشاطوا ونهدوا معه فأزالوا الذين بإزائهم. وحين رأى الفرس ما لقي الناس والفيلة من بني أسد حملوا عليهم جميعاً وفيهم ذو الحاجب والجالينوس.

وكبر سعد الرابعة فزحف المسلمون وثبت بنو أسد، ودارت رحى الحرب عليهم وحملت الفيول على الميمنة والميسرة ونفرت خيول المسلمين منها فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو هل من حيلة لهذه الفيلة؟ فبعث الرماة يرشقونها بالنبل واشتد بردّها آخرون يقطعون الوضن.

وخرج عاصم بجميعهم ورحى الحرب على أسد، واشتد عواء الفيلة ووقعت الصناديق فهلك أصحابها، ونفس عن أسد أن أصيب منهم خمسمئة وردوا فارس إلى مواقفهم. ثم اقتتلوا إلى هدء

من الليل وكان هذا اليوم الأول وهو يوم الرماة. ولما أصبح سعد دفن القتلى وأسلم الجرحى إلى نساء يقمن عليهم، وإذا بنواحي الخيل طالعة من الشام، كان عمر بعد فتح دمشق عزل خالد بن الوليد عن جند العراق وأمر أبا عبيدة أن يؤمّر عليهم هاشم بن عتبة يردهم إلى العراق، فخرج بهم هاشم وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو، فقدم القعقاع على الناس صبيحة ذلك اليوم وهو يوم أغواث، وقد عهد إلى أصحابه أن يقطعوا أعشاراً بين كل عشرين مد البصر وكانوا ألفاً، فسلم على الناس وبشرهم بالجنود وحرضهم على القتال.

وطلب البراز فخرج إليه ذو الحاجب فعرفه القعقاع ونادى بالثأر لأصحاب الجسر، وتضاربا فقتله القعقاع وسر الناس بقتله، ووهنت الأعاجم لذلك. ثم طلب البراز فخرج إليه الفيرزان والبندوان. وأكثر المسلمون القتل في الفرس وأخذوا الفيلة عن القتال لأن نوابتها تكسرت بالأمس، فاستأنفوا عملها، وجلل القعقاع إبلاً وجعل عليها البراقع وأركبها عشرة عشرة، وأطاف عليها الخيول تحميها، وحملها على خيل الفرس فنفرت منها وركبتهم خيول المسلمين، ولقي الفرس من الإبل أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة. وبرز القعقاع يومئذ في ثلاثين فارساً في ثلاثين حملة فقتلهم، كان آخرهم بزرجمهر الهمداني، وبارز الأعور بن قطنة شهريار سجستان فقتل كل واحد منهما صاحبه.

ولما انتصف النهار تزاحف الناس فاقتتلوا إلى انتصاف الليل وقتلوا عامة أعلام فارس ثم أصبحوا في اليوم الثالث على مواقفهم بين الصفين ومن المسلمين ألف جريح وقتيل ومن المشركين عشرة آلاف، فدفن المسلمون موتاهم وأسلموا الجرحى إلى النساء ووكلوا النساء والصبيان بحفر القبور، وبقي قتلى المشركين بين الصفين. وبات القعقاع يسرب أصحابه إلى حيث فارقهم بالأمس، وأوصاهم إذا طلعت الشمس أن يقبلوا مئة مئة يجدد بذلك الناس، وجاء بينهما يلحق هاشم بن عتبة.

فلما ذرّ قرن الشمس أقبل أصحاب القعقاع فتقدموا والمسلمون يكبّرون، فتزاحفت الكتائب طعناً وهرباً، وما جاء آخر أصحاب القعقاع حتى لحق هاشم فعبى أصحابه سبعين سبعين وكان فيهم قيس بن المكشوح فلما خالط القلب كبر وكبر المسلمون ثم كبر فخرق الصفوف إلى العتيق، ثم عاد وقد أصبح الفرس على مواقفهم وأعادوا الصناديق على الفيلة وأحدقوا الرجال بها يحمونها أن تقطع وضنها، وأقام الفرسان يحمون الرجالة فلم تنفر خيل المسلمين منها. وكان هذا اليوم يوم عماس وكان شديداً، إلا أن الطائفتين فيه سواء وأبلى فيه قيس بن المكشوح وعمرو بن معديكرب، ثم زحفت الفيلة وفرقت بين الكتائب. وأرسل سعد إلى القعقاع وعاصم أن أكفياني الأبيض وكان بإزائهما، وإلى محمل والدميل أن أكفياني الأجرب وكان بإزائهما.

فحملوا على الفيلين فقتل الأبيض ومن كان عليه وقطع مشفر الأجرب وفقئت عينه وضرب سائسه الدميل بالطير زين فأفلت جريحاً، وتحير الأجرب بن الصغين وألقى نفسه في العتيق واتبعته الفيلة وفرقت صفوف الأعاجم في أثره، وقصدت المدائن بوثوبها وهلك جميع من فيها. وخلص المسلمون والفرس فاختلفوا على سواء إلى المساء واقتتلوا بقية ليلتهم وتسمى ليلة الهرير. فأرسل سعد طليحة وعمر إلى مخاضة أسفل العسكر يقومون عليها خشية أن يؤتى المسلمون منها، فتشاوروا أن يأتوا الأعاجم من خلفهم، فجاء طليحة وراء العسكر وكبر فارتاع أهل فارس، فأغار عمر أسفل المخاضة ورجع وزاحفهم الناس دون إذن سعد وأول من زاحفهم من الناس دون إذن سعد زاحفهم القعقاع وقومه فحمل عليهم، ثم حمل بنو أسد ثم النخع ثم بجلية ثم كندة، وسعد يقول في كل واحدة اللّهم اغفر لهم وانصرهم. وقد كان قال لهم إذا كبرت ثلاثاً فاحملوا، فلما كبر الثالثة لحق الناس بعضهم بعضاً بعد صلاة العشاء واختلطوا وصليل الحديد كصوت القرن إلى الصباح.

وركدت الحرب وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد ورستم وأقبل سعد على الدعاء، وسمع نصف الليل صوت القعقاع في جماعة من الرؤساء إلى رستم حتى خالطوا صفه مع الصبح فحمل الناس من كل جهة على من يليهم واقتتلوا إلى قائم الظهيرة، فناجز الفيرزان والهرمزان بعض الشيء وانفرج القلب، وهبت ريح عاصف فقلبت طيارة رستم عن سريره فهوت في العتيق، وانتهى القعقاع ومن معه إلى السرير وقد قام رستم عنه فاستظل في ظل بغل فحمله، وضرب هلال بن علقمة الحمل فوقع أحد العدلين على رستم فكسر ظهره، وضربه هلال ضربة نفحت مسكاً وضرب نحو العتيق ورمى بنفسه فيه فاقتحم هلال عليه وجره برجله فقتله، وصعد السرير وقال: قتلت رستم ورب الكعبة إلي إلي! فأطافوا به وكبّروا.

وقيل: إن هلالاً لما قصد رستم رماه بسهم، فأثبت قدمه بالركاب ثم حمل عليه، فقتله واحتز رأسه ونادى في الناس قتلت رستم!

فانهزم قلب المشركين وقام الجالينوس على الردم ونادى الفرس إلى العبور، وتهافت المقترنون بالسلاسل في العتيق وكانوا

ثلاثين ألفاً هلكوا، وأخذ ضرار بن الخطاب راية الفرس العظيمة وهي درفش كابيان فعوض منها ثلاثين ألفاً وكانت قيمتها ألف ألف ومائة ألف، وقتل ذلك اليوم من الأعاجم عشرة آلاف في المعركة، وقتل من المشركين في ذلك اليوم ستة آلاف دفنوا في الخندق حيال مسرق سوى ألفين وخمسمائة قتلوا ليلة الهرير، وجمع من الأسلاب والأموال ما لم يجمع قبله ولا بعده مثله. ونفل سعد هلال بن علقمة سلب رستم، وأمر القعقاع وشرحبيل باتباع العدو وقد كان خرج زهرة بن حيوة قبلها في آثاره، فلحق الجالينوس بجمع المنهزمين فقتله وأخذ سلبه، فتوقف سعد من عطائه، وكتب إلى عمر، فكتب إليه: تعمد إلى مثل زهرة وقد صلى بمثل ما صلى به وقد بقي عليك من حربك ما بقي نفسد قلبه، امض له سلبه وفضله على أصحابه في العطاء بخمس مئة. ولحق سليمان بن ربيعة الباهلي وأخوه عبد الرحمن بطائفة من الفرس قد استماتوا فقتلوهم، واستمات بعد الهزيمة بضعة وثلاثون رئيساً من المسلمين فقتلوهم أجمعين.

وكان ممن هرب من أمراء الفرس الهرمزان والفرزاد بن بيهس وقارن، وممن استمات فقتل شهريار بن كبار وأسر المدمرون والفردان الأهوازي وخشرشوم الهمداني. وكتب سعد إلى عمر بالفتح وبمن أصيب من المسلمين، وكان عمر يسأل الركبان حين يصبح إلى انتصاف النهار ثم يرجع إلى أهله.

فلما لقي البشير قال: من أين؟ فأخبره فقال: حدثني فقال: هزم الله المشركين. ففرح بذلك. وأقام المسلمون بالقادسية ينتظرون كتاب عمر إلى أن وصلهم بالإقامة. وكانت وقعة القادسية سنة أربع عشرة وقيل: خمس عشرة وقيل ست عشرة.

فتح المدائن وجلولاء بعدها

ولما انهزم أهل فارس بالقادسية انتهوا إلى بابل وهديل وفيهم بقايا الرؤساء النخيزجان ومهران الأهوازي والهرموان وأشباههم واستعملوا عليهم الفيرزان. وأقام سعد بعد الفتح شهرين وسار بأمر عمر إلى المدائن وخلف العيال بالعتيق في جند كثيف حامية لهم، وقدم بين يديه زهرة بن حياة وشرحبيل بن الصمت وعبد الله بن المعتمر، ولقيهم بعض عساكر الفرس فهزموهم حتى لحقوا ببابل. ثم جاء سعد وسار في التعبية ونزلوا على الفيرزان ومن معه ببابل، فخرجوا وقاتلوا المسلمين، فانهزموا وافترقوا فرقتين ولحق الهرمزان بالأهواز والفيرزان بنهاوند وبها كنوز كسرى.

وسار النخيزجان ومهران إلى المدائن فتحصنوا وقطعوا الجسر. ثم سار سعد من بابل على التعبية وزهرة في المقدمة، وقدم بين يديه بكير بن عبد الله الليثي وكثير بن شهاب السبيعي حتى عبرا ولحقا بأخريات القوم، فقتلا في طريقهما أسوارين من أساورتهم، ثم تقدموا إلى كوثي وعليها شهريار فخرج لقتالهم فقتل وانهزم أصحابه فافترقوا في البلاد. وجاء سعد فنفل قاتله سلبه.

وتقدم زهرة إلى ساباط فصالحه أهلها على الجزية وهزم كتيبة كسرى، ثم نزلوا جميعاً على بهرشير من المدائن، ولما عاينوا الإيوان كبّروا وقالوا: هذا أبيض كسرى هذا ما وعد الله. وكان نزولهم عليها ذا الحجة سنة خمس عشرة فحاصروها ثلاثة أشهر ثم اقتحموها، وكانت خيولهم تغير على النواحي وعهد إليهم عمر أن من أجاب من الفلاحين ولم يعن عليهم فذلك أمانه، ومن هرب فأدرك فشأنكم به. ودخل الدهاقين من غربي دجلة وأهل السواد كلهم في أمان المسلمين واغتبطوا بملكهم، واشتد الحصار على بهرشير ونصبوا عليها المجانيق واستلحموهم في المواطن، وخرج بعض المرازبة يطلب البراز، فقاتله زهرة بن حيوة فقتلا معاً، ويقال: إن زهرة قتله شبيب الخارجي أيام الحجاج. ولما ضاق بهم الحصار وركب إليهم الناس بعض الأيام فلم يروا على الأسوار أحداً إلا رجلاً يشير إليهم فقال: ما بقي بالمدينة أحد وقد صاروا إلى المدينة القصوى التي فيها الإيوان، فدخل سعد والمسلمون وأرادوا العبور إليهم فوجدوهم جمعوا المعابر عندهم، فأقام أياماً من صبر ودله بعض العلوج على مخاضة في دجلة فتردد، فقال له أقدم فلا تأتي عليك ثلاثة إلا ويزدجرد قد ذهب بكل شيء فيها. فعزم سعد على العبور وخطب الناس وندبهم إلى العبور ورغبهم، وندب من يجيز أن لا يجيء الفراض حتى يجيز إليه الناس، فانتدب عاصم بن عمرو في ستمائة واقتحموا دجلة فلقيهم أمثالهم من الفرس عند الفراض وشدوا عليهم فانهزموا وقتل أكثرهم وعوروا من الطعن في العيون، وعاينهم المسلمون على الفراض، فاقتحموا في أثرهم يصيحون: نستعين بالله ونتوكل عليه حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول وقوة إلا بالله العلي العظيم.

وساروا في دجلة وقد طبقوا ما بين عدوتيها وخيلهم سابحة بهم وهم يهيمنون تارة ويتحادثون أخرى حتى أجازوا البحر ولم يفقدوا شيئاً، إلا قدحاً لبعضهم غلبت صاحبه جرية الماء وألقته الريح إلى الشاطئ.

ورأى الفرس عساكر المسلمين قد أجازوا البحر فخرجوا هاربين إلى حلوان، وكان يزدجرد قدم إليها قبل ذلك عياله، ورفعوا ما قدروا عليه من عرض المتاع وخفيفه ومن بيت المال

والنساء والذراري، وتركوا بالمدائن من الثياب والأمتعة والآنية والألطاف ما لا تحصى قيمته، وكان في بيت المال ثلاثة آلاف ألف ألف ألف مكررة ثلاث مرات تكون جملتها ثلاثمائة ألف قنطار من الدنانير، وكان رستم عند مسيره إلى القادسية حمل نصفها لنفقات العساكر وأبقى النصف. واقتحمت العساكر المدينة يجولون في سككها لا يلقون بها أحداً، وأرز سائر الناس القصر الأبيض حتى توثقوا لأنفسهم على الجزية.

ونزل سعد القصر الأبيض واتخذ الإيوان به مصلى ولم يغير ما فيه من التماثيل، ولما دخله قرأ ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ الآية، وصلى فيه صلاة الفتح ثماني ركعات لا يفصل بينهن وأتم الصلاة بنية الإقامة. وسرح زهرة بن حيوة في آثار الأعاجم إلى النهروان وقراها من كل جهة، وجعل على الأخماس عمرو بن عمرو بن مقرن، وعلى القسم سلمان بن ربيعة الباهلي وجمع ما كان في القصر والإيوان والدور وما نهبه أهل المدائن عند الهزيمة، ووجدوا حلية كسرى: ثيابه وخرزاته وتاجه ودرعه التي كان يجلس فيها للمباهاة أخذ ذلك من أيدي الهاربين على بغلين، وأخذ منهم أيضاً وقر بغل من السيوف وآخر من الدروع والمغافر منسوبة كلها درع هرقل وخاقان ملك الترك وداهر ملك الهند وبهرام جور وسياوخش والنعمان بن المنذر وسيف كسرى وهرمز وقباذ وفيروز وهرقل وخاقان وداهر وبهرام وسياوخش والنعمان أحضرها القعقاع.

وخيّره في الأسياف، فاختار سيف هرقل وأعطاه درع بهرام، وبعث إلى عمر سيف كسرى والنعمان وتاج كسرى وحليته وثيابه ليراها الناس. وقسم سعد الفيء بين المسلمين بعدما خمّسه، وكانوا ستين ألفاً فأصاب للفارس اثنا عشر ألفاً وكلهم كان فارساً ليس فيهم راجل، ونفل من الأخماس في أهل البلاد، وقسم المنازل بين الناس، واستدعى العيلات من العتيق فأنزلهم الدور ولم يزالوا بالمدائن حتى تم فتح جلولاء وحلوان وتكريت والموصل، واختطت الكوفة فتحولوا إليها، وأرسل سعد في الخمس كل شيء يعجب العرب منهم أن يصنع إليهم، وحضر إليهم نهار كسرى وهو الغطف وهو بساط طوله ستون ذراعاً في مثلها مقدار مزرعة جريب في أرضه وهي منسوجة بالذهب طرقاً كالأنهار وتماثيل خلالها بصدف الدر والياقوت وفي حافاتها كالأرض المزدرعة والمقبلة بالنبات ورقها من الحرير على قضبان الذهب وزهره حبات الذهب والفضة وثمره الجوهر، كانت الأكاسرة يبسطونه في الإيوان في فصل الشتاء عند فقدان الرياحين يشربون عليه، فلما قدمت الأخماس على عمر قسمها في الناس، ثم قال: أشيروا علي في هذا الغطف، فاختلفوا وأشاروا على نفسه، فقطعه بينهم، فأصاب عليّ قطعة منه باعها بعشرين ألفاً ولم تكن بأجودها.

وولّى عمر سعد بن أبي وقاص على الصلاة والحرب فيما غلب عليه، وولى حذيفة بن اليمان على سقي الفرات، وعثمان بن حنيف على سقي دجلة، ولما انتهى الفرس بالهرب إلى جلولاء، وافترقت الطرق من هنالك بأهل أذربيجان والباب وأهل الجبال وفارس، وقضوا هنالك خشية الافتراق واجتمعوا على مهران الرازي وخندقوا على أنفسهم وأحاطوا الخندق بجسره الحديد، وتقدم يزدجرد إلى حلوان. وبلغ ذلك سعداً فكاتب عمر بذلك يأمره أن يسرح إلى الفرس بجولاء هاشماً ابن أخيه عتبة في اثني عشر ألفاً وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو، وأن يولي القعقاع بعد الفتح ما بين السواد والجبل. فسار هاشم من المدائن لذلك في وجوه المسلمين وأعلام العرب حتى قدم جلولاء فأحاط بهم وحاصرهم في خنادقهم، وزاحفوهم ثمانين يوماً ينصرون عليهم في كلها والمدد متصل من هاهنا وهاهنا ثم قاتلوهم آخر الأيام فقتلوا منهم أكثر من ليلة الهرير، وأرسل الله عليهم ريحاً وظلمة فسقط فرسانهم في الخندق وجعلوه طرقاً مما يليهم ففسد حصنهم، وشعر المسلمون بذلك فجاءه القعقاع إلى الخندق فوقف على بابه.

وشاع في الناس أنه أخذ في الخندق، فحمل الناس حملة واحدة انهزم المشركون لها وافترقوا، ومروا بالجسرة التي تحصنوا بها فعقرت دوابهم فترجلوا ولم يفلت منهم إلا القليل، يقال: إنه قتل منهم يومئذ مائة ألف. واتبعهم القعقاع بالطلب إلى خانقين، وأجفل يزدجرد من حلوان إلى الري واستخلف عليها خشرشوم، وجاء القعقاع إلى حلوان فبرز إليه خشرشوم وعلى مقدمته الرمي، فقتله القعقاع وهرب خشرشوم من ورائه، وملك القعقاع حلوان وكتب إلى عمر بالفتح واستأذنه في اتباعهم، فأبى وقال: وددت أن بين السواد والجبل سداً حصيناً من ريف السواد فقد آثرت سلامة المسلمين على الأنفال. وأحصيت الغنيمة فكانت ثلاثين ألف ألف، فقسمها سلمان بن ربيعة، يقال: إنه أصاب الفارس تسعة آلاف وتسعة من الدواب. وبعثوا بالأخماس إلى عمر مع زياد ابن أبيه. فلما قدم الخمس قال عمر: والله لا يجنّه سقف حتى أقسمه، فجعله في المسجد وبات عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الأرقم يحرسانه، ولما أصبح جاء في الناس ونظر إلى ياقوتة وجوهرة فبكى، فقال عبد الرحمن بن عوف: ما يبكيك يا أمير المؤمنين وهذا موطن شكر؟ قال: والله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا فيلقي الله بأسهم بينهم. ومنع عمر من قسمة السواد ما بين حلوان والقادسية فأقره حبساً، واشترى جرير بعضه بشاطئ

الفرات فرد عمر الشراء.

ولما رجع هاشم من جلولاء إلى المدائن بلغهم أن أديـن بـن الهرامون جمع جمعاً وجاء بهـم إلى السـهل، فبعـث إليـه ضـرار بـن الخطاب في جيش فلقيهـم بماسبذان فهزمهـم وأسـر أديـن فقتلـه، وانتهى في طلبه إلى النهروان وفتح ماسبذان عنوة ورد إليهـا أهلهـا ونزل بها فكانت أحد فروج الكوفة، وقيل كان فتحها بعد نهـاوند والله سبحانه أعلم.

ولاية عتبة بن غزوان على البصرة

كان عمر عندما بعث المثنى إلى الحيرة بعـث قتبـة بـن قتـادة السلوسي إلى البصرة فكان يغير بتلـك الناحيـة، ثـم اسـتمد عمـر فبعث إليه شريح بن عـامر بـن سـعد بـن بكـر فـأقبل إلى البصـرة ومضى إلى الأهواز، ولقيه مسلحة الأعـاجم فقتلـوه. فبعـث عمـر عتبة بن غزوان والياً علـى تلـك الناحيـة، وكتـب إلى العـلاء بـن الحضرمي أن يمده بعرفجة بن هرثمة وأمـره أن يقيـم بـالتخم بـين أرض العـرب وأرض العجـم، فـانتهى إلى حيـال الجسـر وبلـغ صاحب الفرات خبرهم فأقبل في أربعـة آلاف وعتبـة في خمسـمائة والتقوا فقتلوا الأعاجم أجمعين وأسروا صاحب الفرات.

ثم نزل البصرة في ربيع سنة أربع عشـرة، وقيـل إن البصـرة بصرت سنة ست عشرة بعد جلولاء وتكريت. أرسل سـعد إليهـا عتبة فأقام بها شهراً وخرج إليه أهل الأبلة، وكـانت مرفـأ للسـفن من الصين، فهزمهم عتبة وأحجرهم في المدينة ورجع إلى عسـكره، ورعب الفرس فخرجوا عن الأبلة وحملوا ما خـف وخلـوا المدينـة وعبروا النهر، ودخلها المسلمون فغنمـوا مـا فيهـا واقتسـموه. ثـم اختط البصرة وبدأ بالمسجد فبناه بالقصب. وجمع لـه أهـل دسـت ميان فلقيهم عتبة فهزم وأخذ مرزبانها أسيراً، وأخذ قتـادة منطقتـه فبعث بها إلى عمر، وسأل عنهم فقيل له: انثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة. فرغب الناس في البصرة وأتوها.

ثم سار عتبة إلى عمر بعد أن بعـث مجاشـع بـن مسـعود في جيش إلى الفرات، واستخلف المغيرة بـن شـعبة علـى الصـلاة إلى قدوم مجاشع، وجاء ألف بيكان مـن عظمـاء الفـرس إلى المسـلمين ولقيهم المغيرة بن شعبة بالمرغاب وبينما هم في القتال إذ لحق بهـم النساء وقد اتخذن خمرهن رايات، فانهزم الأعاجم وكتبوا بالفتح إلى عمر، فرد عتبة إلى عمله فمات في طريقـه، وقيـل: إن إمـارة عتبـة كانت سنة خمس عشـرة وقيـل: سـت عشـرة فوليهـا سـتة أشـهر، واستعمل عمر بعده المغيرة بن شعبة سنتين فلما رمي بما رمـي بـه عزله، واستعمل أبا موسى. وقيـل: اسـتعمل بعـد عتبـة أبـا سـبرة وبعده المغيرة.

وقعة مرج الروم وفتوح مدائن الشام بعدها

لما انهزم الـروم بفحـل سـار أبـو عبيـدة وخـالد إلى حمـص واجتمعوا بذي الكلاع في طريقهـم وبعـث هرقـل تـوذر البطريـق للقائهم فنزلوا جميعاً بمرج الروم، وكـان تـوذر بـإزاء خـالد وشمـر بطريق آخر بإزاء أبي عبيدة وأمسوا مستترين. ثم أصبح فلم يجدوا توذر وسار إلى دمشق واتبعـه خـالد، واسـتقبله يزيـد مـن دمشـق فقاتله، وجاءه خالد من خلفه فلم يفلت منهم إلا القليـل وغنمـوا ما معهم. وقاتل شمر أبو عبيدة بعـد مسـيرة خـالد فـانهزم الـروم وقتلوا واتبعهم أبو عبيدة إلى حمص ومعه خالد، فبلغ ذلـك هرقـل فبعث بطريق حمص إليها وسار هو في الرهـا، فحـاصر أبـو عبيـدة حمص حتى طلبوا الأمان فصالحهم.

وكان هرقل يعدهم في حصارهم المدد، وأمـر أهـل الجزيـرة بإمدادهم فساروا لذلك. وبعث سعد بن أبي وقاص العساكر مـن العراق فحاصروا هيت وقرقيسيا فرجع أهل الجزيـرة إلى بلادهـم. ويئس أهل حمص من المـدد فصـالحوا علـى صلـح أهـل دمشـق، وأنزل أبو عبيدة فيها السمط بن الأسود في بني معاويـة مـن كنـدة والأشعث بن قيس في السكون والمقداد في بلي وغيرهم، وولى عليهم أبو عبيدة بن الصامت وسار إلى حماة فصالحوه على الجزيـة عن رؤوسهم والخراج عن أرضهم، ثم سار نحـو شيزر فصـالحوا كذلك، ثم إلى المعرة كذلك ويقال: معرة النعمان وهو النعمان بـن بشير الأنصاري.

ثم سار إلى اللاذقية ففتحها عنوة ثم سلمية، ثم أرسـل أبـو عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين فاعترضـه ميناس عظيم الـروم بعد هرقـل فهزمهـم خـالد وأثخـن فيهـم، ونـازل قنسـرين حتـى افتتحهـا عنـوة وخربهـا. وأدرب إلى هرقـل مـن ناحيتـه، وأدرب عياض بن غنم كذلـك، وأدرب عمـر بـن مـالك مـن الكوفـة إلى قرقيسيا، وأدرب عبد الله بن المعتمر من الموصـل، فـارتحل هرقـل إلى القسطنطينية من أمدها، وأخذ أهل الحصـون بـين الإسـكندرية وطرسوس وشعبها أن ينتفع المسـلمون بعمارتهـا. ولـما بلـغ عمـر صنيع خالد قال: أمّر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كـان أعلـم مني بالرجال. وقد كان عزل خـالداً والمثنى بـن حارثـة خشـية أن يداخلهما كبر من تعظيم فوكلوا إليه، ثم رجع عن رأيـه في المثنى عند قيامه بعد أبي عبيد، وفي خالد بعد قنسـرين فرجـع خـالد إلى

إمارته.

ولما فرغ أبو عبيدة من قنسرين سار إلى حلب وبلغه أن أهل قنسرين غدروا فبعث إليهم السمط الكندي فحاصرهم وفتح وغنم، ووصل أبو عبيدة إلى حاضر حلب وهو موضع قريب منها يجمع أصنافاً من العرب، فصالحوا على الجزية ثم أسلموا بعد ذلك.

ثم أتى حلب وكان على مقدمته عياض بن غنم الفهري فحاصرهم حتى صالحوه على الأمان، وأجاز ذلك أبو عبيدة، وقيل صولحوا على مقاسمة الدور والكنائس، وقيل انتقلوا إلى أنطاكية حتى صالحوا ورجعوا إلى حلب. ثم سار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكية وبها جمع كبير من فل قنسرين وغيرهم ولقوه قريباً منها فهزمهم وأحجرهم بالمدينة وحاصرهم حتى صالحوه على الجلاء أو الجزية ورحل عنهم، ثم نقضوا فبعث أبو عبيدة إليهم عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة ففتحاها على الصلح الأول وكانت عظيمة الذكر، فكتب عمر إلى أبي عبيدة أن يرتب فيها حامية مرابطة ولا يؤخر عنهم العطاء.

ثم بلغ أبا عبيدة أن جمعاً بالروم بين معرة مصرين وحلب فسار إليهم فهزمهم وقتل بطارقتهم، وأمعن بل وأثخن فيهم، وفتح معرة مصرين على صلح حلب. وجالت خيوله فبلغت سرمين وتيرى وغلبوا على جميع أرض قنسرين وأنطاكية، ثم فتح حلب ثانية. وسار يريد قورس، وعلى مقدمته عياض، فصالحوه على صلح أنطاكية. وبث حيله ففتح تل نزار وما يليه، ثم فتح منبج على يد سلمان بن ربيعة الباهلي، ثم بعث عياضاً إلى دلوك وعينتاب فصالحهم على مثل منبج واشترط عليهم أن يكونوا عوناً للمسلمين. وولّى أبو عبيدة على كل ما فتح من الكور عاملا وضم إليه جماعة وشحن الثغور المخوفة بالحامية. واستولى المسلمون على الشام من هذه الناحية إلى الفرات.

وعاد أبو عبيدة إلى فلسطين. بعث أبو عبيدة جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسي، فسلكوا درب تفليس إلى بلاد الروم فلقي جمعاً للروم ومعهم عرب من غسان وتنوخ وإياد يريدون اللحاق بهرقل فأوقع بهم وأثخن فيهم، ولحق به على أنطاكية مالك بن الأشتر النخعي مدداً فرجعوا جميعاً إلى أبي عبيدة. وبعث أبو عبيدة جيشاً آخر إلى مرعش مع خالد بن الوليد ففتحها على إجلاء أهلها بالأمان وخربها، وبعث جيشاً آخر مع حبيب بن مسلمة إلى حصن الحرث كذلك.

وفي خلل ذلك فتحت قيسارية، وبعث إليها يزيد بن أبي سفيان أخاه معاوية بأمر عمر فسار إليها وحاصرهم بعد أن هزمهم، وبلغت قتلاهم في الهزائم ثمانين ألفاً وفتحها آخراً وكان علقمة بن مجزز على غزة وفيها القبغار من بطاركة الروم.

وقعة أجنادين وفتح بيسان والأردن وبيت المقدس

لما انصرف أبو عبيدة وخالد إلى حمص بعد واقعة مرج الروم نزل عمرو وشرحبيل على أهل بيسان فافتتحها وصالح أهل الأردن، واجتمع عسكر الروم بأجنادين وغزة وبيسان وعليهم أرطبون من بطارقة الروم، فسار عمرو وشرحبيل إليهم واستخلف على الأردن أبا الأعور السلمي. وكان الأرطبون قد أنزل بالرملة جنداً عظيماً من الروم وبيت المقدس كذلك، وبعث عمرو علقمة بن حكيم الفراسي ومسروق بن العكي لقتال أهل بيت المقدس، وبعث أبا أيوب المالكي إلى قتال أهل الرملة، وكان معاوية محاصراً لأهل قيسارية فشغل جميعهم عنه، ثم زحف عمرو إلى الأرطبون واقتتلوا كيوم اليرموك أو أشد.

وانهزم أرطبون إلى بيت المقدس وأفرج له المسلمون الذين كانوا يحاصرونها حتى دخل. ورجعوا إلى عمرو وقد نزل أجنادين. وقد تقدم لنا ذكر هذه الواقعة قبل اليرموك على رأي من جعلها قبلها وهذا على قول من جعلها بعدها. ولما دخل أرطبون بيت المقدس فتح عمرو غزة، وقيل: كان فتحها في خلافة أبي بكر، ثم فتح سبسطية وفيها قبر يحيى بن زكريا، وفتح نابلس على الجزية ثم فتح مدينة لد، ثم عمواس وبيت حبرين ويافا ورفح وسائر مدائن الأردن. وبعث إلى الأرطبون فطلب أن يصالح كأهل الشام ويتولى العقد عمر وكتبوا إليه بذلك.

فسار عن المدينة واستخلف عليها علي بن أبي طالب بعد أن عذله في مسيره فأبى، وقد كان واعد أمراء الأجناد هنالك فلقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير فنزل ورماهم بالحجارة، وقال: أتستقبلوني في هذا الزي؟ وإنما شبعتم منذ سنتين والله لو كان على رأس الماتتين لاستبدلت بكم قالوا: إنها بلا ثمن. وإن علينا السلاح، فسكت ودخل الجابية.

وجاءه أهل بيت المقدس وضم عمراً وشرحبيل إليه وقد هرب أرطبون عنهم إلى مصر، فصالحوه على الجزية وفتحوها له وكذلك أهل الرملة.

وولّى علقمة بن حكيم على نصف فلسطين وأسكنه

الرملة، وعلقمة بن مجزر على النصف الآخر وأسكنه بيت المقدس، وضم عمراً وشرحبيل إليه فلقياه بالجابية. وركب عمر إلى بيت المقدس فدخلها وكشف عن الصخرة وأمر ببناء المسجد عليها وذلك سنة خمس عشرة وقيل: سنة ست عشرة. ولحق أرطبون بمصر مع من أبى الصلح من الروم حتى هلك في فتح مصر، وقيل: إنما لحق بالروم وهلك في بعض الصوائف. ثم فرق عمر العطاء ودوّن الدوادين سنة خمس عشرة ورتب ذلك على السابقة.

ولما أعطى صفوان بن أمية والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو أقل من غيرهم قالوا: لا والله لا يكون أحد أكرم منا فقال: إنما أعطيت على سابقة الإسلام لا على الأحساب. فقالوا: فنعم إذن. وخرجوا إلى الشام فلم يزالوا مجاهدين حتى أصيبوا.

ولما وضع عمر الدواوين قال له علي وعبد الرحمن: ابدأ بنفسك، قال: لا! بعمّ رسول الله ﷺ ثم الأقرب فالأقرب، ورتب ذلك على مراتب ففرض خمسة آلاف ثم أربعة ثم ثلاثة ثم ألفين وخمسمائة ثم ألفين ثم ألفاً واحداً ثم خمسمائة ثم ثلاثمائة ثم مائتين وخمسين ثم مائتين، وأعطى نساء النبي ﷺ عشرة آلاف لكل واحدة وفضل عائشة بألفين، وجعل النساء على مراتب فلأهل بدر خمسمائة ثم أربعمائة ثم ثلاثمائة ثم مائتين، والصبيان مائة مائة والمساكين جرايتين في الشهر، ولم يترك في بيت المال شيئاً. وسئل في ذلك فأبى وقال: هي فتنة لمن بعدي.

وسأل الصحابة في قوته من بيت المال، فأذنوا له فيه وسألوه في الزيادة على لسان حفصة ابنته متكتمين عنه، فغضب وامتنع، وسألها عن حال رسول الله ﷺ في عيشه وملبسه وفراشه فأخبرته بالكفاف من ذلك، فقال: والله لأضعنّ الفضول موضعها ولأتبلغن بالترجية وإنما مثلي ومثل صاحبيّ كثلاثة سلكوا طريقاً وتزود الأول فبلغ المنزل واتبعه الآخر مقتدياً به كذلك ثم جاءه الثالث بعدهما فإن اقتفى طريقهما وزادهما لحق بهما وإلا لم يبلغهما.

وفتحت في جمادى من هذه السنة تكريت لأن أهل الجزيرة كانوا قد اجتمعوا إلى المرزبان الذي كان بها وهم من الروم وإياد وتغلب والنمر ومعهم المشهارجة ليحموا أرض الجزيرة من ورائهم، فسرح إليهم سعد بن أبي وقاص بأمر عمر، كاتبه عبد الرحمن بن المعتمر وعلى مقدمته ربعي بن الأفكل وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة، فحاصروهم أربعين يوماً ودخلوا العرب الذين معهم فكانوا يطلعونهم على أحوال الروم، ثم يئس الروم من أمرهم واعتزموا على ركوب السفن في دجلة للنجاة، فبعث العرب بذلك إلى المسلمين وسألوهم الأمان، فأجابوهم على أن يسلموا فأسلموا وواعدوهم الثبات والتكبير وأن يأخذوا على الروم أبواب البحر مما يلي دجلة ففعلوا. ولما سمع الروم التكبير من جهة البحر ظنوا أن المسلمين استداروا من هنالك فخرجوا إلى الناحية التي فيها المسلمون فأخذتهم السيوف من الجهتين، ولم يفلت إلا من أسلم من قبائل ربيعة من تغلب والنمر وإياد. وقسمت الغنائم فكان للفارس ثلاثة آلاف درهم وللراجل ألف. ويقال: إن عبد الله بن المعتمر بعث ربعي بن الأفكل بعهد عمر إلى الموصل ونينوى وهما حصنان على دجلة من شرقيها وغربيها، فسار في تغلب وإياد والنمر وسقوه إلى الحضين فأجابوا إلى الصلح وصاروا ذمة. وقيل بل الذي فتح الموصل عتبة بن فرقد سنة عشرين وأنه ملك نينوى وهو الشرقي عنوة.

وصالحه أهل الموصل وهو الغربي على الجزية وفتح معها جبل الأكراد وجميع أعمال الموصل وقيل إنما بعث عتبة بن فرقد عياض بن غنم عندما فتح الجزيرة على ما نذكره والله أعلم.

مسير هرقل إلى حمص وفتح الجزيرة وأرمينية

كان أهل الجزيرة قد راسلوا هرقل وأغروه بالشام وأن يبعث الجنود إلى حمص وواعدوه المدد، وبعثوا الجنود إلى أهل هيت مما يلي العراق، فأرسل سعد عمر بن مالك بن خير بن مطعم في جند وعلى مقدمته الحرث بن يزيد العامري فسار إلى هيت وحاصرهم، فلما رأى اعتصامهم بخندقهم حجر عليهم الحرث بن يزيد وخرج في نصف العسكر وجاء قرقيسيا على غرة فأجابوه إلى الجزية، وكتب إلى الحرث أن يخندق على عسكر الجزيرة فبيت حتى سألوا المسالمة والعود إلى بلادهم فتركهم ولحق بعمر بن مالك.

ولما اعتزم هرقل على قصد حمص وبلغ الخبر أبا عبيدة ضم إليه مسالحه وعسكر بفنائها، وأقبل إليه خالد من قنسرين، وكتبوا إلى عمر بخبر هرقل فكتب إلى سعد أن يذهب بل أن يندب الناس مع القعقاع بن عمرو ويسرحهم من يومهم فإن أبا عبيدة قد أحيط به، وأن يسرح سهيل بن عدي إلى الرقة فإن أهل الجزيرة هم الذين استدعوا الروم إلى حمص، وأن يسرح عبد الله بن عتبان إلى نصيبين ثم يقصد حران والرها، وأن يسرح الوليد بن عقبة إلى عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وأن يكون عياض بن غنم على أمراء الجزيرة هؤلاء إن كانت حرب. فمضى القعقاع من يومه في أربعة آلاف إلى حمص، وسار عياض بن غنم وأمراء الجزيرة كل

أمير إلى كورته، وخرج عمر من المدينة فأتى الجابية يريد حمص مغيثاً لأبي عبيدة. ولما سمع أهل الجزيرة خبر الجنود فارقوا هرقل ورجعوا إلى بلادهم، وزحف أبو عبيدة إلى الروم فانهزموا، وقدم القعقاع من العراق بعد الوقعة بثلاث، وكتبوا إلى عمر بالفتح فكتب إليهم أن أشركوا أهل العراق في الغنيمة.

وسار عياض بن غنم إلى الجزيرة وبعث سهيل بن عدي إلى الرقة عندما انقبضوا عن هرقل فنهضوا معه، إلا إياد بن نزار، فإنهم دخلوا أرض الروم. ثم بعث عياض بن سهيل وعبد الله يضمهما إليه، وسار بالناس إلى حران فأجابوه إلى الجزية. ثم سرح سهيلاً وعبد الله إلى الرها فأجابوا إلى الجزية، وكمل فتح الجزيرة. وكتب أبو عبيدة إلى عمر لما رجع من الجابية وانصرف معه خالد أن يضم إليه عياض بن غنم مكانه ففعل، وولى حبيب بن مسلمة على عجم الجزيرة وحربها والوليد بن عقبة على عربها.

ولما بلغ عمر دخول إياد إلى بلاد الروم، كتب إلى هرقل: بلغني أن حياً من أحياء العرب تركوا دارنا وأتوا دارك فوالله لتخرجنهم أو لنخرجن النصارى إليك، فأخرجهم هرقل وتفرق منهم أربعة آلاف فيما يلي الشام والجزيرة، وأبى الوليد بن عقبة أن يقبل من تغلب إلا الإسلام، فكتب إليه عمر: إنما ذلك في جزيرة العرب التي فيها مكة والمدينة واليمن فدعهم على أن لا ينصروا وليداً ولا يمنعوا أحداً منهم من الإسلام.

ثم وفدوا إلى عمر في أن يضع عنهم اسم الجزية فجعلها الصدقة مضاعفة ثم عزل الوليد عنهم لسطوته وعزتهم، وأمر عليهم فرات بن حيان وهند بن عمرو الجملي. وقال ابن إسحاق: إن فتح الجزيرة كان سنة تسع عشرة وإن سعداً بعث إليها الجند مع عياض بن غنم وفيهم ابنه عمر وعياض بن غنم، ففتح عمر الرها بل ففتح عياض الرها، وصالحت حران، وافتتح أبو موسى نصيبين، وبعث عثمان بن أبي العاص إلى أرمينيا فصالحوه على الجزية، ثم كان فتح قيسارية من فلسطين.

فتكون الجزيرة على هذا من فتوح أهل العراق والأكثر إنها من فتوح أهل الشام. وأن أبا عبيدة سيّر عياض بن غنم إليها، وقيل بل استخلفه لما توفي، فولاه عمر على حمص وقنسرين والجزيرة فسار إليها سنة ثمان عشرة في خمسة آلاف فانتهت طائفة إلى الرقة فحاصروها حتى صالحوه على الجزية والخراج على الفلاحين. ثم سار إلى حران فجهز عليها صفوان بن المعطل وحبيب بن مسلمة، وسار هو إلى الرها فحاصرها حتى صالحوه. ثم رجع إلى حران وصالحهم كذلك، ثم فتح سميساط وسروج ورأس كيفا فصالحوه على منبج كذلك، ثم آمد ثم ميافارقين ثم كفرتوثا ثم نصيبين ثم ماردين ثم الموصل وفتح أحد حصنيها، ثم سار إلى أرزن الروم ففتحها ودخل الدرب إلى بدليس. ثم خلاط فصالحوه وانتهى إلى أطراف أرمينية، ثم عاد إلى الرقة ومضى إلى حمص فمات.

واستعمل عمر عمير بن سعد الأنصاري ففتح رأس عين وقيل: إن عياضاً هو الذي أرسله، وقيل: إن أبا موسى الأشعري هو الذي افتتح رأس عين بعد وفاة عياض بولاية عمر، وقيل إن خالداً حضر فتح الجزيرة مع عياض ودخل الحمام بآمد فأطلى بشيء فيه خمر وقيل: لم يسر خالد تحت لواء أحد بعد أبي عبيدة. ولما فتح عياض سميساط بعث حبيب بن مسلمة إلى ملطية ففتحها عنوة ثم انتقض أهلها فلما ولي معاوية الشام والجزيرة وجه إليها حبيب بن مسلمة ففتحها عنوة أيضاً ورتب فيها الجند وولى عليها، ولما أدرب عياض بن غنم من الجابية.

فرجع عمر إلى المدينة سنة سبع عشرة وعلى حمص أبو عبيدة، وعلى قنسرين خالد بن الوليد من تحته، وعلى دمشق يزيد، وعلى الأردن معاوية، وعلى فلسطين علقمة بن مجزز، وعلى السواحل عبد الله بن قيس. وشاع في الناس ما أصاب خالد مع عياض بن غنم من الأموال فانتجعه رجال منهم الأشعث فإن كان من ماله فقد أسرف فاعزله واضمم إليك عمله.

فاستدعاه أبو عبيدة وجمع الناس وجلس على المنبر وسأل اليزيد خالداً فلم يجبه، فقام بلال وأنفذ فيه أمر عمر وسأله، فقال: من مالي فأطلقه وأعاد قلنسوته وعمامته. ثم استدعاه عمر فقال له: من أين هذا الثراء؟ قال: من الأنفال والسهمان وما زاد على ستين ألفاً فهو لك فجمع ماله فزاد عشرين فجعلها في بيت المال ثم استصلحه.

وفي سنة سبع عشرة هذه اعتمر عمر ووسع في المسجد، وأقام بمكة عشرين ليلة، وهدم على من أبى البيع دورهم لذلك، وكانت العمارة في رجب وتولاها مخرمة بن نوفل، والأزهر بن عبد عوف، وحويطب بن عبد العزى وسعيد بن يربوع، واستأذنه أهل المياه أن يبنوا المنازل بين مكة والمدينة فأذن لهم على شرط أن ابن السبيل أحق بالظل والماء.

غزو فارس من البحرين وعزل العلاء عن البصرة ثم المغيرة وولاية أبي موسى

كان العلاء بن الحضرمي على البحرين أيام أبي بكر ثم

عزله عمر بقدامة بن مظعون ثم أعاده، وكان العلاء يناوئ سعد بن أبي وقاص ووقع له في قتال أهل الردة ما وقع، فلما ظفر سعد بالقادسية كان أعظم من فعل العلاء، فأراد أن يؤثر في الفرس شيئاً فندب الناس إلى فارس وأجابوه، وفرقهم أجناداً بين الجارود بن المعلى والسوار بن همام وخليد بن المنذر وأمّره على جميعهم وحمله في البحر إلى فارس بغير إذن من عمر.

لأنه كان ينهى عن ذلك وأبو بكر قبله خوف الغرق. فخرجت الجنود إلى إصطخر وبإزائهم الهربذ في أهل فارس، وحالوا بينهم وبين سفنهم فخاطبهم خليد وقال: إنما جئتم لمحاربتهم والسفن والأرض لمن غلب. ثم ناهدوهم واقتتلوا بطاوس، وقتل الجارود والسوار وأمر خالد أصحابه أن يقاتلوا رجالة، وقتل من الفرس مقتلة عظيمة.

ثم خرج المسلمون نحو البصرة وأخذ الفرس عليهم الطرق فعسكروا وامتنعوا، وبلغ ذلك عمر فأرسل إلى عتبة بالبصرة يأمره بإنفاذ جيش كثيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا، وأمر العلاء بالانصراف عن البحرين إلى سعد بمن معه، فأرسل عتبة الجنود اثني عشر ألف مقاتل فيهم عاصم بن عمرو وعرفجة بن هرثمة والأحنف بن قيس وأمثالهم وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم من عامر بن لؤي، فساحل بالناس حتى لقي خليداً والعسكر، وقد تداعى إليهم بعد وقعة طاوس أهل فارس من كل ناحية، فاقتتلوا وانهزم المشركون وقتلوا. ثم انكفأوا بما أصابوا من الغنائم واستحثهم عتبة بالرجوع فرجعوا إلى البصرة. ثم استأذن عتبة في الحج فأذن له عمر فحج، ثم استعفاه فأبى وعزم عليه ليرجعن إليه عمله فانصرف ومات ببطن نخلة على رأس ثلاث سنين من مفارقة سعد. واستخلف على عمله أبا سبرة بن أبي رهم فأقره عمر بقية السنة.

ثم استعمل المغيرة بن شعبة عليها، وكان بينه وبين أبي بكرة منافرة وكانا متجاورين في مشربتين ينفذ البصر من إحداهما إلى الأخرى من كوتين، فزعموا إن أبا بكرة وزياد ابن أبيه وهو أخوه لأمه وآخرين معهما عاينوا المغيرة على حالة قذفوه بها ادعوا الشهادة ومنعه أبو بكرة من الصلاة، وبعثوا إلى عمر، فبعث أبا موسى أميراً في تسعة وعشرين من الصحابة فيهم أنس بن مالك وعمران بن حصين وهشام بن عامر ومعهم كتاب عمر إلى المغيرة: أما بعد فقد بلغني عنك نبأ عظيم وبعثت أبا موسى أميراً فسلم إليه ما في يدك والعجل. ولما استحضرهم عمر اختلفوا في الشهادة ولم يستكملها زياد فجلد الثلاثة. ثم عزل أبا موسى عن البصرة بعمر بن سراقة ثم صرفه إلى الكوفة ورد أبا موسى فأقام عليه.

بناء البصرة والكوفة

وفي هذه السنة وهي أربع عشرة بلغ عمر أن العرب تقرّ بل تغيرت ألوانهم ورأى ذلك في وجوه وفودهم فسألهم فقالوا: وخومة البلاد غيّرتنا، وقيل: إن حذيفة وكان مع سعد كتب بذلك إلى عمر فسأل عمر سعداً فقال: غيرتهم وخومة البلاد والعرب لا يوافقها من البلاد إلا ما وافق إبلها، فكتب إليه أن يبعث سلمان وحذيفة شرقيه فلم يرضيا إلا بقعة الكوفة فصليا فيها ودعيا أن تكون منزل ثبات. ورجع إلى سعد فكتب إلى القعقاع وعبد اللّه بن المعتمر أن يستخلفا على جندهما ويحضرا، وارتحل من المدائن فنزل الكوفة في المحرم سنة سبع عشرة لسنتين وشهرين من وقعة القادسية ولثلاث سنين وثمانية أشهر من ولاية عمر، وكتب إلى عمر إني قد نزلت الكوفة بين الحيرة والفرات برياً بحرياً بين الجلاء والنصر وخيرت الناس بينهما وبين المدائن ومن أعجبته تلك جعلته فيها مسلحة، فلما استقروا بالكوفة ثاب إليهم ما فقدوه من حالهم. ونزل أهل البصرة أيضاً منازلهم في وقت واحد مع أهل الكوفة بعد ثلاث مرات نزلوها من قبل واستأذنوا جميعاً في بنيان القصب، فكتب عمر: أن العسكرة أشد لحربهم وأذكر لكم وما أحب أن أخالفكم فابتنوا بالقصب. ثم وقع الحريق في القصرين فاستأذنوا في البناء باللبن فقال: افعلوا ولا يزيد أحد على ثلاثة بيوت ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة. وكان على تنزيل الكوفة أبو هياج بن مالك، وعلى تنزيل البصرة أبو المحرب عاصم بن الدلف. وكانت ثغور الكوفة أربعة: حلوان وعليها القعقاع، وماسبدان وعليها ضرار بن الخطاب، وقرقيسيا وعليها عمر بن مالك، والموصل وعليها عبد اللّه بن المعتمر. ويكون بها خلفاؤهم إذا غابوا.

فتح الأهواز والسوس بعدها

لما انهزم الهرمزان يوم القادسية قصد خوزستان وهي قاعدة الأهواز فملكها وملك سائر الأهواز، وكان أصله منهم من البيوتات السبعة في فارس، وأقام يغير على أهل ميسان ودست ميسان من ثغور البصرة يأتي إليها من منادر ونهر تيري من ثغور الأهواز. واستمد عتبة بن غزوان سعداً فأمده بنعيم بن مقرن، ونعيم بن مسعود، فنزل بين ثغور البصرة وثغور الأهواز. وبعث عتبة بن غزوان سلمي بن القين وحرملة بن قريضة من بني العدوية من حنظلة فنزل على ثغور البصرة بميسان، ودعوا بني العم بن مالك وكانوا ينزلون خراسان، فأهل البلاد يأمنونهم،

فاستجابوا وجاء منهم غالب الوائلي وكليب بن وائل الكلبي فلقيا سلمي وحرملة وواعداهما الثورة بمنادر ونهر تيري. ونهض سلمي وحرملة يوم الموعد في التعبية وأنهض نعيماً والتقو هم والهرمزان وسلمي على أهل البصرة ونعيم على أهل الكوفة، وأقبل إليهما المدد من قبل غالب وكليب وقد ملك منادر ونهر تيري، فانهزم الهرمزان وقتل المسلمون من أهل فارس مقتلة، وانتهوا في اتباعهم إلى شاطئ دجيل وملكوا ما دونها. وعبر الهرمزان جسر سوق الأهواز وصل دجيل بينه وبين المسلمين، ثم طلب الهرمزان الصلح فصالحوه على الأهواز كلها ما خلا نهر تيري ومنادر وما غلبوا عليه من سوق الأهواز فإنه لا يرد، وبقية المسالح على نهر تيري ومنادر وفيهما غالب وكليب. ثم وقع بينهما وبين الهرمزان اختلاف في التخم ووافقهما سلمي وحرملة فنقض الهرمزان ومنع ما قبله وكثف جنوده بالأكراد، وبعث عتبة بن غزوان حرقوص بن زهير السعدي لقتاله، فانهزم وسار إلى رام هرمز وفتح حرقوص سوق الأهواز ونزل بها واتسعت له البلاد إلى تستر. ووضع الجزية وكتب بالفتح وبعث في أثر الهرمزان جزء بن معاوية فانتهى إلى قرية الشعر، ثم إلى دورق فملكها وأقام بالبلاد وعمرها وطلب الهرمزان الصلح على ما بقي من البلاد.

ونزل حرقوص جبل الأهواز وكان يزدجرد في خلال ذلك يمد ويحرض أهل فارس حتى اجتمعوا وتعاهدوا مع أهل الأهواز على النصرة، وبلغت الأخبار حرقوصاً وجزءاً وسلمي وحرملة فكتبوا إلى عمر فكتب إلى سعد أن يبعث جنداً كثيفاً مع النعمان بن مقرن ينزلون منازل الهرمزان، وكتب إلى أبي موسى أن يبعث كذلك جنداً كثيفاً مع سعد بن عدي أخي سهيل ويكون فيهم البراء بن مالك ومجزأة بن ثور وعرفجة بن هرثمة وغيرهم، وعلى الجندين أبو سبرة بن أبي رهم. فخرج النعمان بن مقرن في أهل الكوفة فخلف حرقوصاً وسلمي وحرملة إلى الهرمزان وهو برام هرمز، فلما سمع الهرمزان بمسير النعمان إليه بادره الشدة ولقيه فانهزم ولحق بتستر، وجاء النعمان إلى رام هرمز فنزلها وجاء أهل البصرة من بعده فلحقهم خبر الواقعة بسوق الأهواز فساروا حتى أتوا تستر.

ولحقهم النعمان فاجتمعوا على تستر وبها الهرمزان، وأمدهم عمر بأبي موسى جعله على أهل البصرة فحاصروهم أشهراً وأكثروا فيهم القتل، وزاحفهم المشركون ثمانين زحفاً سجالاً ثم انهزموا في آخرها، واقتحم المسلمون خنادقهم وأحاطوا بها وضاق عليهم الحصار فاستأمن بعضهم من داخل البلد بمكتوب في سهم على أن يدلهم على مدخل يدخلون منه، فانتدب لهم طائفة ودخلوا المدينة من مدخل الماء وملكوها وقتلوا المقاتلة، وتحصن الهرمزان بالقلعة فأطافوا بها واستنزلوه على حكم عمر وأوثقوه. واقتسموا الفيء فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف والراجل ألف. وقتل من المسلمين في تلك الليلة البراء بن مالك ومجزأة بن ثور قتلهما الهرمزان.

ثم خرج أبو سبرة في أثر المنهزمين ومعه النعمان وأبو موسى فنزلوا على السوس، وسار زر بن عبد الله الفقيمي إلى جنديسابور فنزل عليها. وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري بالرجوع إلى البصرة وأمر مكانه الأسود بن ربيعة من بني ربيعة بن مالك صحابي يسمى المقترب، وأرسل أبو سبرة بالهرمزان إلى عمر في وفد منهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس فقدموا به بالمدينة وألبسوه كسوته من الديباج المذهب وتاجه مرصعاً بالياقوت وحليته ليراه المسلمون.

فلما رآه عمر أمر بنزع ما عليه وقال: يا هرمزان كيف رأيت أمر الله وعاقبة الغدر؟ فقال: يا عمر إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم. فلما صار الآن معكم غلبتمونا. قال: فما حجتك وما عذرك في الانتقاض مرة بعد أخرى؟ قال: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك! قال: لا تخف ذلك. ثم استقى فأتي بالماء فقال: أخاف أن أقتل وأنا أشرب قال: لا بأس عليك حتى تشربه، فألقاه من يده وقال: لا حاجة لي في الماء وقد أمنتني. قال: كذبت. قال أنس: صدق يا أمير المؤمنين فقد قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني وحتى تشربه وصدّق الناس. فأقبل عمر على الهرمزان وقال: خدعتني؟ لا والله إلا أن تسلم! فأسلم. ففرض له في ألفين وأنزله المدينة واستأذنه الأحنف بن قيس في الانسياح في بلاد فارس وقال: لا يزالون في الانتقاض حتى يهلك ملكهم فأذن له.

ولما لحق أبو سبرة بالسوس ونزل عليها وبها شهريار أخو الهرمزان فأحاط بها ومعه المقترب بن ربيعة في جند البصرة، فسأل أهل السوس الصلح فأجابوهم. وسار النعمان بن مقرن بأهل الكوفة إلى نهاوند وقد اجتمع بها الأعاجم، وسار المقترب إلى زر بن عبد الله على جند يسابور فحاصروها مدة ثم رمى السهم بالأمان من خارج على الجزية فخرجوا لذلك، فناكرهم المسلمون فإذا عبد فعل ذلك أصله منهم، فأمضى عمر أمانه. وقيل في فتح السوس: إن يزدجرد سار بعد وقعة جلولاء فنزل إصطخر ومعه سياه في سبعين ألفاً من فارس فبعثه إلى السوس ونزل الكلبانية وبعث الهرمزان إلى تستر، ثم كانت واقعة أبي موسى فحاصرهم فصالحوه على الجزية وسار إلى هرمز ثم إلى تستر. ونزل سياه بين

رامهرمز وتستر.

وحمل أصحابه على صلح أبي موسى ثم على الإسلام على أن يقاتلوا الأعاجم ولا يقتلوا العرب ويمنعهم هو من العرب، ويلحق بأشراف العطاء فأعطاهم ذلك عمر وأسلموا وشهدوا فتح تستر، ومضى سياه إلى بعض الحصون في زي العجم فغدرهم وفتحه للمسلمين وكان فتح تستر وما بعدها سنة سبع عشرة وقيل ست عشرة.

مسير المسلمين إلى الجهات للفتح

لما جاء الأحنف بن قيس بالهرمزان إلى عمر قال له: يا أمير المؤمنين! لا يزال أهل فارس يقاتلوننا ما دام ملكهم فيهم فلو أذنت بالانسياح في بلادهم فأزلنا ملكهم انقطع رجاؤهم، فأمر أبا موسى أن يسير من البصرة غير بعيد حتى بل ويقيم حتى يأتي أمره، ثم بعث إليه مع سهيل بن عدي بألوية الأمراء الذين يسيرون في بلاد العجم لواء خراسان للأحنف بن قيس، ولواء أردشيرخرت وسابور لمجاشع بن مسعود السلمي، ولواء إصطخر لعثمان بن أبي العاص الثقفي، ولواء فسا ودارابجرد لسارية بن زنيم الكناني، ولواء كرمان لسهيل بن عدي، ولواء سجستان لعاصم بن عمرو، ولواء مكران للحكم بن عمير التغلبي. ولم يتهيأ مسيرهم إلاّ سنة ثماني عشرة، ويقال: سنة إحدى وعشرين أو اثنين وعشرين، ثم ساروا في بلاد العجم وفتحوا كما يذكر بعد.

مجاعة عام الرمادة وطاعون عمواس

وأصاب الناس سنة ثماني عشرة قحط شديد وجدب أعقب جوعاً بعُد العهد بمثله مع طاعون أتى على جميع الناس، وحلف عمر لا يذوق السمن واللبن حتى يحيا الناس، وكتب إلى الأمراء بالأمصار يستمدهم لأهل المدينة، فجاء أبو عبيدة بأربعة آلاف راحلة من الطعام، وأصلح عمرو بن العاص بحر القلزم وأرسل فيه الطعام من مصر فرخص السعر، واستقى عمر بالناس فخطب الناس وصلى. ثم قام وأخذ بيد العباس وتوسل به ثم بكى وجثا على ركبتيه يدعو إلى أن مطر الناس. وهلك بالطاعون أبو عبيدة ومعاذ ويزيد بن أبي سفيان والحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وابنه عتبة في آخرين أمثالهم. وتفاني الناس بالشام، وكتب عمر إلى أبي عبيدة أن يرتفع بالمسلمين من الأرض التي هو بها فدعا أبا موسى يرتاد له منزلاً ومات قبل رحيله.

وسار عمر بالناس إلى الشام وانتهى إلى سرغ ولقيه أمراء الأجناد وأخبروه بشدة الوباء، واختلفت الناس عليه في قدد معه فقبل إشارة العود ورجع، وأخبر عبد الرحمن بن عوف بما سمع من رسول الله ﷺ في أمر الوباء فقال: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه». أخرجاه في الصحيحين.

ولما هلك يزيد وولى عمر على دمشق مكانه أخاه معاوية بن أبي سفيان وعلى الأرض شرحبيل بن حسنة، ولما فحش أثر الطاعون بالشام أجمع عمر المسير إليه ليقسم مواريث المسلمين ويتطوف على الثغور ففعل ذلك، ورجع واستقضى في سنة ثماني عشرة على الكوفة شريح بن الحرث الكندي، وعلى البصرة كعب بن سوار الأزدي.

وحج في هذه السنة. ويقال: إن فتح جلولاء والمدائن والجزيرة كان في هذه السنة وقد تقدم ذكر ذلك وكذلك فتح قيسارية على يد معاوية وقيل: سنة عشرين.

فتح مصر

ولما فتح عمر بيت المقدس استأذنه عمرو بن العاص في فتح مصر فأغزاه ثم أتبعه الزبير بن العوام فساروا سنة عشرين أو إحدى أو إثنين أو خمس فاقتحموا باب إليون ثم ساروا في قرى الريف إلى مصر ولقيهم الجاثليق أبو مريم والأسقف قد بعثه المقوقس، وجاء أبو مريم إلى عمرو فعرض الجزية والمنع وأخبره بما أوصى به رسول الله ﷺ في شأنهم، وأجّلهم ثلاثاً ورجعوا إلى المقوس وأرطبون أمير الروم فأبى من ذلك أرطبون وعزم الحرب وبيت المسلمين فهزموه وجنده. ونازلوا عين شمس وهي المطرية وبعثوا لحصار الفورفا أبرهه بن الصباح، ولحصار الإسكندرية عوف بن مالك، فراسلهم أهل البلاد وانتظروا عين شمس فحاصرهم عمرو والزبير مدة حتى صالحوهما على الجزية، وأجروا ما أخذوا قبل ذلك عنوة، فجرى الصلح وشرطوا رد السبايا فأمضاه لهم عمر بن الخطاب على أن يجيز السبايا في الإسلام وكتب العهد بينهم ونصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم ودمهم وأموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعدهم لا يزيد شيء في ذلك ولا ينقضي ولا يساكنهم النوب، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة

نهرهم خمسين ألف ألف وعليه ممن جنى نصرتهم فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بعددهم وذمتنا ممن أبى برية وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك، ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله ما لهم وعليه ما عليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطاننا، وعليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد اللّه وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أميرالمؤمنين وذمم المؤمنين. وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة. شهد الزبير وعبد اللّه ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر هذا نص الكتاب منقولاً من الطبري.

قال: فدخل في ذلك أهل مصر كلهم وقبلوا الصلح ونزل المسلمون الفسطاط، وجاء أبو مريم الجاثليق يطلب السبايا التي بعد المعركة في أيام الأجل فأبى عمرو من ردها وقال: أغاروا وقاتلوا وقسمتهم في الناس، وبلغ الخبر إلى عمر فقال: من يقاتل في أيام الأجل فله الأمان وبعث بهم إلى الدقاق فردهم عليهم. ثم سار عمرو إلى الإسكندرية فاجتمع له من بينها وبين الفسطاط من الروم والقبط فهزمهم وأثخن فيهم، ونازل الإسكندرية وبها المقوقس وسأله الهدنة إلى مدة فلم يجبه وحاصرهم ثلاثة أشهر ثم فتحها عنوة وغنم ما فيها وجعلهم ذمة. وقيل: إن المقوقس صالح عَمراً على اثني عشر ألف دينار على أن يخرج من يخرج ويقيم من يقيم باختيارهم وجعل عمرو فيها جنداً.

ولما تم فتح مصر والإسكندرية أغزى عمرو العساكر إلى النوبة فلم يظفروا، فلما كان أيام عثمان وعبد اللّه بن أبي سرح على مصر صالحهم على عدة رؤوس في كل سنة ويهدي إليهم المسلمون طعاماً وكسوة فاستمر ذلك فيما بعد.

وقعة نهاوند وما كان بعدها من الفتوحات

لما فتحت الأهواز ويزدجرد بمرو كاتبوه واستنجدوه، فبعث إلى الملوك ما بين الباب والسند وخراسان وحلوان يستمدهم فأجابوه، واجتمعوا إلى نهاوند وعلى الفرس الفريرزان في مئة وخمسين ألف مقاتل. وكان سعد بن أبي وقاص قد ألب أقوام عليه من عسكره، وشكوه إلى عمر فبعث محمد بن مسلمة في الكشف عن أمره فلم يسمع إلا خيراً سوى مقالة من بني عبس، فاستقدمه محمد إلى عمرو وخبره الخبر فقال: كيف تصلي يا سعد؟ قال: أطيل الأولتين وأحذف الأخيرتين. قال: هكذا الظن بك، ثم قال: من خليفتك على الكوفة؟ قال: عبد اللّه بن عبد اللّه بن عتبان فأمره وشافهه بخبر الأعاجم وأشار بالانسياح ليكون أهيب على العدو.

فجمع عمر الناس واستشارهم بالمسير بنفسه، فمن موافق ومخالف إلى أن اتفق رأيهم على أن يبعث الجنود ويقيم ردءاً لهم، وكان ذلك رأي علي وعثمان وطلحة وغيرهم، فولى على حربهم النعمان بن مقرن المزني وكان على جند الكوفة بعد انصرافهم من حصار السوس، وأمره أن يصير إلى ماء لتجتمع الجيوش عليه ويسير بهم إلى الفيرزان ومن معه. وكتب إلى عبد اللّه بن عبد اللّه بن عتبان أن يستنفر الناس من النعمان، فبعثهم مع حذيفة بن اليمان ومعه نعيم بن مقرن، وكتب إلى المقترب وحرملة وزر الذين كانوا بالأهواز وفتحوا السوس وجنديسابور أن يقيموا بتخوم أصبهان وفارس ويقطعوا المدد عن أهل نهاوند.

واجتمع الناس على النعمان وفيهم حذيفة وجرير والمغيرة وابن عمر وأمثالهم، وأرسل النعمان طليحة وعمرو بن معديكرب طليعة، ورجع عمرو من طريقه. وانتهى طليحة إلى نهاوند ونقض الطرق فلم يلق بها أحداً وأخبر الناس، فرحل النعمان وعبى المسلمين ثلاثين ألفاً، وجعل على مقدمته نعيم بن مقرن وعلى مجنبتيه حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن وعلى المجردة القعقاع وعلى الساقة مجاشع بن مسعود. وعبّى الفيرزان كتائبه وعلى مجنبتيه زردق وبهمن جادويه مكان ذي الحاجب، وقد توافى إليهم بنهاوند كل من غاب من القادسية من أبطالهم.

فلما تراءى الجمعان كبر المسلمون وحطت العرب الأثقال وتبادر أشراف الكوفة إلى فسطاط النعمان فبنوه! حذيفة بن اليمان والمغيرة بن شعبة وعقبة بن عمرو وجرير بن عبد اللّه وحنظلة الكاتب وبشير بن الخصاصية والأشعث بن قيس ووائل بن حجر وسعيد بن قيس الهمداني. ثم تزاحفوا للقتال يوم الأربعاء والخميس والحرب سجال ثم أحجروهم في خنادقهم يوم الجمعة وحاصروهم أياماً، وسئم المسلمون اعتصامهم بالخنادق وتشاوروا، وأشار طليحة باستخراجهم للمناجزة بالاستطراد فناشبهم القعقاع فبرزوا إليه كأنهم حبال حديد قد توثقوا أن لا يفروا وألقوا حسك الحديد خلفهم لئلا ينهزموا.

فلما بارزوا استطرد لهم حتى فارقوا الخنادق وقد ثبت لهم المسلمون ونزل الصبر، ثم وقف النعمان على الكتائب وحرض المسلمين ودعا لنفسه بالشهادة، وقال: إذا كبرت الثالثة فاحملوا. ثم كبر وحمل عند الزوال وتجاول الناس ساعة وركدت الحرب ثم انفض الأعاجم وانهزموا وقتلوا ما بين الظهر والعتمة حتى سالت

أرض المعركة دما تزلق فيه المشاة حتى زلق فيه النعمان وصرع، وقيل بل أصابه سهم، فسجاه أخوه نعيم بثوب. وتناول الراية حذيفة بعهده وتواصلوا بكتمان موته. وذهب الأعاجم ليلاً وعميت عليهم المذاهب، وعقرهم حسك الحديد ووقعوا في اللهيب الذي أعدوه في عسكرهم فمات منهم أكثر من مئة ألف منها نحو ثلاثين ألفاً في المعركة، وهرب الفيرزان بعد أن صرع إلى همذان واتبعه نعيم بن مقرن فأدركه بالثنية دونها وقد سدتها الأحمال وترجل وصعد في الجبل، وكان نعيم قد قدّم القعقاع أمامه فاعترضه وقتله المسلمون على الثنية، ودخل الفل همذان وبها خسرشنوم فنزل المسلمون عليها مع نعيم والقعقاع.

ودخل المسلمون نهاوند يوم الوقعة وغنموا ما فيها وجمعوه إلى صاحب الأقباض السائب بن الأقرع.

وولي على الجند حذيفة بعهد النعمان إليه. ثم جاء الهربذ صاحب بيت النار إلى حذيفة فأمنه وأخرج له صفتين مملوأين جوهراً نفيساً كانا من دخائل كسرى أودعهما عنده البجرجان فنقلهما المسلمون، وبعث الخمس من السائب إلى عمر وأخبره بالواقعة وبالفتح ومن استشهد فبكى، وبالصفتين فقال: ضعهما في بيت المال والحق بجندك. قال السائب: ثم لحقني رسوله بالكوفة فردني إليه فلما رآني قال: ما لي وللسائب ما هو إلا أن نمت الليلة التي خرجت فيها فباتت الملائكة تسحبني إلى السفطين يشعلان ناراً يتواعداني بالكي إن لم أقسمهما فخذهما عني وبعهما في أرزاق المسلمين. فبعثهما بالكوفة من عمرو بن حريث المخزومي بألفي ألف درهم وباعهما عمرو بأرض الأعاجم بضعفهما، فكان له بالكوفة مال.

وكان سهم الفارس بنهاوند ستة آلاف والراجل ألفين ولم يكن للفرس بعدها اجتماع. وكان أبو لؤلؤة قاتل عمر من أهل نهاوند حصل في أسر الروم وأسره الفرس منهم، فكان إذا لقي سبي نهاوند بالمدينة يبكي ويقول: أكل عمر كبدي. وكان أبو موسى الأشعري قد حضر نهاوند على أهل البصرة فلما انصرف مر بالدينور فحاصروها خمسة أيام، ثم صالحوه على الجزية. وسار إلى أهل شيروان فصالحوه كذلك. وبعث السائب بن الأقرع إلى العيمرة ففتحها صلحاً.

ولما اشتد الحصار بأهل همذان بعث خسرشنوم إلى نعيم والقعقاع في الصلح على قبول الجزية فأجابوه إلى ذلك ثم اقتدى أهل الماهين وهم الملوك الذين جاؤوا لنصرة يزدجرد بأهل همذان، وبعثوا إلى حذيفة فصالحوه. وأمر عمر بالانسياح في بلاد الأعاجم، وعزل عبد اللّه بن عبد اللّه بن عتبان عن الكوفة وبعثه في وجه آخر. وولى مكانه زياد بن حنظلة حليف لبني عبد قصي واستعفى فأعفاه، وولى عمار بن ياسر، واستدعى ابن مسعود من حمص فبعثه معه معلماً لأهل الكوفة، وأمدهم بأبي موسى، وأمد أهل البصرة مكانه بعبد اللّه بن عبد اللّه، ثم بعثه إلى أصبهان مكان حذيفة، وولى على البصرة عمرو بن سراقة.

ثم انتقض أهل همذان فبعث إلى نعيم بن مقرن يحاصرهم، وصار بعد فتحها إلى خراسان، وبعث عتبة بن فرقد وبكر بن عبد اللّه إلى أذربيجان فدخل أحدهما من حلوان والآخر من الموصل، ولما وصل عبد اللّه بن عبد اللّه بن عتبان إلى أصبهان، وكان من الصحابة من وجوه الأنصار حليف بني الحبلي فأمده بأبي موسى، وجعل على مجنبته عبد اللّه بن ورقاء الرياحي وعصمة بن عبد اللّه، فسار إلى نهاوند ورجع حذيفة إلى عمله على ما سقت دجلة. فسار عبد اللّه بمن معه ومن تبعه من عند النعمان نحو أصبهان، وعلى جندها الأسبيدان وعلى مقدمتة شهريار بن جادويه في جمع عظيم برستاق أصبهان، فاقتتلوا وبارز عبد اللّه بن ورقاء شهريار فقتله، وانهزم أهل أصبهان وصالحهم الأسبيدان على ذلك الرستاق.

ثم ساروا إلى أصبهان -وتسمى جي- وملكها الفادوسفان، فصالحهم على الجزية والخيار بين المقام والذهاب وقال: ولكم أرض من ذهب. وقدم أبو موسى على عبد اللّه من ناحية الأهواز فدخل معه أصبهان وكتبوا إلى عمر بالفتح. فكتب إلى عبد اللّه أن يسيروا إلى سهيل بن عدي لقتال كرمان، فاستخلف على أصبهان السائب بن الأقرع، ولحق بسهيل قبل أن يصل كرمان. وقد قيل: إن النعمان بن مقرن حضر فتح أصبهان أرسله إليها عمر من المدينة واستجاش له أهل الكوفة فقتل في حرب أصبهان، والصحيح أن النعمان قتل بنهاوند. وافتتح أبو موسى قم وقاشان. ثم ولى عمر على الكوفة سنة إحدى وعشرين المغيرة بن شعبة وعزل عماراً.

فتح همذان

كان أهل همذان قد صالح عليهم خشرشنوم القعقاع ونعيماً وضمنهما ثم انتقض فكتب عمر إلى نعيم أن يقصدها فودع حذيفة ورجع إليها من الطريق على تعبيته، فاستولى على بلادها أجمع حتى صالحوه على الجزية، وقيل: إن فتحها كان سنة أربع وعشرين فبينما نعيم يجول في نواحي همذان إذ جاءه الخبر بخروج الديلم وأهل الري وأسفنديار أخو رستم بأهل أذربيجان،

فاستخلف نعيم على همذان يزيد بن قيس الهمداني وسار إليهم فاقتتلوا وانهزم الفرس وكانت واقعتها مثل نهاوند وأعظم. وكتبوا إلى عمر بالفتح فأمر نعيماً بقصد الري والمقام بها بعد فتحها.

وقيل: إن المغيرة بن شعبة أرسل من الكوفة جرير بن عبد اللّه إلى همذان ففتحها صلحاً وغلب على أرضها، وقيل: تولاها بنفسه وجرير على مقدمته. ولما فتح جرير همذان بعث البراء بن عازب إلى قزوين ففتح ما قبلها وسار إليها، فاستنجدوا بالديلم فوعدوهم ثم جاء البراء في المسلمين فخرجوا لقتالهم والديلم وقوف بأعلى الجبل ينظرون، فيئس أهل قزوين منهم وصالحوا البراء على صلح أبهر قبلها. ثم غزا البراء الديلم وجيلان.

فتح الري

ولما انصرف نعيم من واقعته سار إلى الري وخرج إليه أبو الفرخان من أهلها في الصلح وأبى ذلك ملكها سياوخش بن مهران بن بهرام جوبين، واستمد أهل دنباوند وطبرستان وقومس وجرجان فأمروه والتقوا مع نعيم فشغلوا به عن المدينة، وقد كان خلفهم أبو فرخان. ودخل المدينة من الليل ومعه المنذر بن عمرو وأخو نعيم فلم يشعروا وهم مواقفون لنعيم إلا بالتكبير من ورائهم، فانهزموا وقتلوا وأفاء اللّه على المسلمين بالري مثلما كان بالمدائن، وصالحه أبو الفرخان الزبيني على البلاد فلم يزل شرفهم في عقبه. وأخرب نعيماً مدينتهم العتيقة وأمر ببناء أخرى. وكتب إلى عمر بالفتح وصالحه أهل دنباوند على الجزية فقبل منهم.

ولما بعث بالأخماس إلى عمر كتب إليه بإرسال أخيه سويد إلى قومس ومعه هند بن عمرو الجملي، فسار فلم يقم له أحد وأخذها سلماً وعسكر بها. وكاتبه الفل الذين بطبرستان وبالمفاوز فصالحوه على الجزية، ثم سار إلى جرجان وعسكر فيها ببسطام وصالحه ملكها على الجزية، وتلقاه مرزبان صول قبل جرجان فكان معه حتى جبل خراج وأراه مروجها وسدها، وقيل: كان فتحها سنة ثلاثين أيام عثمان، ثم أرسل سويد إلى الأصبهبذ صاحب طبرستان على الموادعة فقبل وعقد له بذلك.

فتح أذربيجان

ولما افتتح نعيم الري أمره عمر أن يبعث سماك بن خرشة الأنصاري إلى أذربيجان مدداً لبكر بن عبد اللّه، وكان بكر بن عبد اللّه عندما سار إلى أذربيجان لقي بالجبال أسفنديار بن فرخزاد مهزوماً من واقعة نعيم معهم أبو حرود دون همذان وهو أخو رستم فهزمه بكير وأسره. فقال له: أسكني عندك فأصالح لك على البلاد وإلا فروا إلى الجبال وتركوها، وتحصن من تحصن إلى يوم ما فأمسكه وسارت البلاد صلحاً إلا الحصون. وقدم عليه سماك وهو في مثل ذلك وقد افتتح ما يليه وافتتح عتبة بن فرقد ما يليه.

وكتب بكير إلى عمر يستأذنه في التقدم، فأذن له أن يتقدم نحو الباب وأن يستخلف على ما افتتح، فاستخلف عتبة بن فرقد وجمع له عمر أذربيجان كلها، فولى عتبة سماك بن خرشة على ما افتتحه بكير. وكان بهرام بن الفرخزاد قصد طريق عتبة وأقام به في عسكره مقتصداً بل معترضاً له فلقيه عتبة وهزمه، وبلغ خبره إلى الإسفنديار وهو أسير عند بكير فصالحه واتبعه أهل أذربيجان كلهم. وكتب بكير وعتبة بذلك إلى عمر وبعثوا بالأخماس فكتب عمر لأهل أذربيجان كتاب الصلح، ثم غزا عتبة بن فرقد شهرزور والصامغان ففتحهما بعد قتال على الجزية والخراج، وقتل خلقاً من الأكراد، وكتب إلى عمر إن فتوحي بلغت أذربيجان فولاه إياها وولى هرثمة بن عرفجة الموصل.

فتح الموصل الباب

ولما افتتح أمر عمر بكير بن عبد اللّه بغزو الباب والتقدم إليها، بعث سراقة بن عمرو على حربها فسار من البصرة، وجعل مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة وعلى إحدى مجنبتيه ابن أسيد الغفاري وعلى الأخرى بكير بن عبد اللّه المتقدم وعلى المقاسم سلمان بن ربيعة الباهلي، ورد أبا موسى الأشعري إلى البصرة مكان سراقة، ثم أمد سراقة بحبيب بن مسلمة من الجزيرة وجعل مكانه زياد بن حنظلة، وسار سراقة من أذربيجان، فلما وصل عبد الرحمن بن ربيعة في مقدمته على الباب والملك بها يومئذ من ولد شهريار الذي أفسد بني إسرائيل وأغزى الشام منهم، فكاتبه منهم شهريار واستأمنه على أن يأتي فحضر وطلب الصلح والموادعة على أن تكون جزيته النصر والطاعة للمسلمين، قال: ولا تسومون الجزية فتوهنونا لعدوكم. فسيره عبد الرحمن إلى سراقة فقبل منه وقال: لا بد من الجزية على من يقيم ولا يحارب العدو. فأجابوا، وكتبوا إلى عمر فأجاز ذلك.

فتح موقان وجبال أرمينية

ولما فرغ سراقة من الباب بعث أمراء إلى مايليه من الجبال

المحيطة بأرمينية، فأرسل بكير بن عبد الله إلى موقان، وحبيب بن مسلمة إلى تفليس، وحذيفة بن اليمان إلى جبال اللان، وسلمان بن ربيعة إلى الوجه الآخر. وكتب بالخبر إلى عمر فلم يرج تمام ذلك لأنه فرج عظيم، ثم بلغه موت سراقة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة، فأقره عمر على فرج الباب وأمره بغزو الترك. ولم يفتح أحد من أولئك الأمراء إلا بكير بن عبد الله فإنه فتح موقان، ثم تراجعوا على الجزية ديناراً عن كل حالم.

غزو الترك

ولما أمر عبد الرحمن بن ربيعة بغزو الترك سار حتى جاء الباب وسار معه شهريار فغزا بلنجر وهم قوم من الترك ففروا منه وتحصنوا، وبلغت خلية على مائتي فرسخ من بلنجر وعاد بالظفر والغنائم. ولم يزل يردد الغزو فيهم إلى أيام عثمان فتذامر الترك وكانوا يعتقدون أن المسلمين لا يقتلون لأن الملائكة معهم تمنعهم، فأصابوا في هذه الغزاة رجلاً من المسلمين على غرة فقتلوه وتجاسروا، وقاتل عبد الرحمن فقتل وانكشف أصحابه، وأخذ الراية أخوه سلمان فخرج بالناس ومعه أبو هريرة الدوسي فسلكوا على جيلان إلى جرجان.

فتح خراسان

ولما عقدت الألوية للأمراء للانسياح في بلاد فارس كان الأحنف بن قيس منهم بخراسان، وقد تقدم أن يزدجر سار بعد جلولاء إلى الري وبها أبان جادويه من مرازبته فأكرهه على خاتمه، وكتب الضحاك بما اقترح من ذخائر يزدجرد وختم عليها وبعثها إلى سعد، فردها عليه على حكم الصلح الذي عقد له. ثم سار يزدجرد والناس معه إلى أصبهان ثم إلى كرمان ثم رجع إلى مرو من خراسان فنزلها وأمن من العرب، وكاتب الهرمزان وأهل فارس بالأهواز والفيرزان وأهل الجبال فنكثوا جميعاً وهزمهم الله وخذلهم وأذن عمر للمسلمين بالانسياح في بلادهم.

وأمر الأمراء كما قدمناه وعقد لهم الأولوية، فسار الأحنف إلى خراسان سنة ثماني عشرة وقيل اثنين وعشرين فدخلها من الطبسين، وافتتح هراة عنوة واستخلف عليها صحار بن فلال العبدي، ثم سار إلى مرو الشاهجان، وأرسل إلى نيسابور مطرف بن عبد الله بن الشخير، وإلى سرخس الحرث بن حسان، ودرج يزدجرد من مرو الشاهجان إلى مرو الروذ فملكها الأحنف ولحقه مدد أهل الكوفة هنالك، فسار إلى مرو الروذ واستخلف على الشاهجان حارثة بن النعمان الباهلي وجعل مدد الكوفة في مقدمته، فالتقوا هم ويزدجرد على بلخ فهزموه وعبر النهر فلحقهم الأحنف وقد فتح الله عليهم، ودخل أهل خراسان في الصلح ما بين نيسابور وطخارستان. وولى على طخارستان ربعي بن عامر، وعاد إلى مرو الروذ فنزلها وكتب إلى عمر بالفتح، فكتب إليه أن يقتصر على ما ودون النهر.

وكان يزدجرد وهو بمرو الروذ قد استنجد ملوك الأمم وكتب إلى ملك الصين وإلى خاقان ملك الترك وإلى ملك الصغد، فلما عبر يزدجرد النهر منهزماً أنجده خاقان في الترك وأهل فرغانة والصغد، فرجع يزدجرد وخاقان إلى خراسان فنزلا بلخ، واجتمع المسلمون إلى الأحنف بمرو الروذ ونزل المشركون عليه، ثم رحل ونزل سفح الجبل في عشرين ألفاً من أهل البصرة وأهل الكوفة وتحصن العسكران بالخنادق وأقاموا يقاتلون أياماً، وصحبهم الأحنف ليلة وقد خرج فارس من الترك يضرب بطبله ويتلوه اثنان كذلك، ثم يخرج العسكر بعدهم عادة لهم، فقتل الأحنف الأول ثم الثاني ثم الثالث فلما مر بهم خاقان تشاءم وتطير ورجع أدراجه فارتحل وعاد إلى بلخ، وبلغ الخبر إلى يزدجرد وكان على مرو الشاهجان محاصراً لحارثة بن النعمان ومن معه فجمع خزائنه وأجمع اللحاق بخاقان على بلخ، فمنعه أهل فارس وحملوه على صلح المسلمين والركون إليهم وإنهم أوفى ذمة من الترك، فأبى من ذلك وقاتلهم فهزموه واستولوا على الخزائن.

ولحق بخاقان وعبروا النهر إلى فرغانة، وأقام يزدجرد ببلد الترك أيام عمر كلها إلى أن كفر أهل خراسان أيام عثمان. ثم جاء أهل فارس إلى الأحنف ودفعوا إليه الخزائن والأموال وصالحوه واغتبطوا بملكة المسلمين، وقسم الأحنف الغنائم فأصاب الفارس ما أصابه يوم القادسية. ثم نزل الأحنف بلخ وأنزل أهل الكوفة في كورها الأربع ورجع إلى مرو الروذ فنزلها، وكتب بالفتح إلى عمر.

وكان يزدجرد لما عبر النهر لقي رسوله الذي بعثه إلى ملك الصين قد رده إليه يسأله أن يعيف له المسلمين الذين فعلوا به هذه الأفاعيل مع قلة عددهم، ويسأل عن وفائهم ودعوتهم وطاعة أمرائهم ووقوفهم عند الحدود ومآكلهم وشرابهم وملابسهم ومراكبهم، فكتب إليه بذلك كله. وكتب إليه ملك الصين أن يسالمهم فإنهم لا يقوم لهم شيء بما قام نردبل، فأقام يزدجرد بفرغانة بعهد من خاقان.

ولما وصل الخبر إلى عمر خطب الناس وقال: ألا وإن ملك المجوسية قد ذهب فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يضر بمسلم، ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر

كيف تعملون فلا تبدلوا فيستبدل الله بكم غيركم، فإني لا أخاف على هذه الأمة إلا أن تؤتى من قبلكم.

فتوح فارس

ولما خرج الأمراء الذين توجهوا إلى فارس من البصرة افترقوا وسار كل أمير إلى جهته وبلغ ذلك أهل فارس فافترقوا إلى بلدانهم وكانت تلك هزيمتهم وشتاتهم. وقصد مجاشع بن مسعود من الأمراء سابور وأردشيرخرت فاعترضه الفرس دونهما بتوج فقتلهم وأثخن فيهم، وافتتح توج واستباحها وصالحهم على الجزية وأرسل بالفتح والأخماس إلى عمر، فكانت واقعة توج هذه ثانية لواقعة العلاء بن الحضرمي عليهم أيام طاوس ثم دعوا إلى الجزية فرجعوا فأقروا بها.

إصطخر: وقصد عثمان بن أبي العاص إصطخر فزحفوا إليه بجور، فهزمهم وأثخن فيهم وفتح جور وإصطخر ووضع عليهم الجزية وأجابه الهربذ إليها، وكان ناس منهم فروا فتراجعوا إليها. وبعث بالفتح والخمس إلى عمر. ثم فتح كازرون والنوبندجان وغلب على أرضها، ولحق به أبو موسى فافتتح مدينة شيراز وأرجان على الجزية والخراج، وقصد عثمان جينا ففتحها ولقي الفرس بناحية جهرم فهزمهم وفتحها. ثم نقض شهرك في أول خلافة عثمان فبعث عثمان بن أبي العاص ابنه وأخاه الحكم وأتته الأمداد من البصرة وعليهم عبيد الله بن معمر وشبل بن معبد والتقوا بأرض فارس، فانهزم شهرك وقتله الحكم بن أبي العاص وقيل: سوار بن همام العبدي.

وقيل: أن ابن شهرك حمل على سوار فقتله. ويقال: أن إصطخر كانت سنة ثماني وعشرين وقيل: تسع وعشرين. وقيل: إن عثمان بن أبي العاص أرسل أخاه الحكم من البحرين إلى فارس في ألفين، فسار إلى توج وعلى مجنبتيه الجارود وأبو صفرة والد المهلب، وكان كسرى أرسل شهرك في الجنود للقائهم، فالتقوا بتوج وهزمهم إلى سابور وقتل شهرك وحاصروا مدينة سابور حتى صالح عليها ملكها واستعانوا به على قتال إصطخر، ثم مات عمر رضي الله عنه، وبعث عثمان بن عفان عبيد الله بن معمر مكان عثمان بن أبي العاص وأقام محاصراً إصطخر وأراد ملك سابور الغدر به، ثم أحضر وأصابت عبيد الله حجارة منجنيق فمات بها. ثم فتحوا المدينة فقتلوا بها بشراً كثيراً منهم.

بساودارا بجرد: وقصد سارية بن زنيم الكناني من أمراء الانسياح مدينة بسا ودارا بجرد فحاصرهم، ثم استجاشوا بأكراد فارس واقتتلوا بصحراء، وقام عمر على المنبر ونادي: يا سارية الجبل! يشير إلى جبل كان إزاءه أن يستند إليه، فسمع ذلك سارية ولجأ إليه ثم انهزم المشركون، وأصاب المسلمون مغانمهم وكان فيها صفت جوهر فاستوهبه سارية من الناس، وبعث به مع الفتح إلى عمر، ولما قدم به الرسول سأله عمر فأخبره عن كل شيء ودفع إليه السفط فأبى إلا أن يقسم على الجند فرجع به وقسمه سارية.

كرمان: وقصد سهيل بن عدي من أمراء الانسياح كرمان ولحق به عبد الله بن عبد الله بن عتبان، وحشد أهل كرمان واستعانوا بالقفص وقاتلوا المسلمين في أدنى أرضهم فهزموهم بإذن الله، وأخذ المسلمون عليهم الطريق بل الطرق ودخل البشير بن عمرو العجلي إلى جيرفت وقتل في طريقه مرزبان كرمان، وعبد الله بن عبد الله من مفازة شير وأصابوا ما أرادوا من إبل وشاء. وقيل: إن الذي فتح كرمان عبد الله بل بديل بن ورقاء الخزاعي. ثم أتى الطبسين من كرمان، ثم قدم على عمر وقال: أقطعني الطبسين، فأراد أن يفعل فقال: إنهما رستاقان فامتنع.

سجستان: وقصد عاصم بن عمرو من الأمراء سجستان ولحق به عبد الله بن عمير وقاتلوا أهل سجستان في أدنى أرضهم فهزموهم وحصروهم بزرنج ومخروا أرض سجستان، ثم طلبوا الصلح على مدينتهم وأرضها، على أن الفرات حمى، ويسقي أهل سجستان على الخراج وكانت أعظم من خراسان وأبعد فروجاً يقاتلون القندهار والترك وأمماً أخرى، فلما كان زمن معاوية هرب الشاه من أخيه زنبيل ملك الترك إلى بلد من سجستان يدعى آمل، وكان على سجستان سلم بن زياد بن أبي سفيان فعقد له وأنزله آمل، وكتب إلى معاوية بذلك فأقره بغير نكير وقال: إن هؤلاء قوم غدر وأهون ما يجيء منهم إذا وقع اضطراب أن يغلبوا على بلاد آمل بأسرها، فكان كذلك. وكفر الشاه بعد معاوية وغلب على بلاد آمل واعتصم منه زنبيل بمكانه، وطمع هو في زرنج فحاصرها حتى جاءت الأمداد من البصرة فأجفلوا عنها.

مكران: وقصد الحكم بن عمرو التغلبي من أمراء الانسياح بلد مكران ولحق بها شهاب بن المخارق وجاء سهيل بن عدي وعبد الله بن عبد الله بن عتبان وانتهوا جميعاً إلى دوين وأهل مكران على شاطئية وقد أمدهم أهل السند بجيش كثيف، ولقيهم المسلمون فهزموهم وأثخنوا فيهم بالقتل، واتبعوهم أياماً حتى انتهوا إلى النهر ورجعوا إلى مكران فأقاموا بها وبعثوا إلى عمر بالفتح والأخماس مع صحّار العبدي، وسأله عمر عن البلاد فأثنى عليها شراً، فقال: والله لا يغزوها جيش لي أبداً وكتب إلى سهيل والحكم أن لا يجوز مكران أحد من جنودكما.

خبر الأكراد

كان أمر أمراء الانسياح لما فصلوا إلى النواحي، حتى اجتمع ببيروذ بين نهر تيري ومنادر من أهل الأهواز جموع من الأعاجم أعظمهم الأكراد، وكان عمر قد عهد إلى أبي موسى أن يسير إلى أقصى تخوم البصرة رداءً للأمراء المنساحين، فجاء إلى بيروذ وقتل تلك الجموع قتالاً شديداً وقتل المهاجر بن زياد. ثم وهن الله المشركين فتحصنوا منه في قلة وذلة، فاستخلف أبو موسى عليهم أخاه الربيع بن زياد وسار إلى أصبهان مع المسلمين الذين يحاصرونها حتى إذا فتحت رجع إلى البصرة. وفتح الربيع بن زياد بيروذ وغنم ما فيها ولحق به بالبصرة وبعثوا إلى عمر بالفتح والأخماس، وأراد ضبة بن محصن العنزي أن يكون في الوفد فلم يجبه أبو موسى، فغضب وانطلق شاكياً إلى عمر بانتقائه ستين غلاماً من أبناء الدهاقين لنفسه وأنه أجاز الحطيئة بألف وولى زياد بن أبي سفيان أمور البصرة، واعتذر أبو موسى وقبله عمر. وكان عمر قد اجتمع إليه جيش من المسلمين فبعث عليهم سلمة بن قيس الأشجعي ودفعهم إلى الجهاد على عادته وأوصاهم، فلقوا عدواً من الأكراد المشركين فدعوهم إلى الإسلام أو الجزية، فأبوا وقاتلوهم وهزموهم وقتلوا وسبوا وقسموا الغنائم، ورأى سلمة جوهراً في سفط فاسترضى المسلمين وبعث به إلى عمر فسأل الرسول عن أمور الناس حتى أخبره بالسفط فغضب وأمر به فوجئ في عنقه، وقال: أسرع قبل أن تفترق الناس ليقسمه سلمة فيهم فباعه سلمة وقسمه في الناس وكان الفص يباع بخمسة دراهم وقيمته عشرون ألفاً.

مقتل عمر وأمر الشورى وبيعة عثمان رضي الله عنه

كان للمغيرة بن شعبة مولى من نصارى العجم اسمه أبو لؤلؤة وكان يشدد عليه في الخراج، فلقي يوماً عمر في السوق فشكى إليه وقال: أعدني على المغيرة فإنه يثقل علي في الخراج درهمين في كل يوم، قال: وما صناعتك؟ قال: نجار حداد نقاش، فقال: ليس ذلك بكثير على هذه الصنائع وقد بلغني أنك تقول أصنع رحى تطحن بالريح فاصنع لي رحى. قال: أصنع لك رحى يتحدث الناس بها أهل المشرق والمغرب، وانصرف، فقال عمر: توعدني العلج.

فلما أصبح خرج عمر إلى الصلاة واستوت الصفوف ودخل أبو لؤلؤة في الناس وبيده خنجر برأسين نصابه في وسطه، فضرب عمر ست ضربات إحداهما تحت سرته، وقتل كلياً بن أبي البكير الليثي، وسقط عمر فاستخلف عبد الرحمن بن عوف على الصلاة واحتمل إلى بيته.

ثم دعا عبد الرحمن وقال: أريد أن أعهد إليك! قال: فتشير علي بها؟ قال: لا! قال: والله لا أفعل. قال: فهبني صمتاً حتى أعهد إلى النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض. ثم دعا علياً وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن معهم، وقال انتظروا طلحة ثلاثاً فإن جاء وإلا فاقضوا أمركم، وناشد الله من يفضي إليه الأمر منهم أن يحمل أقاربه على رقاب الناس، وأوصاهم بالأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان أن يحسن إلى محسنهم ويعفوا عن مسيئهم، وأوصى بالعرب فإنهم مادة الإسلام أن تؤخذ صدقاتهم فتوضع في فقرائهم، وأوصى بذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم، ثم قال: اللهم قد بلغت لقد تركت الخليفة من بعدي على أنقى من الراحة.

ثم دعا أبا طلحة الأنصاري فقال: قم على باب هؤلاء ولا تدع أحداً يدخل إليهم حتى يقضوا أمرهم. ثم قال: يا عبد الله بن عمر اخرج فانظر من قتلني؟ قال: يا أمير المؤمنين قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة. قال: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل سجد لله سجدة واحدة. ثم بعث إلى عائشة يستأذنها في دفنه مع رسول الله ﷺ وأبي بكر فأذنت له. ثم قال: يا عبد الله إن اختلف القوم فكن مع الأكثر، فإن تساووا فكن مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف.

ثم أذن للناس فدخل المهاجرون والأنصار فقال لهم: أهذا عن ملأ منكم؟ فقالوا: معاذ الله! وجاء علي وابن عباس فقعدا عنه رأسه، وجاء الطبيب فسقاه نبيذاً فخرج متغيراً ثم لبناً فخرج كذلك، فقال له: إعهد! قال: قد فعلت! ولم يزل يذكر الله إلى أن توفي ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، وصلى عليه صهيب وذلك لعشر سنين وستة أشهر من خلافته.

وجاء أبو طلحة الأنصاري ومعه المقداد بن الأسود، وقد كان أمرهما عمر أن يجمعا هؤلاء الرهط الستة في مكان ويلزماهم أن يقدموا للناس من يختارونه منهم وإن اختلفوا كان الاتباع للأكثر وإن تساووا حكموا عبد الله بن عمر أو اتبعوا عبد الرحمن بن عوف، ويؤجلهم في ذلك ثلاثاً يصلي فيها بالناس صهيب ويحضر عبد الله بن عمر معهم مشيراً ليس له شي من الأمر وطلحة شريكهم إن قدم في الثلاث ليال. فجمعهم أبو طلحة والمقداد في بيت المسور بن مخرمة وقيل: في بيت عائشة.

وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب فحصبهما سعد وأقامهما وقال: تريدان أن تقولا حضرنا وكنا في أهل الشورى. ثم دار بينهم الكلام وتنافسوا في الأمر، فقال عبد الرحمن: أيكم يخرج منها نفسه ويجتهد فيوليها أفضلكم وأنا أفعل ذلك؟ فرضي القوم وسكت علي. فقال: ما تقول على شريطة أن تؤثر الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ولا تألو الأمة نصحاً وتعطينا العهد بذلك. قال: وتعطوني أنتم مواثيقكم على أن تكونوا معي على من خالف وترضوا من اخترت؟ وتواثقوا. ثم قال لعلي: أنت تقول إنك أحق ممن حضر بقرابتك وسوابقك وحسن أثرك في الدين ولم تبعد في نفسك؟ فمن ترى أحق فيه بعدك من هؤلاء؟ قال: عثمان! وخلا بعثمان فقال له مثل ذلك فقال: علي.

ودار عبد الرحمن لياليه كلها يلقى أصحاب رسول الله ﷺ ومن يوافي المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس ويشيرهم إلى صبيحة الرابع، فأتى منزل المسرور بن مخرمة وخلا فيه بالزبير وسعد أن يتركا الأمر لعلي أو عثمان فاتفقا على علي، ثم قال له سعد: بايع لنفسك وأرحنا فقال: قد خلعت لهم نفسي على أن أختار ولم أفعل ما أردتها.

ثم استدعى عبد الرحمن علياً وعثمان فناجى كلاً منهما إلى أن رضوا بل إلى أن صلوا الصبح ولا يعلم أحد ما قالوا. ثم جمع المهاجرين وأهل السابقة من الأنصار وأمراء الأجناد حتى غص المسجد بهم، فقال: أشيروا عليّ، فأشار عمار بعلي ووافقه المقداد. فقال ابن سرح: إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان ووافقه عبد الله بن أبي ربيعة، فتفاوضا وتشاتما ونادى سعد: يا عبد الرحمن أفرغ قبل أن يفتتن الناس. فقال: نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً.

ثم قال لعلي: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده، قال: أرجوا أن أجتهد بل أن أفعل بمبلغ علمي وطاقتي. وقال لعثمان مثل ذلك فقال: نعم. فرفع رأسه إلى المسجد ويده في يد عثمان، وقال: اللّهم اشهد أني قد جعلت ما في عنقي من ذلك في عنق عثمان فبايعه الناس.

ثم قدم طلحة في ذلك اليوم فأتى عثمان، فقال له عثمان: أنت على الخيار في الأمر وإن أبيت رددتها. فقال: أكل الناس بايعوك؟ قال: نعم. قال: رضيت، ولا أرغب عما أجمع عليه.

وكانت العجم بالمدينة يستروح بعضها إلى بعض، ومر أبو لؤلؤة بالهرمزان وبيده الخنجر الذي طعن به عمر فتناوله من يده وأطال النظر فيه ثم رده إليه، ومعهم جفينة نصراني من أهل الحيرة. فلما طعن عمر من الغداة قال عبد الرحمن بن أبي بكرة لعبيد الله بن عمر: إني رأيت هؤلاء الثلاثة يتناجون فلما رأوني افترقوا وسقط منهم هذا الخنجر، فعدا عبيد الله عليهم فقتلهم ثلاثتهم، وأمسكه سعد بن أبي وقاص وجاء به إلى عثمان بعد البيعة وهو في المسجد فأشار عليّ بقتله، وقال عمرو بن العاص: لا يقتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم، فجعلها عثمان دية واحتملها وقال: أنا وليه. ثم قام عثمان وصعد المنبر وبايعه الناس كافة، وولى لوقته سعد بن أبي وقاص على الكوفة وعزل المغيرة وذلك بوصية عمر لأنه أوصى بتولية سعد، وقال لم أعزله عن سوء ولا خيانة منه. وقيل إنما ولاه وعزل المغيرة بعد سنة وإنما أقر لأول أمره عمال عمر كلهم.

نقض أهل الإسكندرية وفتحها

لما سار هرقل إلى القسطنطينية وفارق الشام واستولى المسلمون على الإسكندرية وبقي الروم بها تحت أيديهم، فاتبعوا هرقل فاستنجدوه فبعث إليهم عسكراً مع منويل الخصي ونزلوا بساحل الإسكندرية لمنعهم المقوقس من الدخول إليه، فساروا إلى مصر ولقيهم عمرو بن العاص والمسلمون فهزموهم واتبعوهم إلى الإسكندرية، وأثخنوا فيهم بالقتل وقتل قائدهم منويل الخصي، وكانوا قد أخذوا في مسيرهم إلى مصر أموال أهل القرى فردها عمرو عليهم بالبينة ثم هدم سور الإسكندرية ورجع إلى مصر.

ولاية الوليد بن عقبة الكوفة وصلح أرمينية وأذربيجان

وفي سنة خمس وعشرين عزل عثمان سعداً عن الكوفة لأنه كان افترض من عبد الله بن مسعود من بيت المال قرضاً، وتقاضاه ابن مسعود فلم يوسر سعد فتلاحيا وتناجيا بالقبيح وافترقا يتلاومان، وتداخلت بينهما العصبية، وبلغ الخبر عثمان فعزل سعداً واستدعى الوليد بن عقبة من الجزيرة، وكان على غربها منذ ولاه عمر، فولاه عثمان على الكوفة فكان مكان سعد. ثم عزل عتبة بن فرقد عن أذربيجان فنقضوا، فغزاهم الوليد وعلى مقدمته عبد الله بن شبيل الأحمسي فأغار على أهل موقان والبرزند والطيلسان ففتح وغنم وسبى، وطلب أهل كور أذربيجان الصلح فصالحهم على صلح حذيفة ثمانمائة درهم وقبض المال.

ثم بث سراياه وبعث سلمان بن ربيعة الباهلي إلى أهل أرمينية في اثني عشر ألفاً فسار فيها وأثخن، ثم انصرف إلى الوليد وعاد الوليد إلى الكوفة وجعل طريقه على الموصل، فلقيه كتاب عثمان بأن الروم أجلبوا على معاوية بالشام فابعث إليه رجلاً من أهل النجدة والبأس في عشرة آلاف عند قراءة الكتاب.

فبعث الوليد الناس مع سلمان بن ربيعة ثمانية آلاف ومضوا إلى الشام ودخلوا أرض الروم مع حبيب بن مسلمة، فشنوا عليه بالغارات وافتتحوا الحصون، وقيل: إن الذي أمد حبيب بن مسلمة بسلمان بن ربيعة هو سعيد بن العاص، وذلك أن عثمان كتب إلى معاوية أن يغزي حبيب بن مسلمة في أهل الشام أرمينية فبعثه وحاصر قاليقلا حتى نزلوا على الجلاء أو الجزية، فجلا كثيراً إلى بلاد الروم وأقام فيها فيمن معه أشهرا.

ثم بلغه أن بطريك أرميناقس وهي بلاد ملطية وسيواس وقونية إلى خليج قسطنطينية قد زحف إليه في ثمانين ألفاً، فاستنجد معاوية فكتب إلى عثمان فأمر سعيد بن العاص بإمداد حبيب فأمده بسلمان في ستة آلاف، وبيّت الروم فهزمهم وعاد إلى قاليقلا، ثم سار في البلاد فجاء بطريك خلاط وبيده أمان عياض بن غنم وحمل ما عليهم من المال فنزل حبيب خلاط، ثم سار منها فصالحه صاحب السيرجان ثم صاحب أردستان ثم صالح أهل دبيل بعد الحصار، ثم أهل بلاد السيرجان كلهم. ثم أتى أهل شميشاط فحاربوه فهزمهم وغلب على حصونهم، ثم صالحه بطريك خرزان على بلاده وسار إلى تفليس فصالحوه وفتح عدة حصون ومدن تجاورها.

وسار ابن ربيعة الباهلي إلى أران فصالح أهل البيلقان على الجزية والخراج، ثم أهل بردعة كذلك وقراها وقاتل أكراد البوشنجان وظفر بهم وصالح بعضهم على الجزية، وفتح مدينة شمكور وهي التي سميت بعد ذلك المتوكلية، وسار سلمان حتى فتح فلية وصالحه صاحب كسكر على الجزية وملكوا شروان وسائر ملوك الجبال إلى مدينة الباب وانصرفوا. ثم غزا معاوية الروم وبلغ عمورية ووجد ما بين أنطاكية وطرسوس من الحصون خاليا فجمع فيها العساكر حتى رجع وخربها.

ولاية عبد الله بن أبي سرح على مصر وفتح إفريقية

وفي سنة ست وعشرين عزل عثمان عمرو بن العاص عن خراج مصر واستعمل مكانه عبد الله بن أبي سرح أخاه من الرضاعة، فكتب إلى عثمان يشكو عمرا فاستقدمه واستقل عبد الله بالخراج والحرب وأمره بغزو إفريقية. وقد كان عمرو بن العاص سنة إحدى وعشرين سار من مصر إلى برقة فصالح أهلها على الجزية ثم سار إلى طرابلس فحاصرها شهراً، وكانت مكشوفة السور من جانب البحر وسفن الروم في مرساها فحصر القوم في بعض الأيام وانكشف أمرها لبعض المسلمين المحاصرين فاقتحموا البلد بين البحر والبيوت فلم يكن للروم ملجأ إلا سفنهم.

وارتفع الصياح فأقبل عمرو بعساكره فدخل البلد ولم تفلت الروم إلا بما خف في المراكب، ورجع إلى مدينة صبرة وقد كانوا قد آمنوا بمنعة طرابلس فصبحهم المسلمون ودخلوها عنوة، وكمل الفتح ورجع عمرو إلى برقة فصالحه أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار جزية وكان أكثر أهل برقة لواتة. وكان يقال أن البربر ساروا بعد قتل ملكهم جالوت إلى المغرب وانتهوا إلى لوبيا ومراقية كورتان من كور مصر، فصارت زناتة ومغيلة من البربر إلى المغرب فسكنوا الجبال وسكنت لوتة برقة وتعرف قديماً إنطابلس، وانتشروا إلى السوس ونزلت هوارة مدينة لبدة ونزلت نفوسة مدينة صبرة وجلوا من كان هنالك من الروم، وأقام الأفارق وهم خدم الروم وبقيتهم على صلح يؤدونه إلى من غلب عليهم إلى أن كان صلح عمرو بن العاص. ثم إن عبد الله بن أبي سرح كان أمره عثمان بغزو إفريقية سنة خمس وعشرين، وقال له: إن فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم. وأمر عقبة بن نافع عبد القيس على جند وعبد الله بن نافع بن الحرث على آخر وسرحهما، فخرجوا إلى إفريقية في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها.

ثم لما ولي عبد الله بن أبي سرح استأذن عثمان في ذلك واستمده، فاستشار عثمان الصحابة فأشاروا به، فجهز العساكر من المدينة وفيهم جماعة من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين وابن الزبير وساروا مع عبد الله بن أبي سرح سنة ست وعشرين، ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة، ثم ساروا إلى طرابلس فنهبوا الروم عندها، ثم ساروا إلى إفريقية وبثوا السرايا في كل ناحية، وكان ملكهم جرير يملك ما بين طرابلس وطنجة تحت ولاية هرقل ويحمل إليه الخراج، فلما بلغه الخبر جمع مائة وعشرين ألفاً من العساكر ولقيهم على يوم وليلة من سبيطلة دار ملكهم وأقاموا يقتتلون ودعوه إلى الإسلام أو الجزية فاستكبر. ولحقهم عبد الرحمن بن الزبير مدداً بعثه عثمان لما أبطأت أخبارهم، وسمع جرجير بوصول المدد ففت في عضده، وشهد ابن الزبير معهم

القتال، وقد غاب ابن أبي سرح وسأل عنه فقيل: إنه سمع منادي جرجير يقول: من قتل ابن أبي سرح فله مئة ألف دينار وأزوجه ابنتي فخاف وتأخر عن شهود القتال، فقال له ابن الزبير: تنادي أنت بأن من قتل جرجير نفلته مئة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده، فخاف جرجير أشد منه.

ثم قال عبد الله بن الزبير لابن أبي سرح أن يترك جماعة من أبطال المسلمين المشاهير متأهبين للحرب، ويقاتلون الروم بباقي العسكر إلى أن يضجروا فركب عليهم بالآخرين على غرة فلعل الله ينصرنا عليهم، ووافق على ذلك أعيان أصحابة ففعلوا ذلك وركبوا من الغد إلى الزوال وألحوا عليهم حتى اتبعوهم ثم افترقوا، وأركب عبد الله الفريق الذين كانوا مستريحين فكبروا وحملوا حملة رجل واحد حتى غشوا الروم في خيامهم فانهزموا وقتل كثير منهم، وقتل ابن الزبير جرجير وأخذت ابنته سبية فنفلها ابن الزبير، وحاصر ابن أبي سرح سبيطلة ففتحها وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف. وبث جيوشه في البلاد إلى قفصة فسبوا وغنموا، وبعث عسكر إلى حصن الأجم وقد اجتمع به أهل البلاد فحاصره وفتحه على الأمان، ثم صالحه أهل إفريقية على ألفي ألف وخمسمئة ألف دينار. وأرسل ابن الزبير بالفتح والخمس فاشتراه مروان بن الحكم بخمسمئة ألف دينار، وبعض الناس يقول أعطاه إياه ولا يصح، وإنما أعطى ابن أبي سرح خمس الخمس من الغزوة الأولى. ثم رجع عبد الله بن أبي سرح إلى مصر بعد مقامه سنة وثلاثة أشهر.

ولما بلغ هرقل أن أهل إفريقية صالحوه بذلك المال الذي أعطوه غضب عليهم وبعث بطريقاً يأخذ منهم مثل ذلك، فنزل قرطاجنة وأخبرهم بما جاء له فأبوا وقالوا: قد كان ينبغي أن يساعدنا بما نزل بنا. فقاتلهم البطريك وهزمهم وطرد الملك الذي ولوه بعد جرجير، فلحق بالشام وقد اجتمع الناس على معاوية بعد علي رضي الله عنه، فاستجاشه على إفريقية فبعث معه معاوية بن حديج السكوني في عسكر، فلما وصل الإسكندرية وهلك الرومي ومضى ابن حديج في العساكر فنزل قونية، وسرح إليه البطريق ثلاثين ألف مقاتل وقاتلهم معاوية فهزمهم معاوية، وحاصر حصن جلولاء فامتنع معه حتى سقط ذات سوره فملكه المسلمون وغنموا ما فيه.

ثم بث السرايا ودوخ البلاد فأطاعوا، وعاد إلى مصر. ولما أصاب ابن أبي سرح من إفريقية ما أصاب ورجع إلى مصر خرج قسطنطين بن هرقل غازياً إلى الإسكندرية في ستمائة مركب وركب المسلمون البحر مع ابن أبي سرح ومعه معاوية في أهل الشام. فلما تراءى الجمعان أرسوا جميعاً، وباتوا على أمان والمسلمون يقرأون ويصلون. ثم قرنوا سفنهم عند الصباح واقتتلوا ونزل الصبر واستحر القتل، ثم انهزم قسطنطين جريحاً في فل قليل من الروم، وأقام ابن أبي سرح بالموضع أياماً ثم قفل وسمى المكان ذات الصواري والغزوة كذلك لكثرة ما كان بها من الصواري، وكانت هذه الغزوة سنة إحدى وثلاثين وقيل: أربع وثلاثين. وسار قسطنطين إلى صقلية وعرفهم خبر الهزيمة فنكروه وقتلوه في الحمام.

فتح قبرص

كان أبو عبيدة لما احتضر استخلف على عمله عياض بن غنم وكان ابن عمه وخاله وقيل: استخلف معاذ بن جبل، واستخلف عياض بعده سعد بن حذيم الجمحي، ومات سعيد فولى عمر مكانه عمير بن سعيد الأنصاري، ومات يزيد بن أبي سفيان فجعل عمر مكانه على دمشق أخاه معاوية، فاجتمعت له دمشق والأردن، ومات عمر وهو كذلك وعمير على حمص وقنسرين، ثم استعفى عمير عثمان في مرضه فأعفاه وضم حمص وقنسرين إلى معاوية، ومات عبد الرحمن بن أبي علقمة وكان على فلسطين فضم عثمان عمله إلى معاوية.

فاجتمع الشام كله لمعاوية لسنتين من إمارة عثمان. وكان يلح على عمر في غزو البحر وكان وهو بحمص كتب إليه في شأن قبرص أن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلاب قبرص وصياح دجاجهم، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صف لي البحر وراكبه! فكتب إليه: هو خلق كبير يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء إن ركد فلق القلوب وإن تحرك أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة وراكبه دود على عود إن مال غرق وإن نجا برق. فكتب عمر إلى معاوية: والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً، وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول شيء من الأرض فيستأذن الله كل يوم وليلة في أن يغرق الأرض فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر، وبالله لمسلم واحد أحب إلي مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لي في ذلك فقد علمت ما لقي العلاء مني. ثم كاتب ملك الروم عمر وقاربه وأقصر عن الغزو، ثم ألح معاوية على عثمان بعده في غزو البحر فأجابه على خيار الناس وطوعهم.

فاختار الغزو جماعة من الصحابة فيهم، أبو ذر وأبو الدرداء وشداد بن أوس وعبادة بن الصامت وزوجه أم حرام بنت ملحان، واستعمل عليهم عبد الله بن قيس حليف بني فزارة،

وساروا إلى قبرص وجاء عبد اللّه بن أبي سرح من مصر فاجتمعوا عليها وصالحهم أهلها على سبعة آلاف دينار بكل سنة، ويؤدون مثلها للروم، ولا منعة لهم عن المسلمين ممن أرادهم من سواهم وعلى أن يكونوا عيناً للمسلمين على عدوهم، ويكون طريق الغزو للمسلمين عليهم. وكانت هذه الغزاة سنة ثماني وعشرين وقيل تسعة وعشرين وقيل ثلاثة وثلاثين، وماتت فيها أم حرام سقطت عن دابتها حين خرجت من البحر.

وكان النبي ﷺ أخبرها بذلك. وأقام عبد اللّه بن قيس الحاسبي على البحر فغزا خمسين غزاة لم ينكب فيها أحد، إلى أن نزل في بعض أيام في ساحل المرقي من أرض الروم فثاروا إليه فقتلوه، ونجا الملاح وكان قد استخلف سفيان بن عوف الأزدي على السفن فجاء إلى أهل المرقي وقاتلهم حتى قتل وقتل معه جماعة.

ولاية ابن عامر على البصرة وفتوح فارس وخراسان

وفي السنة الثالثة من خلافة عثمان خرج أبو موسى من البصرة غازياً إلى أهل آمد والأكراد لما كفروا وحمل ثقله على أربعين بغلة من القصر بعد أن كان حض على الجهاد مشياً، فأتى الناس عليه ومضوا إلى عثمان فاستعفوه منه وتولى كبر ذلك غيلان بن جرشة فعزله عثمان وولى عبد اللّه بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس وهو ابن خال عثمان، وكان ابن خمس وعشرين سنة.

وجمع له جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاص من عمان والبحرين، فصرف عبيد اللّه بن معمر عن خراسان وبعثه إلى فارس، وولى على خراسان مكانه عمير بن عثمان بن سعد فأثخن فيها حتى بلغ فرغانة ولم يدع كورة إلا أصلحها. ثم ولى عليها سنة أربع أمير بن أحمر اليشكري، وعلى كرمان عبد الرحمن بن عبيس، واستعمل على سجستان في سنة أربع عمران بن الفضيل البرجمي، وعلى كرمان عاصم بن عمرو فجاشت فارس وانتقضت بعبيد اللّه بن عمرو وجمعوا له فلقيهم بباب إصطخر فقتل عبيد اللّه وانهزم جنده. وبلغ الخبر عبد اللّه بن عامر فاستنفر أهل البصرة.

وسار بالناس، وعلى مقدمته عثمان بن أبي العاص وفي المجنبتين أبو برزة الأسلمي ومعقل بن يسار وعلى الخيل عمران بن حصين، ولقيهم بإصطخر فقتل منهم مقتلة عظيمة وانهزموا وفتح إصطخر عنوة، وبعدها دارا بجرد. وسار إلى مدينة جور وهي أردشيرخرت، وكان هرم بن حيان محاصراً لها فلما جاء ابن عامر فتحها. ثم عاد إلى إصطخر وقد نقضت فحاصرها طويلاً ورماها بالمجانيق واقتحمها عنوة ففني فيها أكثر أهل البيوتات والأساورة لأنهم كانوا لجأوا إليها، ووطئ أهل فارس وطأة لم يزالوا منها في ذل. وكتب إلى عثمان بالفتح فكتب إليه أن يستعمل على كور فارس هرم بن حيان اليشكري وهرم بن حيان العبسي والخريت بن راشد وأخاه المنجاب من بني سلمة والبرجمان الهجيمي، وأن يفرق كور خراسان بين ستة نفر: الأحنف بن قيس على المرو، وحبيب بن قرط اليربوعي على بلخ، وخالد بن عبد اللّه بن زهير على هراة، وأمير بن أحمر اليشكري على طوس، وقيس بن هبيرة السلمي على نيسابور.

ثم جمع عثمان خراسان كلها لقيس، واستعمل أمير بن أحمر اليشكري على سجستان، ثم بعده عبد الرحمن بن سمرة من قرابة ابن عامر بن كريز، فلم يزل عليها حتى مات عثمان وعمران على كرمان وعمير بن عثمان بن مسعود على فارس وابن كريز القشيري على مكران، وخرج على قيس بن هبيرة بعد موت عثمان ابن عمه عبد اللّه بن حازم كما نذكره.

ولما افتتح ابن عامر فارس أشار عليه الناس بقصد خراسان وكانوا قد انتقضوا فسار إليها وقيل عاد إلى البصرة، واستخلف على فارس شريك بن الأعور الحارثي فبنى مسجدها. فلما دخل البصرة أشار عليه الأحنف بن قيس وحبيبٌ بن أوس بالمسير إلى خراسان فتجهز واستخلف على البصرة زياد بن أبيه، وسار إلى كرمان وقد نكثوا فبعث لحربهم مجاشع بن مسعود السلمي ولحرب سجستان الربيع بن زياد الحارثي، وسار هو إلى حوالي نيسابور وتقدمهم الأحنف بن قيس إلى الطبسين حصنان هما بابا خراسان فصالحه أهلها، وسار إلى قوهستان فقاتل أهلها حتى أحجرهم في حصنهم ولحقه ابن عامر فصالحوه على ستمائة ألف درهم، وقيل كان المتولي حرب قوهستان أمير بن أحمر اليشكري.

ثم بعث ابن عامر السرايا إلى أعمال نيسابور ففتح رستاق رام عنوة وباخرز وجيرفت عنوة، وبعث الأسود بن كلثوم بن عدي الرباب -وكان ناسكاً- إلى بيهق من أعمالها فدخل البلد من ثلمة كانت في سورها وقاتل حتى قتل وظفر أخوه أدهم بالبلد. وفتح ابن عامر بشت -بالشين المعجمة- من أعمال نيسابور ثم اسفارين ثم قصد نيسابور، وبعدها استولى على أعمالها فحاصرها شهراً وكان بها أربع مرازبة من فارس فسأل واحد منهم الأمان على أن يدخلهم ليلاً، وفتح لهم الباب وتحصن الأكبر منهم في

حصنها حتى صالح على ألف ألف درهم.

وولى ابن عامر على نيسابور قيس بن الهيثم السلمي. وبعث جيشاً إلى نساوابورد فصالحهم أهلها، وآخر إلى سرخس فصالحوا مرزبانها على أمان مائة رجل لم يدخل فيها نفسه فقتله واقتحمها عنوة، وجاء مرزبان طوس فصالحه على ستمائة ألف درهم، وبعث جيشاً إلى هراة مع عبد الله بن حازم فصالح مرزبانها على ألف ألف درهم. ثم بعث مرزبان مرو فصالح على ألف ألف ومائتي ألف وأرسل إليه ابن عامر حاتم بن النعمان الباهلي، ثم بعث الأحنف بن قيس إلى طخارستان فصالح في طريقه رستاقاً على ثلاثمائة ألف وعلى أن يدخل رجل يؤذن فيه ويقيم حتى ينصرف ومر إلى مرو الروذ، وزحف إليه أهلها فهزمهم وحاصرهم وكان مرزبانها من أقارب باذان صاحب اليمن فكتب إلى الأحنف متوسلاً بذلك في الصلح فصالحه على ستمائة ألف. ثم اجتمع أهل الجوزجان والطالقان والفارياب في جمع عظيم ولقيهم الأحنف فقاتلهم قتالاً شديداً ثم انهزموا فقتلوا قتلاً ذريعاً.

ورجع الأحنف إلى مرو الروذ، وبعث الأقرع بن حابس إلى فلهم بالجوزجان فهزمهم وفتحها عنوة، ثم فتح الأحنف الطالقان صلحاً والفارياب صلحاً وقيل بل فتحها أمير بن أحمر، ثم سار الأحنف إلى بلخ وهي مدينة طخارستان فصالحوه على أربعمائة ألف وقيل سبعمائة واستعمل عليها أسيد بن المنشمر، ثم سار إلى خوارزم على نهر جيحون فامتنعت عليه فرجع إلى بلخ. وقد استوفى أسيد قبض المال وكتبوا إلى ابن عامر. ولما سار مجاشع بن مسعود إلى كرمان كما ذكرناه وكانوا قد انتقضوا ففتح حميد عنوة وبنى بها قصراً ينسب إليه، ثم سار إلى السيرجان وهي مدينة كرمان فحاصرها وفتحها عنوة وجلى كثيراً من أهلها. ثم فتح جيرفت عنوة ودوخ نواحي كرمان وأتى القفص وقد تجمع له من العجم من أهل الجلاء، وقاتلهم فظفر وركب كثير منهم البحر إلى كرمان وسجستان، ثم نزل العرب إلى منازلهم وأراضيهم.

وسار الربيع بن زياد الحارثي بولاية ابن عامر كما قدمناه إلى سجستان فقطع المفازة من كرمان حتى أتى حصن زالق فأغار عليهم يوم المهرجان وأسر دهقانهم، فافتدى بما غمر عنزة قاعة من الذهب والفضة، وصالحوه على صلح فارس. وصار إلى زريخ ولقيه المشركون دونها فهزمهم وقتلهم وفتح حصوناً عدة بينها وبينه، ثم انتهى إليها وقاتله أهلها فأحجرهم وحاصرهم، وبعث مرزبانها في الأمان ليعضد فأمنه وجلس له على شلو من أشلاء القتلى وارتفق بآخر وفعل أصحابه مثله.

فرعب المرزبان من ذلك وصالح على ألف جام من الذهب يحملها ألف وصيف، ودخل المسلمون المدينة، ثم سار منها إلى وادي سناورد فعبره إلى القرية التي كان رستم الشديد يربط بها فرسه، فقاتلهم وظفر بهم، وعاد إلى زريخ وأقام بها سنة ثم سار بها إلى ابن عامر واستخلف عليها عاملاً فأخرجوه وامتنعوا. فكانت ولاية الربيع سنة ونصف سنة سبى فيها أربعين ألف رأس وكان الحسن البصري يكتب له.ثم استعمل ابن عامر على سجستان عبد الرحمن بن سمرة فسار إليها وحاصر زريخ حتى صالحوه على ألفي ألف درهم وألفي وصيف، وغلب على ما بينهما وبين الكش من ناحية الهند وعلى ما بينها وبين الدادين من ناحية المرجح.

ولما انتهى إلى بلد الدادين حاصرهم في بلد الزور حتى صالحوه ودخل على الزور وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان، فأخذهما وقطع يده، وقال للمرزبان: دونك الذهب والجوهر وإنما قصدت أنه لا يضر ولا ينفع. ثم فتح كامل وزابلستان وهي بلاد غزنة فتحها صلحاً.

ثم عاد إلى زريخ إلى أن اضطرب أمر عثمان، فاستخلف عليها أمير بن أحمر وانصرف فأخرجه أهلها وانتقضوا. ولما كمل الفتح لابن عامر في فارس وخراسان وكرمان وسجستان قال له الناس: لم يفتح لأحد ما فتح عليك فقال: لا جرم لأجعلن شكري لله على ذلك أن أخرج محروماً من موقفي هذا. فأحرم بعمرة من نيسابور وقدم على عثمان واستخلف على خراسان قيس بن الهيثم، فسار قيس في أرض طخارستان ودوخها وامتنع عليه أهل سنجار فافتتحها عنوة.

ولاية سعيد بن العاص الكوفة

كان عثمان لأول ولايته قد ولى على الكوفة الوليد بن عقبة استقدمه إليها من عمله بالجزيرة وعلى بني تغلب وغيرهم من العرب، فبقي على ولاية الكوفة خمس سنين وكان أبو زبيد الشاعر قد انقطع إليه من أخواله بني تغلب ليد أسداها إليه وكان نصرانياً فأسلم على يده وكان يغشاه بالمدينة والكوفة، وكان أبو زبيد يشرب الخمر فكان بعض السفهاء يتحدث بذلك في الوليد لملازمته إياه. ثم عدا الشباب من الأزد بالكوفة على رجل من خزاعة فقتلوه ليلا في بيته وشهد عليهم أبو شريح الخزاعي فقتلهم الوليد فيه بالقسامة، وأقام آباءهم للوليد على حقه وكانوا ممن يتحدثون فيه، وجاؤوا إلى ابن مسعود بمثل ذلك فقال: لا نتبع عورة من استتر عنا. وتغيظ الوليد من هذه المقالة وعاتب ابن مسعود عليها،

ثم عمد أحد أولئك الرهط إلى ساحر قد أتى به الوليد فاستفتى ابن مسعود فيه وأفتى بقتله، وحبسه الوليد ثم أطلقه، فغضبوا وخرجوا إلى عثمان شاكين من الوليد وإنه يشرب الخمر. فاستقدمه عثمان وأحضره وقال: رأيتموه يشرب؟ قالوا: لا وإنما رأيناه يقيء الخمر فأمر سعيد بن العاص فجلده وكان علي حاضراً فقال: انزعوا خميصته للجلد. وقيل: أن علياً أمر ابنه الحسن أن يجلده فأبى فجلده عبد الله بن جعفر، فلما بلغ أربعين قال: أمسك جلد رسول الله ﷺ وأبو بكر أربعين وجلد عمر ثمانين وكل سنة.

ولما وقعت هذه الوقعة عزل عثمان الوليد عن الكوفة وولى مكانه سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية، مات سعيد الأول كافراً وكان يكنى أحيحة، وخالد ابنه عم سعيد الثاني ولاه رسول الله ﷺ صنعاء وكان يكتب له واستشهد يوم مرج الصفر، وربي سعيد الثاني في حجر عثمان فلما فتح الشام أقام مع معاوية ثم استقدمه عثمان وزوجه وأقام عنده حتى كان من رجال قريش. فلما استعمله عثمان وذلك سنة ثلاثين سار إلى الكوفة ومعه الأشتر وأبو خيفة الغفاري وجندب بن عبد الله والصعب بن جثامة، وكانوا شخصوا مع الوليد ليعينوه فصاروا عليه، فلما وصل خطب الناس وحذرهم وتعرف الأحوال، وكتب إلى عثمان أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغلب الروادف والتابعة على أهل الشرف والسابقة، فكتب إليه عثمان أن يفضل أهل السابقة ويجعل من جاء بعدهم تبعاً ويعرف لكل منزلته ويعطيه حقه. فجمع الناس وقرأ عليهم كتاب عثمان وقال: أبلغوني حاجة ذي الحاجة. وجعل القراء في سمرة فلم ترض أهل الكوفة ذلك وفشت المقالة، وكتب سعيد إلى عثمان فجمع الناس واستشارهم فقالوا: أصبت لا تطمع في الأمور من ليس لها بأهل فتفسد. فقال: يا أهل المدينة! إني أرى الفتن دبت إليكم وإني أرى أن أتخلص الذي لكم وأنقله إليكم من العراق. فقالوا: وكيف ذلك؟ قال: تبيعونه ممن شئتم بمالكم في الحجاز واليمن. ففعلوا ذلك واستخلصوا ما كان لهم بالعراق، منهم طلحة ومروان والأشعث بن قيس، ورجال من القبائل اشتروا ذلك بأموال كانت لهم بخيبر ومكة والطائف.

غزو طبرستان

وفي هذه السنة غزا سعيد بن العاص طبرستان ولم يغزها أحد قبله، وقد تقدم أن الأصبهبذ صالح سويد بن مقرن عنها أيام عمر على مال، فغزاها سعيد في هذه السنة ومعه ناس من أصحاب رسول الله ﷺ منهم الحسن والحسين وابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن الزبير وحذيفة بن اليمان في غيرهم، ووافق خروج ابن عامر من البصرة إلى خراسان فنزل نيسابور، ونزل سعيد قومس وهي صلح كان حذيفة صالحهم عليه بعد نهاوند. فأتى سعيد جرجان فصالحوه على مائتي ألف، ثم أتى متاخماً جرجان على البحر فقاتله أهلها.

ثم سألوا الأمان فأعطاهم على أن لا يقتل منهم رجلاً واحداً، وفتحوا فقتلهم أجمعين إلا رجلاً وقتل معهم محمد بن الحكم بن أبي عقيل جد يوسف بن عمرو، وكان أهل جرجان يعطون الخراج تارة مئة ألف وأخرى مائتين وثلاثمائة وربما منعوه. ثم امتنعوا وكفروا فانقطع طريق خراسان من ناحية قومس إلا على خوف شديد، وصار الطريق إلى خراسان من فارس كما كان من قبل حتى ولي قتيبة بن مسلم خراسان. وقدمها يزيد بن المهلب فصالح المرزبان وفتح البحيرة ودهستان وصالح أهل جرجان على صلح سعيد.

غزو حذيفة الباب وأمر المصاحف

وفي سنة ثلاثين هذه صرف حذيفة من غزو الري إلى غزو الباب مدداً لعبد الرحمن بن ربيعة وأقام له سعيد العاص بأذربيجان رداءً حتى عاد بعد مقتل عبد الرحمن كما مر، فأخبره بما رأى من اختلاف أهل البلدان في القرآن وأن أهل حمص يقولون: قراءتنا خير من قراءة غيرنا وأخذناها عن المقداد، وأهل دمشق يقولون كذلك، وأهل البصرة عن أبي موسى، وأهل الكوفة عن ابن مسعود. وأنكر ذلك واستعظمه وحذر من الاختلاف في القرآن، ووافقه من حضر من الصحابة والتابعين، وأنكر عليه أصحاب ابن مسعود فأغلظ عليهم وخطأهم، فأغلظ له ابن مسعود فغضب سعيد وافترق المجلس.

وسار حذيفة إلى عثمان فأخبره وقال: أنا النذير العريان فأدرك الأمة. فجمع عثمان الصحابة فرأوا ما رآه حذيفة، فأرسل عثمان إلى حفصة أن ابعثي إلينا بالصحف ننسخها وكانت هذه الصحف هي التي كتبت أيام أبي بكر، فإن القتل لما استحر في القرّاء يوم اليمامة قال عمر لأبي بكر: أرى أن تأمر بجمع القرآن لئلا يذهب الكثير منه لفناء القراء، فأبى أولاً وقال: إن رسول الله ﷺ لم يفعله. ثم استبصر ورجع إلى رأي عمر وأمر زيد ثابت بجمعه من الرقاع والعسب وصدور الرجال، وكتب في الصحف فكانت عند أبي بكر ثم عند عمر ثم عند حفصة. وأرسل عثمان

فأخذها، وأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف، وقال: إذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش ففعلوا. ونسخوا المصاحف فبعث إلى كل أفق بمصحف يعتمد عليه، وحرق ما سوى ذلك فقبل ذلك الصحابة في سائر الأمصار، ونكره عبد الله بن مسعود في الكوفة حتى نهاهم عن ذلك وحملهم عليه.

مقتل يزدجرد

لما خرج ابن عامر من البصرة إلى فارس وافتتحها هرب يزدجرد من جور وهي أردشير خره في سنة ثلاثين، فبعث ابن عامر في أثره مجاشع بن مسعود وقيل: هرم بن حيان اليشكري وقيل: العنسي، فاتبعه إلى كرمان فهرب إلى خراسان وهلك الجند في طريقهم بالثلج، فلم يسلم إلا مجاشع ورجل معه وكان مهلكهم على خمسة فراسخ من السيرجان، ولحق يزدجرد بمرو ومعه خرزاذ أخو رستم، فرجع عنه إلى العراق ووصى به ما هو به مرزبان مرو فسأله في المال فمنعه وخافه على نفسه وعلى مرو واستجاش بالترك فبيتوه وقتل أصحابه وهرب يزدجرد ماشياً إلى شط المرغاب وآوى إلى بيت رجل ينقل الأرحاء، فلما نام قتله ورماه في النهر. وقيل إنما بيته أهل مرو ولما جاؤوا إلى بيت الرجل أخذوه وضربوه فاقر بقتله فقتلوه وأهله، واستخرجوا يزدجرد من النهر وحملوه في تابوت إلى إصطخر فدفن في ناوس هنالك.

وقيل: إن يزدجرد هرب من وقعة نهاوند إلى أرض أصبهان واستأذن عليه بعض رؤسائها وحجب فضرب البواب وشجه، فرحل عن أصبهان إلى الري، وجاء صاحب طبرستان وعرض عليه بلاده فلم يجبه ومضى من فوره ذلك إلى سجستان، ثم إلى مرو في ألف فارس، وقيل: بل أقام بفارس أربع سنين ثم بكرمان سنتين وطلبه دهقانها في شيء فمنعه فطرده عن بلاده، وأقام بسجستان خمس سنين، ثم نزل خراسان ونزل مرو ومعه الرهن من أولاد الدهاقين وفرخزاذ وكاتب ملوك الصين وفرغانة والخزار وكابل.

وكان دهقان مرو قد منعه الدخول خوفاً من مكره ووكل ابنه بحفظ الأبواب، فعمد يزدجرد يوماً إلى مرو ليدخلها فمنعه ابن الدهقان وأظهر عصيان أبيه في ذلك، وقيل بل أراد يزدجرد أن يجعل ابن أخيه دهقاناً عليها فعمل في هلاكه، وكتب إلى نيزك طرخان يستقدمه لقتل يزدجرد ومصالحة العرب عليه وأن يعطيه في اقتتاعه كل يوم ألف درهم، فكتب نيزك إلى يزدجرد يعده المساعدة على العرب وإنه يقدم عليه فيلقاه منفرداً عن العسكر وعن فرخزاذ، فأجابه إلى ذلك بعد أن امتنع فرخزاذ واتهمه يزدجرد في امتناعه فتركه لشأنه بعد أن أخذ خطّه برضاه بذلك.

وسار إلى نيزك فاستقبله بأشياء وجاء به إلى معسكره ثم سأله أن يزوجه ابنته فأنف يزدجرد من ذلك وسبه فعلا رأسه بالمقرعة فركض منهزماً وقتل أصحابه، وانتهى إلى بيت طحان فمكث فيه ثلاثاً لم يطعم، ثم عرض عليه الطعام فقال: لا أطعم إلا بالزمزمة، فسأل من زمزم له حتى أكل ووشى المزمزم بأمره إلى بعض الأساورة فبعث إلى الطحان بخنقه وإلقائه في النهر، فأبى من ذلك وجحده، فدل عليه ملبسه وعرف المسك فيه فأخذوا ما عليه وخنقوه وألقوه في الماء فجعله أسقف مرو في تابوت ودفنه.

وقيل: بل سار يزدجرد من كرمان قبل وصول العرب إليها إلى مرو في أربعة آلاف على الطبسين وقهستان، ولقيه قبل مرو قائدان من الفرس متعاديين فسعى أحدهما في الآخر، ووافقه يزدجرد في قتله، ونمى الخبر إليه فبيت يزدجرد وعدوه، فهرب إلى رحى على فرسخين من مرو، وطلب منه الطحان شيئاً فأعطاه منطقته فقال: إنما أحتاج إلى أربعة دراهم، فقال: ليست معي. ثم نام فقتله الطحان وألقى شلوه في الماء. وبلغ خبر قتله إلى المطران بمرو فجمع النصارى وعظم عليهم من حقوق سلفه فدفنوه وبنوا له ناووساً وأقاموا له مأتماً، بعد عشرين سنة من ملكه ستة عشر منها في محاربة العرب وانقرض ملك الساسانية بموته.

ويقال: إن قتيبة حين فتح الصغد وجد جاريتين من ولد المخدج ابنه كان قد وطئ أمه بمرو فولدت هذا الغلام بعد موته ذاهب الشق فسمي المخدج، وولد له أولاد بخراسان وجد قتيبة هاتين الجاريتين من ولده فبعث بهما إلى الحجاج، وبعث بهما إلى الوليد أو بإحداهما فولدت له يزيد الناقص.

ظهور الترك بالثغور

كان الترك والخزر يعتقدون أن المسلمين لا يقتلون لما رأوا من شدتهم وظهورهم في غزواتهم حتى أكمنوا لهم في بعض الغياض فقتلوا بعضهم فتجاسروا على حربهم. وكان عبد الرحمن بن ربيعة على ثغور أرمينيا إلى الباب، استخلفه عليها سراقة بن عمر وأقره عمر وكان كثير الغزو في بلاد الخزر، وكثيراً ما كان يغزو بلنجر وكان عثمان قد نهاه عن ذلك فلم يرجع، فغزاهم سنة اثنين وثلاثين وجاء الترك لمظاهرتهم وتذامروا فاشتدت الحرب بينهم وقتل عبد الرحمن كما مر، وافترقوا فرقتين فرقة سارت نحو

الباب لقوا سلمان بن ربيعة قد بعثه سعيد بن العاص من الكوفة مدداً للمسلمين بأمر عثمان فساروا معه، وفرقة سلكوا على جيلان وجرجان فيهم سلمان الفارسي وأبو هريرة.

ثم استعمل سعيد بن العاص على الباب سلمان بن ربيعة مكان أخيه، وبعث معه جنداً من أهل الكوفة حذيفة بن اليمان وأمدهم عثمان بحبيب بن مسلمة في جند الشام وسلمان أمير على الجميع، ونازعه حبيب الأمارة فوقع الخلاف، ثم غزا حذيفة بعد ذلك ثلاث غزوات آخرها عند مقتل عثمان.

وخرجت جموع الترك سنة اثنين وثلاثين من ناحية خراسان في أربعين ألفاً عليهم قارن من ملوكهم فانتهى إلى الطبسين، واجتمع له أهل بادغيس وهراة وقهستان، وكان على خراسان يومئذ قيس بن الهيثم السلمي استخلفه عليها ابن عامر عند خروجه إلى مكة محرماً فدوخ جهتها، وكان معه ابن عمه عبد الله بن حازم فقال لابن عامر: اكتب لي على خراسان عهداً إذا خرج منها قيس ففعل، فلما أقبلت جموع الترك قال قيس لابن حازم: ما ترى؟ قال: أرى أن تخرج عن البلاد فإن عهد ابن عامر عندي بولايتها. فترك منازعته وذهب إلى ابن عامر، وقيل أشار عليه أن يخرج إلى ابن عامر يستحثه، فلما خرج أظهر عهد ابن عامر له بالولاية عند مغيب قيس.

وسار ابن حازم للقاء الترك في أربعة آلاف. ولما التقى الناس أمر جيشه بإيقاد النار في أطراف رحالهم فهاج العدو على دهش، وغشيهم ابن حازم بالناس متتابعين، فانهزموا وأثخن المسلمون فيهم بالقتل والسبي. وكتب ابن حازم بالفتح إلى ابن عامر فأقره على خراسان فلم يزل والياً عليها إلى حرب الجمل، فأقبل إلى البصرة وبقي أهل البصرة بعد غزوة ابن حازم هذه حتى غزوا المنتقضين من أهلها وعادوا جهزوا كتيبة من أربعة آلاف فارس هنالك.

بدء الانتقاض على عثمان رضي الله عنه

لما استكمل الفتح واستكمل للملة الملك ونزل العرب بالأمصار في حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة والكوفة والشام ومصر، وكان المختصون بصحابة الرسول ﷺ والإقتداء بهدية وآدابه المهاجرين والأنصار من قريش وأهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم. وأما سائر العرب من بني بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة والأزد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم، فلم يكونوا من تلك الصحبة بمكان إلا قليلاً منهم وكان لهم في الفتوحات قدم.

فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة من الصحابة ومعرفة حقهم، وما كانوا فيه من الذهول والدهش لأمر النبوة وتردد الوحي وتنزل الملائكة، فلما انحسر ذلك العباب وتنوسي الحال بعض الشيء وذل العدو واستفحل الملك، كانت عروق الجاهلية تنبض ووجدوا الرياسة عليهم للمهاجرين والأنصار من قريش وسواهم، فأنفت نفوسهم منه، ووافق أيام عثمان فكانوا يظهارون الطعن في ولاته بالأمصار، والمؤاخذة لهم باللحظات والخطرات، والاستبطاء عليهم في الطاعات والتجني بسؤال الاستبدال منهم والعزل، ويفيضون في النكير على عثمان.

وفشت المقالة في ذلك من أتباعهم وتنادوا بالظلم من الأمراء في جهاتهم وانتهت الأخبار بذلك إلى الصحابة بالمدينة، فارتابوا لها وأفاضوا في عزل عثمان وحمله على عزل أمرائه. وبعث إلى الأمصار من يأتيه بصحيح الخبر: محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعبد الله بن عمر إلى الشام، وعمار بن ياسر إلى مصر وغيرهم إلى سوى هذه، فرجعوا إليه فقالوا: ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعيان المسلمين ولا عوامهم إلا عماراً فإنه استماله قوم من الأشرار انقطعوا إليه منهم عبد الله بن سبأ ويعرف بابن السواد، كان يهودياً وهاجر أيام عثمان فلم يحسن إسلامه وأخرج من البصرة فلحق بالكوفة ثم بالشام وأخرجوه فلحق بمصر، وكان يكثر الطعن على عثمان ويدعو في السر لأهل البيت ويقول: إن محمداً يرجع كما يرجع عيسى. وعنه أخذ ذلك أهل الرجعة، وإن علياً وصي رسول الله ﷺ حيث لم يجز وصيته وإن عثمان أخذ الأمر بغير حق، ويحرض الناس على القيام في ذلك والطعن على الأمراء. فاستمال الناس بذلك في الأمصار وكاتب به بعضهم بعضاً، وكان معه خالد بن ملجم وسودان بن حمران وكنانة بن بشر فثبطوا عماراً عن المسير إلى المدينة.

وكان مما أنكروه على عثمان إخراج أبي ذر من الشام ومن المدينة إلى الربذة، وكان الذي دعا إلى ذلك شدة الورع من أبي ذر وحمله الناس على شدائد الأمور والزهد في الدنيا وأنه لا ينبغي لأحد أن يكون عنده أكثر من قوت يومه، ويأخذ بالظاهر في ذم الادخار بكنز الذهب والفضة. وكان ابن سبأ يأتيه فيغريه بمعاوية ويعيب قوله: المال مال الله، ويوهم أن في ذلك احتجانه للمال وصرفه على المسلمين، حتى عتب أبو ذر في ذلك معاوية فاستعتب له وقال: سأقول مال المسلمين، وأتى ابن سبأ إلى أبي الدرداء وعبادة بن الصامت بمثل ذلك فدفعوه، وجاء به عبادة إلى

معاوية وقال: هذا الذي بعث عليك أبا ذر.

ولما كثر ذلك على معاوية شكاه إلى عثمان فاستقدمه وقال له: ما لأهل الشام يشكون منك؟ فأخبره، فقال: يا أبا ذر لا يمكن حمل الناس على الزهد وإنما علي أن أقضي بينهم بحكم الله وأرغبهم في الاقتصاد، فقال أبو ذر: لا نرضى من الأغنياء حتى يبذلوا المعروف ويحسنوا للجيران والإخوان ويصلوا القرابة، فقال له كعب الأحبار: من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه فضربه أبو ذر فشجه وقال: يا ابن اليهودية ما أنت وهذا؟ فاستوهب عثمان من كعب شجته فوهبه.

ثم استأذن أبو ذر عثمان في الخروج من المدينة وقال: إن رسول الله ﷺ أمرني بالخروج منها إذا بلغ البناء سلعاً، فأذن له، ونزل الربذة وبنى بها مسجداً وأقطعه عثمان صرمة من الإبل وأعطاه مملوكين وأجرى عليه رزقاً، وكان يتعاهد المدينة فعد أولئك الرهط خروج أبي ذر فيما ينقمونه على عثمان مع ما كانوا يعدون عليه من إعطاء مروان خمس مغانم إفريقية والصحيح أنه اشتراه بخمسمائة ألف فوضعها عنه.

ومما عدوا عليه أيضاً زيادة النداء الثالث على الزوراء يوم الجمعة، وإتمامه الصلاة في منى وعرفة مع أن الأمر في حياة رسول الله ﷺ والشيخين بعده كان على القصر.

ولما سأله عبد الرحمن واحتج عليه بذلك قال له: بلغني أن بعض حاج اليمن والجفاة جعل صلاة المقيم ركعتين من أجل صلاتي وقد اتخذت بمكة أهلاً ولي بالطائف مال. فلم يقبل ذلك عبد الرحمن فقال: زوجتك بمكة إنما تسكن بسكناك ولو خرجت ومالك بالطائف على أكثر من مسافة القصر.

وأما حاج اليمن فقد شهدوا ذلك من رسول الله ﷺ والشيخين بعده وقد كان الإسلام ضرب بجرانه. فقال عثمان: هذا رأي رأيته. فمن الصحابة من تبعه على ذلك ومنهم من خالفه.

ومما عدوا عليه سقوط خاتم النبي ﷺ من يده في بئر أريس على ميلين من المدينة فلم يوجد. وأما الحوادث التي وقعت في الأمصار فمنها قصة الوليد بن عقبة وقد تقدم ذكرها وأنه عزله على شرب الخمر واستبدله بسعيد بن العاص منه، وكان وجوه الناس وأهل القادسية يسمرون عنده مثل مالك بن كعب الأرحبي والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس من النخع وثابت بن قيس الهمداني وجندب بن زهير العامري وجندب بن كعب الأزدي وعروة بن الجعد وعمرو بن الحمق الخزاعي وصعصعة بن صوحان وأخوه زيد وابن الكواء وكميل بن زياد وعمير بن ضابئ وطليحة بن خويلد.

وكانوا يفيضون في أيام الوقائع وفي أنساب الناس وأخبارهم وربما ينتهون إلى الملاحاة ويخرجون منها إلى المشاتمة والمقاتلة، ويعذلهم في ذلك حجّاب سعيد بن العاص فيهزمونهم ويضربونهم. وقد قيل: إن سعيداً قال يوماً: إنما هذا السواد بستان قريش، فقال له الأشتر: السواد الذي أفاء الله علينا بأسيافنا تزعم أنه بستان لك ولقومك؟ وخاض القوم في ذلك، فأغلظ لهم عبد الرحمن الأزدي صاحب شرطته فوثبوا عليه وضربوه حتى غشي عليه، فمنع سعيد بعدها السمر عنده. فاجتمعوا في مجالسهم يثلبون سعيداً وعثمان، والسفهاء يغشونهم.

فكتب سعيد وأهل الكوفة إلى عثمان في إخراجهم، فكتب أن يلحقوهم بمعاوية وكتب إلى معاوية أن نفراً خلقوا الفتنة فقم عليهم وانههم وإن أنست منهم رشداً فاقبل منهم وإن أعيوك فارددهم علي، فأنزلهم معاوية وأجرى عليهم ما كان لهم بالعراق، وأقاموا عنده يحضرون مائدته ثم قال لهم يوماً: أنتم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة وقد أدركتم بالإسلام شرفاً وغلبتم الأمم وحويتم مواريثهم وقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً ولو لم تكن قريش كنتم أذلة إذ أئمتكم لكم جنة فلا تفترقوا على جنتكم وإن أئمتكم يصبرون لكم على الجور ويحملون عنكم المؤنة والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ولا يحمدكم على الصبر، ثم تكونوا شركاءهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد وفاتكم.

فقال له صعصعة منهم: أما ما ذكرت من قريش فإنها لم تكن أكثر الناس ولا أمنعها في الجاهلية فتخوفنا، وأما ما ذكرت من الجنة فإن الجنة إذا اخترقت خلص إلينا. فقال معاوية: الآن عرفتكم وعلمت أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول وأنت خطيبهم ولا أرى لك عقلاً أعظم عليك أمر الإسلام وتذكرني في الجاهلية أخزى الله قوماً عظموا أمركم افقهوا عني ولا أظنكم تفقهون.

ثم ذكر شأن قريش وإن عزها إنما كان بالله في الجاهلية والإسلام ولم يكن بكثرة ولا شدة، وكانوا على أكرم أحساب وأكمل مروءة وبوأهم الله حرمه فآمنوا فيه مما أصاب العرب والعجم والأسود والأحمر في بلادهم، ثم ذكر بعثة النبي ﷺ وأن الله ارتضى له أصحاباً كان خيارهم قريشاً فبنى الملك عليهم وجعل الخلافة فيهم فلا يصلح ذلك إلا بهم، ثم قرعهم ووبخهم وهددهم، ثم أحضرهم بعد أيام، وقال: إذهبوا حيث شئتم لا ينفع الله بكم أحداً ولا يضره، وإن أردتم النجاة فالزموا الجماعة ولا

تبطرنكم النعمة وسأكتب إلى أمير المؤمنين فيكم.

وكتب إلى عثمان إنه قدم عليّ أقوام ليست لهم عقول ولا أديان أبطرهم العدل إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة، والله مبتليهم ثم فاضحهم وليسوا بالذين يأتون الأمر إلا مع غيرهم فإنه سعيداً ومن عنده عنهم. فخرجوا من عنده قاصدين الجزيرة ومروا بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص فأحضرهم، وقال: يا ألّة الشيطان لا مرحباً بكم ولا أهلاً قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعد في نشاط خسر الله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم. ثم مضى في توبيخهم على ما فعلوه وما قالوه لسعيد ومعاوية، فهابوا سطوته وطفقوا يقولون نتوب إلى الله أقلنا أقالك الله، حتى قال: تاب الله عليكم. وسرح الأشتر إلى عثمان تائباً فقال له عثمان: أحلك حيث تشاء، فقال: مع عبد الرحمن بن خالد قال ذاك إليك! فرجع إليه. وقيل إنهم عادوا إلى معاوية من القابلة ودار بينهم وبينه القول وأغلظوا له وأغلظ عليهم، وكتبوا إلى عثمان فأمر أن يردهم إلى سعيد، فردهم فأطلقوا ألسنتهم وضج سعيد منهم، وكتب إلى عثمان، فكتب إليه أن يسيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد فدار بينهم وبينه ما قدمناه.

وحدث بالبصرة مثل ذلك من الطعن وكان بدؤه فيما يقال شأن عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء، هاجر إلى الإسلام من اليهودية ونزل على حكيم بن جبلة العبدي وكان يتشيع لأهل البيت، ففشت مقالته بالطعن وبلغ ذلك حكيم بن جبلة فأخرجه وأتى الكوفة فأخرج أيضاً واستقر بمصر، وأقام يكاتب أصحابه بالبصرة ويكاتبونه والمقالات تفشو بالطعن والنكير على الأمراء. وكان حمران بن أبان أيضاً يحقد لعثمان أنه ضربه على زواجه امرأة في العدة وسيره إلى البصرة، فلزم ابن عامر وكان بالبصرة عامر بن عبد القيس وكان زاهدا متقشفا فأغرى به حمران صاحبه ابن عامر فلم يقبل سعايته، ثم أذن له عثمان فقدم المدينة ومعه قوم فسعوا بعامر بن عبد القيس إنه لا يرى التزويج ولا يأكل اللحم ولا يشهد الجمعة، فألحقه عثمان بمعاوية وأقام عنده حتى تبينت براءته وعرف فضله وحقه وقال: ارجع إلى صاحبك! فقال: لا أرجع إلى بلد استحل أهله مني ما استحلوا! وأقام بالشام كثير العبادة والانفراد بالسواحل إلى أن هلك.

ولما فشت المقالات بالطعن والإرجاف على الأمراء اعتزم سعيد بن العاص على الوفادة على عثمان سنة أربع وثلاثين، وكان قبلها قد ولى على الأعمال أمراء من قبله، فولى الأشعث بن قيس على أذربيجان وسعيد بن قيس على الري والنسير العجلي على همدان والسائب بن الأقرع على أصبهان ومالك بن حبيب على ماه وحكيم بن سلامة على الموصل وجرير بن عبد الله على قرقيسيا وسلمان بن ربيعة على الباب وجعل على حلوان عتيبة بن النهاس وعلى الحرب القعقاع بن عمرو، فخرجوا لأعمالهم وخرج هو وافداً على عثمان، واستخلف عمرو بن حريث وخلت الكوفة من الرؤساء. وأظهر الطاعنون أمرهم وخرج بهم يزيد بن قيس يريد خلع عثمان، فبادره القعقاع بن عمرو فقال له: إنما تستعفي من سعيد. وكتب يزيد إلى الرهط الذين عند عبد الرحمن بن خالد بحمص في القدوم، فساروا إليه وسبقهم الأشتر ووقف على باب المسجد يوم الجمعة يقول: جئتكم من عند عثمان وتركت سعيداً يريده على نقصان نسائكم على مئة درهم ورد أولى البلاء منكم إلى ألفين، ويزعم أن فيئكم بستان قريش. ثم استخلف الناس ونادى يزيد في الناس: من شاء أن يلحق بيزيد لرد سعيد فليفعل، فخرجوا وذوو الرأي يعذلونهم فلا يسمعون. وأقام أشراف الناس وعقلاؤهم مع عمرو بن حريث ونزل يزيد وأصحابه الجرعة قريباً من القادسية لاعتراض سعيد ورده، فلما وصل قالوا: ارجع فلا حاجة لنا بك قال: إنما كان يكفيكم أن تبعثوا واحداً إلي أو إلى عثمان. وقال مولى له: ما كان ينبغي لسعيد أن يرجع، فقتله الأشتر ورجع سعيد إلى عثمان فأخبره بخبر القوم وإنهم يختارون أبا موسى الأشعري، فولاه الكوفة وكتب إليهم: أما بعد فقد أمرت عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد والله لأقرضنكم عرضي ولأبذلنكم صبري ولأستصلحنكم بجهدي.

وخطب أبو موسى الناس، وأمرهم بلزوم الجماعة، وطاعة عثمان، فرضوا ورجع الأمراء من قرب الكوفة واستمر أبو موسى على عمله.

وقيل: إن أهل الكوفة أجمع رأيهم أن يبعثوا إلى عثمان ويعذلوه فيما نقم عليه، فأجمع رأيهم على عامر بن عبد القيس الزاهد وهو عامر بن عبد الله من بني تميم ثم من بني العنيس فأتاه وقال له: إن ناساً اجتمعوا ونظروا في أعمالك فوجدوك ركبت أموراً عظاماً، فاتق الله وتب إليه. فقال عثمان: ألا تسمعون إلى هذا الذي يزعم الناس أنه قارئ ثم يجيء يكلمني في المحقرات؟ والله لا يدري أين الله. فقال عامر: بل والله إني لأدري إن الله لبالمرصاد. فأرسل عثمان إلى معاوية وعبد الله بن أبي سرح وسعيد بن العاص وعبد الله بن عامر وعمرو بن العاص -وكانوا بطانته دون الناس- فجمعهم وشاورهم، وقال: إنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي وقد صنع الناس ما رأيتم فطلبوا أن أعزل عمالي وأرجع إلى ما يحبون فاجتهدوا رأيكم. فقال ابن عامر: أرى أن تشغلهم بالجهاد، وقال سعيد: متى تهلك قادتهم تفرقوا، وقال

معاوية: اجعل كفالتهم إلى أمرائهم وأنا أكفيك الشام، وقال عبد الله: استصلحهم بالمال. فردهم عثمان إلى أعمالهم وأمرهم بتجهيز الناس في البعوث ليكون لهم فيها شغل، ورد سعيد إلى الكوفة فلقيه الناس بالجزعة وردوه كما ذكرناه وولى أبا موسى وأمر عثمان حذيفة بغزو الباب فسار نحوه.

ولما كثر هذا الطعن في الأمصار وتواتر بالمدينة وكثر الكلام في عثمان والطعن عليه، وكان له منهم شيعة يذبون عنه: مثل زيد بن ثابت وأبي أسيد الساعدي وكعب بن مالك وحسان بن ثابت فلم يغنوا عنه، واجتمع الناس إلى علي بن أبي طالب وكلموه وعددوا عليه ما نقموه، فدخل على عثمان وذكر له شأن الناس وما نقموا عليه وذكّره بأفعال عمر وشدته ولينه هو لعماله وعرض عليه ما يخاف من عواقب ذلك في الدنيا والآخرة، فقال له: إن المغيرة بن شعبة ولينا وعمر ولاه، ومعاوية كذلك، وابن عامر تعرفون رحمه وقرابته. فقال له علي: إن عمر كان يطأ على صماخ من ولاه وأنت ترفق بهم وكانوا أخوف لعمر من غلامه يرفأ ومعاوية يستبد عليك، ويقول هذا أمر عثمان فلا تغير عليه. ثم تكالما طويلاً وافترقا وخرج عثمان على أثر ذلك، وخطب وعرض بما هو فيه من الناس وطعنهم وما يريدون منه، وإنهم تجرأوا عليه لرفقه بما لم يتجرأوا بمثله على ابن الخطاب، ووافقهم برجوعه في شأنه إلى ما يقدمهم.

حصار عثمان ومقتله رضي الله عنه وأثابه ورفع درجته

ولما كثرت الإشاعة في الأمصار بالطعن على عثمان وعماله، وكتب بعضهم إلى بعض في ذلك وتوالت الأخبار بذلك على أهل المدينة، جاؤوا إلى عثمان وأخبروه فلم يجدوا عنده علماً منه. وقال: أشيروا علي وأنتم شهود المؤمنين. قالوا: نبعث من تثق به إلى الأمصار يأتوك بالأخبار. فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعبد الله بن عمر إلى الشام وغيرهم إلى سواها فرجعوا، وقالوا: ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره علماء المسلمين ولا عوامهم، وتأخر عمار بن ياسر بمصر واستماله ابن السوداء وأصحابه خالد بن ملجم وسودان بن حمران وكنانة بن بشر، وكتب عثمان إلى أهل الأمصار إني قد رفع إلي أهل المدينة أن عمالي وقع منهم أضرار بالناس وقد أخذتهم بأن يوافوني في كل موسم فمن كان له حق فليحضر يأخذ بحقه مني أو من عمالي، أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين. فبكى الناس عند قراءة كتابه عليهم ودعوا له، وبعث إلى عمال الأمصار فقدموا عليه في الموسم: عبد الله بن عامر وابن أبي سرح ومعاوية وأدخل معهم سعيد بن العاص وعمراً وقال: ويحكم ما هذه الشكاية والإذاعة؟ وإني لأخشى والله أن يكونوا صادقين! فقالوا له: ألم يخبرك رسلك بأن أحداً لم يشافههم بشيء وإنما هذه إشاعة لا يحل الأخذ بها واختلفوا في وجه الرأي في ذلك. فقال عثمان: إن الأمر كائن وبابه سيفتح ولا أحب أن تكون لأحد علي حجة في فتحه وقد علم الله أني لم آل الناس خيراً فسكّنوا الناس وبينوا لهم حقوقهم. ثم قدم المدينة فدعا علياً وطلحة والزبير- ومعاوية حاضر- فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أنتم ولاة هذا الأمر واخترتم صاحبكم يعني عثمان وقد كبر وأشرف وفشت مقالة خفتها عليكم فما عنيتم به من شيء فأنا لكم به ولا تطمعوا الناس في أمركم. فانتهره علي، ثم ذهب عثمان يتكلم، وقال: اللذان كانا قبلي منعا قرابتهما احتساباً وإن رسول الله ﷺ كان يعطي قرابته وإن قرابتي أهل عيلة وقلة معاش فأعطيتهم فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه، فقالوا: أعطيت عبد الله بن خالد بن أسيد خمسين ألفاً ومروان خمسة عشر ألفاً، قال: آخذ ذلك منهما، فانصرفوا راضين.

وقال له معاوية: اخرج معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك ما لا تطيقه، قال: لا أبتغي بجوار رسول الله ﷺ بدلاً. قال: فأبعث إليك جنداً يقيمون معك، قال: لا أضيّق على جيران رسول الله ﷺ فقال معاوية: لتغتالن ولتعيّرن، قال: حسبي الله ونعم الوكيل. ثم سار معاوية ومرّ على علي وطلحة والزبير فوصاهم بعثمان وودّعهم ومضى. وكان المنحرفون عن عثمان بالأمصار قد تواعدوا عند مسير الأمراء إلى عثمان أن يثبوا عليه في مغيبهم، فرجع الأمراء ولم يتهيأ لهم ذلك، وجاءتهم كتب من المدينة ممن صار إلى مذاهبهم في الانحراف عن عثمان أن اقدموا علينا فإن الجهاد عندنا، فتكاتبوا من أمصارهم في القدوم إلى المدينة، فخرج المصريون وفيهم عبد الرحمن بن عديس البلوي في خمسمائة وقيل في ألف وفيهم كنانة بن بشر الليثي وسودان بن حمران السكوني وميسرة أو قيترة بن فلان السكوني، وعليهم جميعاً الغافقي بن حرب العكي، وخرج أهل الكوفة وفيهم زيد بن صوحان العبدي والأشتر النخعي وزياد بن النضر الحارثي وعبد الله بن الأصم العامري، وخرج أهل البصرة وفيهم حكيم بن جبلة العبدي وزريح بن عباد وبشر بن شريح القيسي وابن المحرش وعليهم حرقوص بن زهير السعدي وكلهم في مثل عدد أهل مصر، وخرجوا جميعاً في شوال مظهرين للحج. ولما كانوا من

المدينة على ثلاث مراحل تقدم ناس من أهل البصرة وكان هواهم في طلحة فنزلوا ذا خشب، وتقدم ناس من أهل الكوفة وكان هواهم في الزبير فنزلوا الأعوص، ونزل معهم ناس من أهل مصر وكان هواهم في علي وتركوا عامتهم بذي المروة. وقال أبو زياد بن النضر وعبد الله بن الأصم من أهل الكوفة: لا تعجلوا حتى ندخل المدينة فقد بلغنا أنهم عسكروا لنا فوالله إن كان حقاً لا يقوم لنا أمر.

ثم دخلوا المدينة ولقوا علياً وطلحة والزبير وأمهات المؤمنين وأخبروهم أنهم إنما أتوا للحج وأن يستعفوا من بعض العمال، واستأذنوا في الدخول فمنعوهم ورجعوا إلى أصحابهم وتشاوروا في أن يذهب من أهل الكوفة وكل مصر فريق إلى أصحابهم كياداً وطلباً في الفرقة، فأتى المصريون علياً وهو في عسكره عند أحجار الزيت وقد بعث ابنه الحسن إلى عثمان فيمن اجتمع عليه فعرضوا عليه أمرهم، فصاح بهم وطردهم وقال: إن جيش ذي المروة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان رسول الله ﷺ وقد علم ذلك الصالحون. وأتى البصريون طلحة والكوفيون الزبير فقالا مثل ذلك فانصرفوا وافترقوا عن هذه الأماكن إلى عسكرهم على بعد. فتفرق أهل المدينة فلم يشعروا إلا والتكبير في نواحيها، وقد هجموا وأحاطوا بعثمان ونادوا بأمان من كف يده، وصلى عثمان بالناس أياماً ولزم الناس بيوتهم ولم يمنعوا الناس من كلامه، وغدا عليهم علي فقال: ماردكم بعد ذهابكم؟ قالوا: أخذنا كتاباً مع يزيد بقتلنا. وقال البصريون لطلحة والكوفيون للزبير مثل مقالة أهل مصر وإنهم جاؤوا لينصروهم، فقال لهم علي: كيف علمتم بما لقي أهل مصر وكلكم على مراحل من صاحبه حتى رجعتم علينا جميعاً؟ هذا أمر أبرم بليل. فقالوا: اجعلوه كيف شئتم لا حاجة لنا بهذا الرجل ليعتزلنا، وهم يصلون خلفه ومنعوا الناس من الاجتماع معه.

وكتب عثمان إلى أهل الأمصار يستحثهم فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري، وبعث عبد الله بن أبي سرح معاوية بن جريح وخرج من الكوفة القعقاع بن عمرو، وتسابقوا إلى المدينة على الصعب والذلول، وقام بالكوفة نفر يحضون على إعانة أهل المدينة فمن الصحابة عقبة بن عامر وعبد الله بن أبي أوفى وحنظلة الكاتب، ومن التابعين مسروق الأسود وشريح وعبد الله بن حكيم. وقام بالبصرة في ذلك عمران بن حصين وأنس بن مالك وهشام بن عامر، ومن التابعين كعب بن سوار وهرم بن حبان. وقام بالشام ومصر جماعة أخرى من الصحابة والتابعين. ثم خطب عثمان في الجمعة القابلة وقال: يا هؤلاء! الله الله! فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد فامحوا الخطأ بالصواب. فقال محمد بن مسلمة: أنا أشهد بذلك. فأقعده حكيم بن جبلة، وقام زيد بن ثابت فأقعده آخر، وحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد، وأصيب عثمان بالحصباء فصرخ وقاتل دونه سعد بن أبي وقاص والحسين وزيد بن ثابت وأبو هريرة. ودخل عثمان بيته وعزم عليهم في الانصراف فانصرفوا، ودخل علي وطلحة والزبير على عثمان يعودونه وعنده نفر من بني أمية فيهم مروان فقالوا لعلي: أهلكتنا وصنعت هذا الصنع والله لئن بلغت الذي تريد لتحزن عليك الدنيا، فقام مغضباً وعادوا إلى منازلهم. وصلى عثمان بالناس وهو محصور ثلاثين يوماً، ثم منعوه الصلاة، وصلى بالناس أمير المصريين الغافقي بن حرب العكي، وتفرق أهل المدينة في بيوتهم وحيطانهم ملازمين للسلاح وبقي الحصار أربعين يوماً. وقيل: بل أمر عثمان أبا أيوب الأنصاري فصلى أياماً، ثم صلى علي بعده بالناس وقيل: أمرّ علياً سهل بن حنيف فصلى عشر ذي الحجة ثم صلى العيد والصلوات حتى قتل عثمان.

وقد قيل في حصار عثمان: أن محمد بن أبي بكر ومحمد بن حذيفة كانا بمصر يحرضان على عثمان، فلما خرج المصريون في رجب مظهرين للحج ومضمرين قتل عثمان أو خلعه وعليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي كان فيمن خرج مع المصريين محمد بن أبي بكر، وبعث عبد الله بن سعيد في آثارهم وأقام محمد بن أبي حذيفة بمصر، فلما كان ابن أبي سرح بأيلة بلغه أن المصريين رجعوا إلى عثمان فحصروه، وأن محمد بن أبي حذيفة غلب على مصر فرجع سريعاً إليهما فمنع منهما، فأتى فلسطين وأقام بها حتى قتل عثمان. وأما المصريون فلما نزلوا ذا خشب جاء عثمان إلى بيت علي ومتّ إليه بالقرابة في أن يركب إليهم ويردهم لئلا تظهر الجراءة منهم، فقال له علي: قد كلمتك في ذلك فأطعت أصحابك وعصيتني! يعني مروان ومعاوية وابن عامر وابن أبي سرح وسعيداً. فعلى أي شيء أردهم؟ فقال: على أن أصير إلى ما تراه وتشيره وأن أعصي أصحابي وأطيعك. فركب علي في ثلاثين من المهاجرين والأنصار فيهم سعد بن زيد وأبو جهم العدوي وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن عتاب، ومن الأنصار أبو أسيد الساعدي وأبو حميد وزيد بن ثابت وحسان وكعب بن مالك، ومن العرب دينار بن مكرز، فأتوا المصريين وتولى الكلام معهم علي ومحمد بن مسلمة، فرجعوا إلى مصر، وقال ابن عديس لمحمد: أتوصينا بحاجة؟ قال: تتقي الله وترد من قبلك عن أمانه فقد وعدنا أن

يرجع وينزع. ورجع القوم إلى المدينة ودخل علي على عثمان وأخبره برجوع المصريين، ثم جاءه مروان من الغد فقال له: أخبر الناس بأن أهل مصر قد رجعوا وأن ما بلغهم عنك كان باطلاً قبل أن تجيء الناس من الأمصار ويأتيك ما لا تطيقه ففعل. فلما خطب ناداه الناس من كل ناحية: اتق الله يا عثمان وتب إلى الله وكان أولهم عمرو بن العاص، فرفع يده وقال لهم: إني تائب. وخرج عمرو بن العاص إلى منزله بفلسطين، ثم جاء الخبر بحصاره وقتله. وقيل: إن علياً لما رجع عن المصريين أشار على عثمان أن يسمع الناس ما اعتزم عليه من النزوع قبل أن يجيء غيرهم، ففعل وخطب بذلك وأعطى الناس من نفسه التوبة وقال: أنا أول من اتعظ أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه فليأت أشرافكم يروني رأيهم فوالله إن ردني الحق عبداً لأستن بسنة العبد ولأذلن ذل العبد وما عن الله مذهب إلا إليه فوالله لأعطينكم الرضى ولا أحتجب عنكم. ثم بكى وبكى الناس ودخل منزله، فجاءه نفر من بني أمية يعذلونه في ذلك فوبختهم نائلة بنت الفرافصة فلم يرجعوا إليها، وعابوه فيما فعل واستذلوه في إقراره بالخطيئة والتوبة عند الخوف، واجتمع الناس بالباب وقد ركب بعضهم بعضاً، فقال لمروان: كلمهم! فأغلظ لهم في القول. وقال: جئتم لنزع ملكنا من أيدينا. والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غبّ رأيكم ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن مغلوبون على ما في أيدينا. وبلغ الخبر علياً فنكر ذلك، وقال لعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث: أسمعت خطبته بالأمس ومقالة مروان للناس اليوم؟ يا لله ويا للناس! إن قعدت في بيتي قال تركتني وقرابتي وحقي وإن تكلمت فجاء ما يزيد يلعب به مروان ويسوقه حيث يشاء بعد كبر السن وصحبة الرسول. وقام مغضباً إلى عثمان واستقبح مقالة مروان وأنبه عليها وقال: ما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك فقد أذهبت شرفك وغلبت على رأيك. ثم دخلت عليه امرأته نائلة وقد سمعت قول علي، فعذلته في طاعة مروان، وأشارت عليه باستصلاح علي فبعث إليه فلم يأته. فأتاه عثمان إلى منزله ليلاً يستلينه ويعده الثبات على رأيه معه فقال: بعد أن قام مروان على بابك يشتم الناس ويؤذيهم؟ فخرج عثمان وهو يقول: خذلتني وجرأت عليّ الناس! فقال علي: والله إني أكثر الناس ذباً عنك ولكني كلما جئت بشيء أظنه لك رضاً جاء مروان بأخرى فسمعت قوله وتركت قولي. ثم مُنع عثمان الماء فغضب علي غضباً شديداً حتى دخلت الروايا على عثمان.

وقيل: إن علياً كان عند حصار عثمان بخيبر فقدم والناس يجتمعون عند طلحة فجاءه عثمان وقال يا علي! إن لي حق الإخاء والقرابة والصهر، ولو كان أمر الجاهلية فقط كان عاراً على بني عبد مناف أن تنزع تيم أمرهم فجاء علي إلى طلحة وقال ما هذا؟ فقال طلحة: أبعد ما مس الحزام الطبيين يا أبا حسن! فانصرف علي إلى بيت المال، وأعطى الناس فبقي طلحة وحده وسر بذلك عثمان وجاء إليه طلحة فقال له: والله ما جئت تائباً ولكن مغلوباً فالله حسيبك يا طلحة.

وقيل: إن المصريين لما رجعوا خرج إليهم محمد بن مسلمة فأعطوه صحيفة قالوا وجدناها عند غلام عثمان بالبويب وهو على بعير من إبل الصدقة يأمر فيها بجلد عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن الحمق وعروة بن البياع وحبسهم وحلق رؤوسهم ولحاهم وصلب بعضهم، وقيل: وجدت الصحيفة بيد أبي الأعور السلمي. فعاد المصريون وعاد معهم الكوفيون والبصريون وقالوا لمحمد بن مسلمة حين سألهم: قد كلمنا علياً وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد فوعدونا أن يكلموه فليحضر علي معنا عند عثمان. ثم دخل علي ومحمد على عثمان وأخبروه بقول أهل مصر فحلف ما كتب ولا علم. فقال محمد: صدق! هذا من عمل مروان. ودخل المصريون فشكى ابن عديس بابن أبي سرح وما أحدثه بمصر وأنه ينسب ذلك إلى كتاب عثمان وإنا جئنا من مصر لقتلك فردنا علي ومحمد وضمنا لنا النزوع عن هذا كله فرجعنا ولقينا هذا الكتاب وفيه أمرك لابن أبي سرح بجلدنا والمثلة بنا وطول الحبس وهو بيد غلامك وعليه خاتمك، فحلف عثمان ما كتب ولا أمر ولا علم. قالوا: فكيف يجترأ عليك بمثل هذا؟ فقد استحقيت الخلع على التقديرين ولا يحل أن يولى الأمور من ينتهي إلى هذا الضعف، فاخلع نفسك فقال: لا أنزع ما ألبسني الله ولكن أتوب وأرجع.

قال: رأيناك تتوب وتعود فلا بد من خلعك أو قتلك وقتال أصحابك دون ذلك إلى أن يخلص إليك أو تموت، فقال: لا ينالكم أحد بأخرى ولو أردت ذلك لاستجشت بأهل الأمصار. ثم كثر اللغط وأخرجوا ومضى علي إلى منزله، وحصر المصريون عثمان وكتب إلى معاوية وابن عامر يستحثهم وقام يزيد بن أسد القسري فاستنفر أهل الشام وسار إلى عثمان وبلغهم قتله بوادي القرى فرجعوا، وقيل: سار من الشام حبيب بن مسلمة ومن البصرة مجاشع بن مسعود فبلغهم قتله بالربذة فرجعوا.

وكانت بطانة عثمان أشاروا عليه أن يبعث إلى علي في كفهم عنه على الوفاء لهم، فبعث إليه في ذلك فأجاب بعد توقف ثم بعث إليهم فقالوا: لا بد لنا أن نتوثق منه وجاءه فأعلمه وتوثق منه على أجل ثلاثة أيام، وكتب بينهم كتاباً على رد المظالم وعزل

من كرهوه من العمال. ثم مضى الأجل وهو مستعد ولم يغير شيئاً، فجاءه المصريون من ذي خشب يستنجزون عهدهم فأبى فحصروه.

وأرسل إلى علي وطلحة والزبير وأشرف عليهم فحياهم ودعا لهم، ثم قال: أنشدكم الله تعالى هل تعلمون أنكم دعوتم الله عند مصاب عمر أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم؟ أتقولون إنه لم يستجب لكم أو تقولون إن الله لم يبال بمن ولّى هذا الدين أم تقولون إن الأمة ولوا مكابرة وعن غير مشورة فوكلهم إلى أمرهم أولم يعلم عاقبة أمري! ثم أنشدكم الله هل تعلمون لي من السوابق ما يجب حقه! فمهلاً فلا يحل إلا قتل ثلاثة: زان بعد إحصان وكافر بعد إيمان وقاتل بغير حق ثم إذا قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم، ثم لا يرفع الله عنكم الاختلاف.

فقالوا له: أما ما ذكرت من الاستخارة بعد عمر فكل ما صنع الله تعالى فيه الخيرة، ولكن الله ابتلى بك عباده وأما حقك وسابقتك فصحيح، لكن أحدثت ما علمت ولا نترك إقامة الحق مخافة الفتنة عاماً قابلاً، وأما حصر القتل في الثلاثة ففي كتاب الله: قتل من سعى في الأرض فساداً ومن قاتل على البغي وعلى منع الحق والمكابرة عليه، وأنت إنما تمسكت بالأمارة علينا وإنما قاتل دونك هؤلاء بهذه التسمية فلو نزعتها انصرفوا.

فسكت عثمان ولزم الدار وأقسم على الناس بالانصراف فانصرفوا إلا الحسن بن علي ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير. وكانت مدة الحصار أربعين يوماً، ولثمان عشرة منها وصل الخبر بمسير الجنود من الأمصار فاشتد الانحصار ومنعوه من لقاء الناس ومن الماء، وأرسل إلى علي وطلحة والزبير وأمهات المؤمنين يطلب الماء فركب علي إليهم مغلساً، وقال: يا أيها الناس إن هذا لا يشبه أمر المؤمنين ولا الكافرين! وإن الأسير عند فارس والروم يطعم ويسقى. فقالوا لا والله ونعمة عين. فرجع وجاءت أم حبيبة على بغلتها مشتملة على أدواة وقالت: أردت أن أسأل هذا الرجل عن وصايا عنده لبني أمية أو تهلك أموال أيتامهم وأراملهم، فقالوا: لا والله، وضربوا وجه البغلة فنفرت وكادت تسقط عنها وذهب بها الناس إلى بيتها.

وأشرف عليهم عثمان وقرر حقوقه وسوابقه فقال بعضهم: مهلاً عن أمير المؤمنين، فجاء الأشتر وفرق الناس وقال: لا يمكر بكم. ثم خرجت عائشة إلى الحج ودعت أخاها فأبى، فقال له حنظلة الكاتب: تدعوك أم المؤمنين فلا تتبعها وتتبع سفهاء العرب فيما لا يحل؟ ولو قد صار الأمر إلى الغلبة غلبك عليه بنو عبد مناف. ثم ذهب حنظلة إلى الكوفة وبلغ طلحة والزبير ما لقي علي وأم حبيبة فلزموا بيوتهم. وكان آل حزم يدسون الماء إلى بيت عثمان في الغفلات، وكان ابن عباس ممن لزم باب عثمان للمدافعة فأشرف عليه عثمان وأمره أن يحج بالناس، فقال: جهاد هؤلاء أحب إلي! فأقسم عليه وانطلق.

ولما رأى أهل مصر أن أهل الموسم يريدون قصدهم، وأن أهل الأمصار يسيرون إليهم اعتزموا على قتل عثمان رضي الله عنه وتقبل شهادتهم يرجون في ذلك خلاصهم واشتغال الناس عنهم، فقاموا إلى الباب ليقتحموه فمنعهم الحسن بن علي وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان وسعيد بن العاص ومن معهم من أبناء الصحابة وقاتلوهم وغلبوهم دون الباب، ثم صدهم عثمان عن القتال وحلف ليدخلن فدخلوا وأغلق الباب فجاؤوا بالنار وأحرقوه، ودخلوا وعثمان يصلي وقد افتتح سوره طه، وقد سار أهل الدار فما شغله شيء من أمرهم حتى فرغ وجلس إلى المصحف يقرأ فقرأ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. ثم قال لمن عنده: إن رسول الله ﷺ قد عهد إلي عهداً فأنا صابر عليه، ومنعهم من القتال وأذن للحسن في اللحاق بأبيه وأقسم عليه فأبى وقاتل دونه، وكان المغيرة بن الأخنس بن شريق قد تعجل من الحج في عصابة لنصره فقاتل حتى قتل. وجاء أبو هريرة ينادي: يا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار وقاتل.

ثم اقتحمت الدار من ظهرها من جهة دار عمرو بن حزم فامتلأت قوماً ولا يشعر الذين بالباب، وانتدب رجل فدخل على عثمان في البيت فحاوره في الخلع فأبى فخرج، ودخل آخر ثم آخر كلهم يعظه فيخرج ويفارق القوم، وجاء ابن سلام فوعظهم فهموا بقتله، ودخل عليه محمد بن أبي بكر فحاوره طويلاً بما لا حاجة إلى ذكره ثم استحيا وخرج. ثم دخل عليه السفهاء فضربه أحدهم وأكبت عليه نائلة امرأته تتقي الضرب بيدها فنفحها أحدهم بالسيف في أصابعها. ثم قتلوه وسال دمه على المصحف.

وجاء غلمانه فقتلوا بعض أولئك القاتلين وقتلاء أخر وانتهبوا ما في البيت وما على النساء حتى ملاءة نائلة، وقتل الغلمان منهم وقتلوا من الغلمان، ثم خرجوا إلى بيت المال فانتهبوه، وأرادوا قطع رأسه فمنعهم النساء فقال ابن عديس: اتركوه.

ويقال إن الذي تولى قتله كنانة بن بشر التجيبي وطعنه عمرو بن الحمق طعنات، وجاء عمير بن ضابيء وكان أبوه مات في سجنه فوثب عليه حتى كسر ضلعاً من أضلاعه. وكان قتله

لثمان عشرة خلت من ذي الحجة وبقي في بيته ثلاثة أيام.

ثم جاء حكيم بن حزام وجبير بن مطعم إلى علي فأذن لهم في دفنه، فخرجوا به بين المغرب والعشاء ومعهم الزبير والحسن وأبو جهم بن حذيفة ومروان فدفنوه في حش كوكب، وصلى عليه جبير وقيل مروان وقيل حكيم، ويقال: إن ناساً تعرضوا لهم ليمنعوا من الصلاة عليه، فأرسل إليهم علي وزجرهم. وقيل إن علياً وطلحة حضرا جنازته وزيد بن ثابت وكعب بن مالك.

وكان عماله عند موته على ما نذكره: فعلى مكة عبد الله بن الحضرمي، وعلى الطائف القاسم بن ربيعة الثقفي، وعلى صنعاء يعلى بن منية، وعلى الجند عبد الله بن ربيعة، وعلى البصرة والبحرين عبد الله بن عامر، وعلى الشام معاوية بن أبي سفيان، وعلى حمص عبد الرحمن بن خالد من قبله، وعلى قنسرين حبيب بن مسلمة كذلك، وعلى الأردن أبو الأعور السلمي كذلك، وعلى فلسطين علقمة بن حكيم الكندي كذلك، وعلى البحرين عبد الله بن قيس الفزاري، وعلى القضاء أبو الدرداء، وعلى الكوفة أبو موسى الأشعري على الصلاة والقعقاع بن عمرو على الحرب، وعلى خراج السواد جابر المزني وسماك الأنصاري على الخراج، وعلى قرقيسيا جرير بن عبد الله، وعلى أذربيجان الأشعث بن قيس، وعلى حلوان عتيبة بن نهاس، وعلى أصبهان السائب بن الأقرع، وعلى ماسبذان خنيس، وعلى بيت المال عقبة بن عمرو، وعلى القضاء زيد بن ثابت.

بيعة علي رضي الله عنه

لما قتل عثمان اجتمع طلحة والزبير والمهاجرون والأنصار وأتوا علياً يبايعونه، فأبى وقال: أكون وزيراً لكم خير من أن أكون أميراً ومن اخترتم رضيته، فألحوا عليه وقالوا له: لا نعلم أحق منك ولا نختار غيرك حتى غلبوه في ذلك، فخرج إلى المسجد وبايعوه وأول من بايعه طلحة ثم الزبير بعد أن خيرهما - ويقال إنهما ادعيا الإكراه بعد ذلك بأربعة أشهر وخرجا إلى مكة- ثم بايعه الناس. وجاؤوا بابن عمر فقال كذلك. فقال ائتني بكفيل. قال لا أجده فقال الأشتر: دعني أقتله فقال علي: دعوه أنا كفيله.

وبايعت الأنصار وتأخر منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة وسلمة بن سلامة بن وقش، وتأخر من المهاجرين عبد الله بن سلام وصهيب بن سنان وأسامة بن زيد وقدامة بن مظعون والمغيرة بن شعبة. وأما النعمان بن بشير فأخذ أصابع نائلة امرأة عثمان وقميصه الذي قتل فيه ولحق بالشام صريخاً.

وقيل: إن عثمان لما قتل بقي الغافقي بن حرب أميراً على المدينة خمسة أيام، والتمس من يقوم بالأمر فلم يجبه أحد، وأتوا إلى علي فامتنع، وأتى الكوفيون الزبير والبصريون طلحة فامتنعا، ثم بعثوا إلى سعد وابن عمر فامتنعا. فبقوا حيارى ورأوا أن رجوعهم إلى الأمصار بغير إمام يوقع في الخلاف والفساد، فجمعوا أهل المدينة وقالوا: أنتم أهل الشورى وحكمكم جائز على الأمة فاعقدوا الإمام ونحن لكم تبع وقد أجلناكم يومين وإن لم تفعلوا قتلنا فلاناً وفلاناً وغيرهم يشيرون إلى الأكابر. فجاء الناس إلى علي فاعتذر وامتنع، فخوفوه الله في مراقبة الإسلام، فوعدهم إلى الغد.

ثم جاؤوه من الغد وجاء حكيم بن جبلة في البصريين، فأحضر الزبير كرهاً، وجاء الأشتر في الكوفيين فأحضر طلحة كذلك وبايعوا لعلي، وخرج إلى المسجد وقال: هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أردتم وقد افترقنا أمس وأنا كاره فأبيتم إلا أن أكون عليكم، فقالوا: نحن على ما افترقنا لك عليه بالأمس، فقال لهم: اللّهم اشهد! ثم جاؤوا بقوم ممن تخلف قالوا نبايع على إقامة كتاب الله. ثم بايع العامة، وخطب علي وذكر الناس وذلك يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجة ورجع إلى بيته، فجاءه طلحة والزبير وقالا: قد اشترطنا إقامة الحدود فلتقمها على قتلة هذا الرجل، فقال: لا قدرة لي على شيء مما تريدون حتى يهدأ الناس وتستقر الأمور فنؤخذ الحقوق، فافترقوا عنه.

وأكثر بعضهم المقالة في قتلة عثمان وباستناده إلى أربعة في رأيه.

وبلغه ذلك فخطبهم وذكر فضلهم وحاجته إليهم ونظره لهم، ثم هرب مروان وبنو أمية ولحقوا بالشام، فاشتد على علي منع قريش من الخروج، ثم نادى في اليوم الثالث برجوع الأعراب إلى بلادهم، فأبوا وتذامرت معهم السبئيه، وجاءه طلحة والزبير فقالا: دعنا نأت البصرة والكوفة فنستنفر الناس فأمهلهما. وجاء المغيرة فأشار عليه باستبقاء العمال حتى يستقر الأمر ويستبدلوا بمن شاء فأمهله، ورجع من الغد فأشار بمعالجة الاستبدال، وجاءه ابن عباس فأخبره بخبر المغيرة، فقال: نصحك أمس وغشك اليوم. قال: فما الرأي؟ قال: كان الرأي أن تخرج عند قتل الرجل أو قبل ذلك إلى مكة وأما اليوم فإن بني أمية يشبهون على الناس بأن يلجموك طرفاً من هذا الأمر ويطلبون ما طلب أهل المدينة في قتلة

عثمان فلا يقدرون عليهم والرأي أن تقر معاوية. فقال علي رضي الله عنه والله لا أعطيه إلا السيف.

فقال له ابن عباس: أنت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحرب خدعة». قال: بلى! فقال ابن عباس: أما والله إن أطعتني لأتركنهم ينظرون في دبر الأمور ولا يعرفون ما كان وجهها من غير نقصان عليك ولا إثم لك. فقال: يا ابن عباس لست من هنياتك ولا هنيات معاوية في شيء. فقال ابن عباس: أطعني والحق بمالك بينبع وأغلق بابك عليك فإن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك، وإن نهضت مع هؤلاء القوم اليوم يحمّلك الناس دم عثمان غداً. فأبى علي وقال: أشر علي وإذا خالفتك أطعني. قال: أيسر ما لك عندي الطاعة. قال: فسر إلى الشام فقد وليتكها. قال: إذاً يقتلني معاوية بعثمان أو يحبسني فيتحكم علي لقرابتي منك ولكن اكتب إليه وعده فأبى. وكان المغيرة يقول: نصحته فلم يقبل فغضب ولحق بمكة. ثم فرق علي العمال على الأمصار فبعث على البصرة عثمان بن حنيف، وعلى الكوفة عمارة بن شهاب من المهاجرين، وعلى اليمن عبد الله بن عباس، وعلى مصر قيس بن سعد، وعلى الشام سهل بن حنيف. فمضى عثمان إلى البصرة فدخلها واختلفوا عليه فأطاعته فرقة وقال آخرون: ننظر ما يصنع أهل المدينة فنقتدي بهم، ومضى عمارة إلى الكوفة فلما بلغ زبالة لقي طليحة بن خويلد فقال له: إرجع فإن القوم لا يستبدلون بأبي موسى وإلا ضربت عنقك، ومضى ابن عباس إلى اليمن فجمع يعلى بن منية مال الجباية وخرج به إلى مكة ودخل عبد الله إلى اليمن، ومضى قيس بن سعد إلى مصر ولقيه بأيلة خيالة من أهل مصر فقالوا: من أنت؟ قال: قيس بن سعد من فل عثمان أطلب من آوي إليه وأنتصر به. ومضى حتى دخل مصر وأظهر أمره فافترقوا عليه فرقة كانت معه وأخرى تربصوا حين يروا فعله في قتلة عثمان.

ومضى سهل بن حنيف إلى الشام حتى إذا كان بتبوك لقيته خيل فقال لهم: أنا أمير على الشام، قالوا إن كان بعثك غير عثمان فارجع فرجع. فلما رجع وجاءت أخبار الآخرين دعا علي طلحة والزبير وقال: قد وقع ما كنت أحذركم. فسألوه الإذن في الخروج من المدينة وكتب علي إلى أبي موسى مع معبد الأسلمي فكتب إليه بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم ومن الكاره منهم والراضي حتى كأنه يشاهد. وكتب إلى معاوية مع سبرة الجهني فلم يجبه إلى ثلاثة أشهر من مقتل عثمان، ثم دعا قبيصة من عبس وأعطاه كتاباً مختوماً عنوانه: من معاوية إلى علي وأوصاه بما يقول وأعاده مع رسول علي، فقدم في ربيع الأول ودخل العبسي وقد رفع الطومار كما أمره حتى دفعه إلى علي، ففضه فلم يجد فيه كتاباً فقال للرسول: ما وراءك؟ قال: آمن أنا؟ قال نعم! قال: تركت قوماً لا يرضون إلا بالقود قال: وممن؟ قال منك وتركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان منصوباً على منبر دمشق. فقال: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان! قد نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله. ثم رده إلى صاحبه وصاحت السبئية: اقتلوا هذا الكلاب وافد الكلب، فنادى يا مضر يا لقيس أحلف بالله ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي فانظروا كم الفحول والركاب وتقاووا عليه، فمنعته مضر ودس أهل المدينة على علي من يأتيهم برأيه في القتال وهو زياد بن حنظلة التميمي وكان منقطعاً إليه فجالسه ساعة فقال له علي: سيروا لغزو الشام. فقال لعلي: الأناة والرفق أمثل فتمثل يقول:

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

فعلم أن رأيه القتال ثم جاء إلى القوم الذين دسوه فأخبرهم ثم استأذنه طلحة والزبير في العمرة ولحقا بمكة. ثم اعتزم على الخروج إلى الشام ودعا أهل المدينة إلى قتالهم، وقال: انطلقوا إلى هؤلاء القوم الذين يريدون تفريق جماعتكم لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق وتقضون الذي عليكم. وأمر الناس بالتجهز إلى الشام ودفع اللواء لمحمد ابن الحنفية، وولّى عبد الله بن عباس ميمنته، وعمرو بن أبي سلمة ميسرته، ويقال: بل عمرو بن سفيان بن عبد الأسد، وولّى أبا ليلى بن عمرو بن الجراح ابن أخي عبيدة مقدمته، ولم يولّ أحداً ممن خرج على عثمان.

واستخلف على المدينة تمام بن العباس، وعلى مكة قثم بن العباس. وكتب إلى قيس بن سعد بمصر وعثمان بن حنيف بالبصرة وأبي موسى بالكوفة أن يندبوا الناس إلى الشام، وبينما هو على التجهز للشام إذ أتاه الخبر عن أهل مكة بنحو آخر وأنهم على الخلاف فانتقض عن الشام.

أمر الجمل

ولما جاء خبر مكة إلى علي قام في الناس وقال: ألا إن طلحة والزبير وعائشة قد تمالأوا على نقض إمارتي ودعوا الناس إلى الإصلاح وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم وأكف إن كفوا وأقتصد نحوهم، وندب أهل المدينة فتثاقلوا، وبعث كميلاً النخعي فجاءه بعبد الله بن عمر فقال: انهض معي! فقال: أنا من أهل المدينة أفعل ما يفعلون، قال: فأعطني كفيلاً بأنك لا تخرج، قال:

ولا هذه، فتركه ورجع إلى المدينة.

وخرج إلى مكة وقد أخبر ابنة علي أم كلثوم بأنه سمع من أهل المدينة في تثاقلهم وأنه على طاعة علي ويخرج معتمراً. وجاء الخبر من الغداة إلى علي بأنه خرج إلى الشام فبعث في أثره على كل طريق، وماج أهل المدينة، وركبت أم كلثوم إلى أبيها وهو في السوق يبعث الرجال ويظاهر في طلبه فحدثته فانصرف عن ذلك ووثق فيما قاله، ورجع إلى أهل المدينة فخاطبهم وحرضهم فرجعوا إلى إجابته، وأول من أجابه أبو الهيثم بن التيهان البدري وخزيمة بن ثابت وليس بذي الشهادتين. ولما رأى زياد بن حنظلة تثاقل الناس عن علي انتدب إليه وقال: من تثاقل عنك فإنا نخف معك ونقاتل دونك.

وكان سبب اجتماعهم بمكة أن عائشة كانت خرجت إلى مكة وعثمان محصور كما قدمناه، فقضت نسكها وانقلبت تريد المدينة فلقيت في طريقها رجلاً من بني ليث أخوالها فأخبرها بقتل عثمان وبيعة علي، فقالت: قتل عثمان والله ظلماً ولأطلبن بدمه فقال لها الرجل: ولم أنت كنت تقولين ما قلت؟ فقالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه، وانصرفت إلى مكة.

وجاءها الناس فقالت: إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه وقد استعمل أمثالهم من كان قبله ومواضع من الحمى حماها لهم فتابعهم ونزع لهم عنها فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام: والله لأصبع من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ولو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه. فقال عبد الله بن عامر الحضرمي وكان عامل مكة لعثمان: أنا أول طالب، فكان أول مجيب وتبعه بنو أمية وكانوا هربوا إلى مكة بعد قتل عثمان منهم: سعيد بن العاص والوليد بن عقبة. وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير ويعلى بن منية من اليمن بستمائة بعير وستمائة ألف فأناخ بالأبطح.

ثم قدم طلحة والزبير من المدينة فقالت لهما عائشة: ما وراءكما؟ قالا: تحملنا هراباً من المدينة من غوغاء وأعراب غلبوا على خيارهم فلم يمنعوا أنفسهم ولا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً، فقالت: انهضوا بنا إليهم، وقال آخرون: نأتي الشام، فقال ابن عامر: إن معاوية كفاكم الشام فأتوا البصرة فلي بها صنائع ولهم في طلحة هوى. فنكروا عليه مجيئه من البصرة واستقام رأيهم على رأيه وقالوا: إن الذين معنا لا يطيقون من بالمدينة ويحتجون ببيعة علي وإذا أتينا البصرة أنهضناهم كما أنهضنا أهل مكة وجاهدنا، فاتفقوا ودعوا عبد الرحمن بن عمر إلى النهوض فأبى وقال: أنا من أهل المدينة أفعل ما يفعلون.

وكانت أمهات المؤمنين معها على قصد المدينة، فلما نهضت إلى البصرة قعدوا عنها وأجابتها حفصة فمنعها أخوها عبد الله. وجهزهم ابن عامر بما معه من المال ويعلى بن منية بما معه من المال والظهر، ونادوا في الناس بالحملان فحملوا على ستمائة بعير وساروا في ألف من أهل مكة ومن أهل المدينة وتلاحق بهم الناس فكانوا ثلاثة آلاف، وبعثت أم الفضل أم عبد الله بن عباس بالخبر استأجرت على كتابها من أبلغه علياً، ونهضت عائشة ومن معها، وجاء مروان بن الحكم إلى طلحة والزبير فقال: على أيكما أسلم بالإمرة وأؤذن بالصلاة، فقال ابن الزبير على أبي، وقال ابن طلحة: على أبي، فأرسلت عائشة إلى مروان تقول له: أتريد أن تفرق أمرنا ليصلّ بالناس ابن أختي تعني عبد الله بن الزبير. وودع أمهات المؤمنين عائشة من ذات عرق باكيات، وأشار سعيد بن العاص على مروان بن الحكم وأصحابه بإدراك ثأرهم من عائشة وطلحة والزبير. فقالوا: نسير لعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً.

ثم جاء إلى طلحة والزبير فقال: لمن تجعلان الأمر إن ظفرتما؟ قالا: لأحدنا الذي تختاره الناس، فقال: بل اجعلوه لولد عثمان لأنكم خرجتم تطلبون بدمه فقالا: وكيف ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم؟ قال: فلا أراني أسعى إلا لإخراجها من بني عبد مناف فرجع، ورجع عبد الله بن خالد بن أسيد ووافقه المغيرة بن شعبة ومن معه من ثقيف فرجعوا، ومضى القوم ومعهم أبان والوليد ابنا عثمان. وأركب يعلى بن منية عائشة جملاً اسمه عسكر اشتراه بمائة دينار وقيل بثمانين، وقيل: بل كان لرجل من عرينة عرض لهم بالطريق على جمل فاستبدلوا به جمل عائشة على أن حمله بألف فزادوه أربعمائة درهم، وسألوه عن دلالة الطريق فدلهم ومر بهم على ماء الحوأب فنبحتهم كلابه. وسألوه عن الماء فعرفهم باسمه.

فقالت عائشة: ردوني سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه: « ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب؟ » ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته وأقامت بهم يوماً وليلة إلى أن قيل: النجاء! النجاء! قد أدركم علي، فارتحلوا نحو البصرة فلما كانوا بفنائها لقيهم عمير بن عبد الله التميمي وأشار بأن يتقدم عبد الله بن عامر إليهم فأرسلته عائشة وكتبت معه إلى رجال من البصرة: إلى الأحنف بن قيس وسمرة وأمثالهم، وأقامت بالحفير تنتظر

الجواب.

ولما بلغ ذلك أهل البصرة دعا عثمان بن حنيف عمران بن حصين وكان رجلاً عامة، وأبا الأسود الدؤلي وكان رجلاً خاصة، وقال: انطلقا إلى هذه المرأة فاعلما علمها وعلم من معها. فجاءاها بالحفير وقالا: إن أميرنا بعثنا نسألك عن مسيرك؟ فقالت: إن الغوغاء ونزاع القبائل فعلوا ما فعلوا فخرجت في المسلمين أعلمهم بذلك وبالذي فيه الناس وراءنا وما ينبغي من إصلاح هذا الأمر... ثم قرأت ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ الآية.

ثم عدلا عنها إلى طلحة فقالا: ما أقدمك؟ قال: الطلب بدم عثمان! فقالا: ألم تبايع علياً؟ قال: بلى والسيف على رأسي وما أستقبل على البيعة إن هو لم يخل بيننا وبين قتلة عثمان. وقال لهما الزبير مثل ذلك، ورجعا إلى عثمان بن حنيف فاسترجع وقال: دارت رحى الإسلام ورب الكعبة، ثم قال: أشيروا عليّ! فقال عمران: اعتزل. قال: بل امنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين. فجاءه هشام بن عامر فأشار عليه بالمسالمة والمسامحة حتى يأتي أمر علي، فأبى ونادى في الناس بلبس السلاح ثم دس من يتكلم في الجمع ليرى ما عندهم، فقال رجل: إن هؤلاء القوم إن كانوا جاؤوا خائفين فبلدهم يأمن فيه الطير وإن جاؤوا لدم عثمان فما نحن بقتلته فأطيعوني وردوهم من حيث جاؤوا.

فقال الأسود بن سريع السعدي: إنما جاؤوا يستعينون بنا على قتلته منا ومن غيرنا. فحصبه الناس فعرف عثمان أن لهم بالبصرة ناصراً وكسر ذلك كله.

وانتهت عائشة ومن معها إلى المربد، وخرج إليها عثمان فيمن معه وحضر أهل البصرة، فتكلم طلحة من الميمنة: فحمد الله وذكر عثمان وفضله ودعا إلى الطلب بدمه وحثّ عليه، وكذلك الزبير فصدقهما أهل الميمنة. وقال أصحاب عثمان من الميسرة: بايعتم علياً ثم جئتم تقولون. ثم تكلمت عائشة وقالت: كان الناس يتجنّون على عثمان ويأتوننا بالمدينة فنجدهم فجرة ونجده براً تقيا وهم يحاولون غير ما يظهرون، ثم كثروا واقتحموا عليه داره وقتلوه واستحلوا المحرمات بلا ترة ولا عذر، ألا وأن مما ينبغي لكم ولا ينبغي غيره أخذ قتلة عثمان وإقامة كتاب الله ثم قرأت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية.

فاختلف أصحاب عثمان عليه وقال بعضهم إلى عائشة، ثم افترق الناس وتحاصبوا وانحدرت عائشة إلى المربد، وجاءها جارية بن قدامة السعدي فقال: يا أم المؤمنين والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح، إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكتِ سترك وأبحت حرمتك وإن من رأى قتالك يرى قتلك فإن كنت أتيتنا طائعة فارجعي إلى منزلك وإن كنت مكرهة فاستعيني بالله وبالناس على الرجوع. وأقبل حكيم بن جبلة وهو على ظهر الخيل فأنشب القتال، وأشرع أصحاب عائشة رماحهم فاقتتلوا على فم السكة، وحجز الليل بينهم وباتوا يتأهبون وعاداهم حكيم بن جبلة فاعترضه رجل من عبد القيس فقتله حكيم، ثم قتل امرأة أخرى، واقتتلوا إلى أن زال النهار. وكثر القتل في أصحاب عثمان بن حنيف ولما عفتهم الحرب تنادوا إلى الصلح وتواعدوا على أن يبعثوا إلى المدينة فإن كان طلحة والزبير أكرها سلم لهم عثمان الأمر وإلا رجعا عنه.

وسار كعب بن سوار القاضي إلى أهل المدينة يسألهم عن ذلك، فجاءهم يوم جمعة وسألهم فلم يجبه إلا أسامة بن زيد فإنه قال: بايعا مكرهين. فضربه الناس حتى كاد يقتل. ثم خلصه صهيب وأبو أيوب ومحمد بن مسلمة إلى منزله، ورجع كعب وبلغ الخبر بذلك إلى علي، فكتب إلى عثمان بن حنيف يعجزه ويقول: والله ما أكره على فرقة ولقد أكره على جماعة وفضل، فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظروا.

ولما جاء كعب بقول أهل المدينة بعث طلحة والزبير إلى عثمان ليجتمع بهما، فامتنعا واحتج بالكتاب وقال: هذا غير ما كنا فيه. فجمع طلحة والزبير الناس وجاءا إلى المسجد بعد صلاة العشاء في ليلة ظلماء شاتية، وتقدم عبد الرحمن بن عتاب في الوحل فوضع السلاح في الجابية من الزط والسابحة وهم أربعون رجلاً فقاتلوهم وقتلوا عن آخرهم، واقتحموا على عثمان فأخرجوه إلى طلحة والزبير وقد نتفوا شعر وجهه كله، وبعثا إلى عائشة بالخبر فقالت: خلوا سبيله، وقيل أمرت بإخراجه وضربه، وكان الذي تولى إخراجه وضربه مجاشع بن مسعود. وقيل أن الاتفاق إنما وقع بينهم على أن يكتبوا إلى علي فكتبوا إليه وأقام عثمان يصلي فاستقبلوه ووثبوا عليه فظفروا به وأرادوا قتله، ثم استبقوه من أجل الأنصار وضربوه وحبسوه.

ثم خطب طلحة والزبير وقالا: يا أهل البصرة! توبة بحوبة إنما أردنا أن نستعتب عثمان فغلب السفهاء فقتلوه. فقالوا لطلحة: قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا! قال الزبير: أما أنا فلم أكاتبهم، وأخذ يرمي علياً بقتل عثمان فقال رجل من عبد القيس: يا معشر المهاجرين أنتم أول من أجاب داعي الإسلام وكان لكم بذلك الفضل، ثم استخلفتم مراراً ولم تشاورونا، وقتلتم كذلك، ثم

بايعتم علياً وجئتم تستعدوننا عليه فماذا الذي نقمتم عليه؟ فهموا بقتله ومنعته عشيرته، ثم وثبوا من الغد على عثمان ومن معه فقتلوا منهم سبعين.

وبلغ حكيم بن جبلة ما فعل بعثمان بن حنيف فجاء لنصره في جماعة من عبد القيس، فوجد عبد الله بن الزبير فقال له: ما شأنك؟ قال: تخلوا عن عثمان وتقيمون على ما كنتم حتى يقدم علي ولقد استحللتم الدم الحرام تزعمون الطلب بثأر عثمان وهم لم يقتلوه. ثم ناجزهم الحرب في ربيع الآخر سنة ست وثلاثين، وأقام حكيم أربعة قواد فكان هو بحيال طلحة، وذريح بحيال الزبير، وابن المحرش بحيال عبد الرحمن بن عتاب، وحرقوص بن زهير بحيال عبد الرحمن بن الحرث بن هشام. وتزاحفوا واستحرّ القتل فيهم حتى قتل كثير منهم وقتل حكيم وذريح، وأفلت حرقوص في فل من أصحابه إلى قومهم بني سعد، وتتبعوهم بالقتل وطالبوا بني سعد بحرقوص وكانوا عثمانية، فاعتزلوا وغضبت عبد القيس كلهم والكثير من بكر بن وائل، وأمر طلحة والزبير بالعطاء في أهل الطاعة لهما، وقصدت عبد القيس وبكر بيت المال فقاتلوهم ومنعوهم، وكتبت عائشة إلى أهل الكوفة بالخبر وأمرتهم أن يثبطوا الناس عن علي وأن يقوموا بدم عثمان، وكتبت بمثل ذلك إلى اليمامة والمدينة.

ولنرجع إلى خبر علي: وقد كان لما بلغه خبر طلحة والزبير وعائشة ومسيرهم إلى البصرة دعا أهل المدينة للنصرة وخطبهم، فتثاقلوا أولاً وأجابه زياد بن حنظلة وأبو الهيثم وخزيمة بن ثابت وليس بذي الشهادتين وأبو قتادة في آخرين، وبعثت أم سلمة معه ابن عمها وخرج يسابق طلحة والزبير إلى البصرة ليردهما.

واستخلف على المدينة تمام بن العباس وقيل: سهل بن حنيف، وعلى مكة قثم بن العباس، وسار في ربيع الآخر سنة ست وثلاثين، وسار معه من نشط من الكوفيين والمصريين متخففين في تسعمائة، ولقيه عبد الله بن سلام فأخذ بعنانه وقال يا أمير المؤمنين لا تخرج منها فوالله إن خرجت منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً. فبدر الناس إليه، فقال: دعوه فنعم الرجل من أصحاب محمد ﷺ. وسار فانتهى إلى الربذة، وجاء خبر سبقهم إلى البصرة فأقام يأمر بما يفعل ولحقه ابنه الحسن وعذله في خروجه وما كان من عصيانه إياه، فقال: ما الذي عصيتك فيه حين أمرتني؟ قال: أمرتك أن تخرج عند حصار عثمان من المدينة ولا تحضر لقتله، ثم عند قتله ألاّ تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة الأمصار، ثم عند خروج هؤلاء أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا.

فقال: أما الخروج من المدينة فلم يكن إليه سبيل وقد كان أحيط بنا كما أحيط بعثمان، وأما البيعة فخفنا ضياع الأمر والحل والعقد لأهل المدينة لا للعرب ولا للأمصار ولقد مات رسول الله ﷺ وأنا أحق بالأمر بعده فبايع الناس غيري واتبعتهم في أبي بكر وعمر وعثمان فقتلوه وبايعوني طائعين غير مكرهين، فأنا أقاتل من خالف بمن أطاع إلى أن يحكم الله وهو خير الحاكمين، وأما القعود عن طلحة والزبير فإذا لم أنظر فيما يلزمني من هذا الأمر فمن ينظر فيه؟ ثم أرسل إلى الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر يستنفران الناس، وأقام بالربذة يحرّض الناس وأرسل إلى المدينة في أداته وسلاحه، وقال له بعض أصحابه: عرّفنا بقصدك من القوم؟ قال: الإصلاح إن قبلوا وإن بادرونا امتنعنا.

ثم جاءه جماعة من طيء نافرين معه فقبلهم وأثنى عليهم. ثم سار من الربذة وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمرو بن الجراح، ولما انتهى إلى فيد أتته أسد وطيء وعرضوا عليه النفير معه، فقال: الزموا قراركم ففي المهاجرين كفاية. ولقيه هنالك رجل من أهل الكوفة من بني شيبان فسأله عن أبي موسى، فقال: إن أردت الصلح فهو صاحبه، وإن أردت القتال فليس بصاحبه. فقال: والله ما أريد إلا الصلح حتى يرد علينا. ثم انتهى إلى الثعلبية والأساد، فبلغه ما لقي عثمان بن حنيف وحكيم بن جبلة، ثم جاءه بذي قار عثمان بن حنيف وأراه ما بوجهه، فقال: أصبت أجراً وخيراً إن الناس وليهم قبلي رجلان فعملا بالكتاب ثم ثالث فقالوا وفعلوا ثم بايعوني ومنهم طلحة والزبير ثم نكثا وألبّا عليّ. ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وعثمان وخلافهما علي! والله إنهما ليعلمان أني لست دونهم. ثم أخذ في الدعاء عليهما وابن وائل هنالك يعرضون عليه النفير فأجابهم مثل طيء وأسد.

وبلغه خروج عبد القيس على طلحة والزبير فأثنى عليهم. وأما محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر فبلغا إلى الكوفة ودفعا إلى أبي موسى كتاب علي وقاما في الناس بأمره فلم يجبهما أحد وشاوروا أبا موسى في الخروج إلى علي، فقال: الخروج سبيل الدنيا والقعود سبيل الآخرة فقعدوا كلهم. وغضب محمد ومحمد وأغلظا لأبي موسى، فقال لهما: والله إن بيعة عثمان لفي عنقي وعنق علي وإن كان لا بد من القتال فحتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا، فرجعا إلى علي بالخبر وهو بذي قار، فرجع علي باللائمة على الأشتر، وقال: أنت صاحبنا في أبي موسى فاذهب أنت وابن العباس وأصلح ما أفسدت.

فقدما على أبي موسى وكلماه واستعانا عليه بالناس لم يجب إلى شيء ولم ير إلا القعود حتى تنجلي الفتنة ويلتئم الناس، فرجع

ابن عباس والأشتر إلى علي فأرسل علي ابنه الحسن وعمار بن ياسر وقال لعمار: انطلق فأصلح ما أفسدت. فانطلقا حتى دخلا المسجد، وخرج أبو موسى فلقي الحسن بن علي فضمه إليه وقال لعمار: يا أبا اليقظان أعدوت على أمير المؤمنين فيمن عدا وأحللت نفسك مع الفجار؟ فقال: لم أفعل! فأقبل الحسن على أبي موسى فقال: لم تثبط الناس عنا وما أردنا إلا الإصلاح؟ ومثل أمير المؤمنين لا يخاف على شيء! قال: صدقت! بأبي أنت وأمي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب والمسلمون إخوان ودماؤهم وأموالهم حرام» فغضب عمار وسبه فسبه آخر وتثاور الناس، ثم كفهم أبو موسى. وجاء زيد بن صوحان بكتاب عائشة إليه وكتابها إلى أهل الكوفة فقرأهما على الناس في سبيل الإنكار عليها فسبه شبث بن ربعي، وتهاوى الناس وأبو موسى يكفهم ويأمرهم بلزوم البيوت حتى تنجلي الفتنة، ويقول: أطيعوني وخلوا قريشاً إذ أبوا إلا الخروج من دار الهجرة وفراق أهل العلم حتى ينجلي الأمر. وناداه زيد بن صوحان بإجابة علي والقيام بنصرته وتابعه القعقاع بن عمرو فقام بعده فقال: لا سبيل إلى الفوضى وهذا أمير المؤمنين مليء بما ولي وقد دعاكم فانفروا، وقال عبد خير مثل ذلك وزاد: يا أبا موسى هل تعلم أن طلحة والزبير بايعا؟ قال: نعم! قال: فهل أحدث علي ما ينقض البيعة؟ قال: لا أدري قالا: لا دريت ونحن نتركك حتى تدري. ثم قال سيحان بن صوحان مثلما قال القعقاع، وحرض على طاعة علي وقال: فإنه دعاكم تنظرون ما بينه وبين صاحبيه وهو المأمون على الأمة الفقيه في الدين فقال عمار: وهو دعاكم إلى ذلك لتنظروا في الحق وتقاتلوا معه لا عليه، وقال الحسن: أجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم وإن أمير المؤمنين يقول: إن كنت مظلوماً أطيعوني أو ظالماً فخذوا مني بالحق. واللّه إن طلحة والزبير أول من بايعني وأول من غدر. فأجاب الناس، وحرض عدي بن حاتم قومه وحجر بن عدي كذلك فنفر مع الحسن من الكوفة تسعة آلاف سارت منها ستة في البر وباقيهم في الماء.

وأرسل علي بعد مسير الحسن وعمار الأشتر إلى الكوفة فدخلها والناس في المسجد وأبو موسى والحسن وعمار في منازعة معه ومع الناس، فجعل الأشتر يمر بالقبائل ويدعوهم إلى القصر حتى انتهى إليه في جماعة الناس فدخله وأبو موسى بالمسجد يخطبهم ويثبطهم والحسن يقول له: اعتزل عملنا واترك منبرنا، فدخل الأشتر إلى القصر وأمر بإخراج غلمان أبي موسى من القصر، وجاءه أبو موسى فصاح به الأشتر: اخرج لا أم لك وأجله تلك العشية. ودخل الناس لينهبوا متاعه فمنعهم الأشتر، ونفر الناس مع الحسن كما قلنا وكان الأمراء على أهل النفير: على كنانة وأسد وتميم والرباب ومزينة معقل بن يسار الرياحي، وعلى قبائل قيس ابن مسعود الثقفي عم المختار وعلى بكر وتغلب وعلة بن مجدوح الذهلي، وعلى مذحج والأشعريين حجر بن عدي، وعلى بجيلة وأنمار وخثعم والأزد مخنف بن سليم الأزدي.

ورؤساء الجماعة من الكوفيين القعقاع بن عمرو وسعد بن مالك وهند بن عمرو والهيثم بن شهاب، ورؤساء النفار زيد بن صوحان والأشتر وعدي بن حاتم والمسيب بن نجبة ويزيد بن قيس وأمثالهم. فقدموا على عليّ بذي قار، فركب إليهم ورحب بهم وقال: يا أهل الكوفة دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة فإن يرجعوا فهو الذي نريد وإن يلجوا داويناهم بالرفق حتى يبدأونا بالظلم ولا ندع أمراً فيه الصلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء اللّه.

فاجتمع الناس عنده بذي قار وعبد القيس بأسرها وهم ألوف ينتظرونه ما بينه وبين البصرة، ثم دعا القعقاع وكان من الصحابة فأرسله إلى أهل البصرة وقال: إلق هذين الرجلين فادعهما للألفة والجماعة وعظم عليهما الفرقة فقال له: كيف تصنع إذا قالوا ما لا وصاة مني فيه عندك؟ قال: نلقاهم بالذي أمرت به فإذا جاء منهم ما ليس عندنا منك رأي فيه اجتهدنا رأينا وكلمناهم كما نسمع ونرى إنه ينبغي، قال: أنت لها.

فخرج القعقاع فقدم البصرة وبدأ بعائشة فقال: أي أمة ما أشخصك؟ قالت: أريد الإصلاح بين الناس، قال: فابعثي إلى طلحة والزبير تسمعي مني ومنهما، فبعثت إليهما فجاءا فقال لهما: إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الإصلاح وكذلك قالا. قال فأخبراني ما هو؟ قال: قتلة عثمان! فإن تركهم ترك للقرآن، قال: فقد قتلت منهم ستمائة من أهل البصرة وغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعته ستة آلاف فإن قاتلتم هؤلاء كلهم اجتمعت مضر وربيعة على حربكم فأين الإصلاح؟ قالت عائشة: فماذا تقول أنت؟ قال هذا الأمر دواؤه التسكين وإذا سكن اختلجوا فأثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح خير ولا تعرضونا للبلاء فنتعرض له ويصرعنا وإياكم، فقالوا قد أصبت وأحسنت فارجع فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر، فرجع وأخبر علياً فأعجبه وأشرف القوم على الصلح. وقد كانت وفود أهل البصرة أقبلوا إلى علي قبل رجوع القعقاع

وتفاوضوا مع أهل الكوفة واتفقوا جميعاً على الإصلاح، ثم خطب علي الناس وأمرهم بالرحيل من الغد وأن لا يرجع معه أحد ممن أعان على عثمان.

فاجتمع من أهل مصر ابن السوداء وخالد بن ملجم والأشتر والذين رضوا بمن سار إليه مثل علباء بن الهيثم وعدي بن حاتم وسالم بن ثعلبة القيسي وشريح بن أوفى، وتشاوروا فيما قال علي وقالوا: هو أبصر بكتاب الله وأقرب إلى العمل به من أولئك وهو يقول ما يقول، وإنما معه الذين أعانوا على عثمان فكيف إذا اصطلحوا واجتمعوا ورأوا قلتنا في كثرتهم. فقال الأشتر رأيهم والله فينا واحد وإن يصطلحوا فعلى دمائنا فهلموا نثب على طلحة نلحقه بعثمان ثم يرضى منا بالسكوت، فقال ابن السوداء: طلحة وأصحابه نحو من خمسة آلاف وأنتم ألفان وخمسمائة فلا تجدون إلى ذلك سبيلاً.

وقال علباء بن الهيثم: اعتزلوا الفريقين حتى يأتيكم من تقومون به. فقال ابن السوداء: ودّ والله الناس لو انفردتم فيتخطفونكم، فقال عدي: والله ما رضيت ولا كرهت فأما إذا وقع ما وقع ونزل الناس بهذه المنزلة فإن لنا خيلاً وسلاحاً. فإن أقدمتم أقدمنا وإن أحجمتم أحجمنا، ثم قال سالم بن ثعلبة وسويد بن أوفى: أبرموا أمركم. ثم تكلم ابن السوداء فقال: يا قوم إن عزكم في خلطة الناس فصانعوهم وإذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال فلا يجدون بداً منه ويشغلهم الله عما تكرهون.

وافترقوا على ذلك. وأصبح علي راحلاً حتى نزل على عبد القيس فانضموا إليه وساروا معه فنزل الزاوية، وسار من الزواية إلى البصرة. وسار طلحة والزبير وعائشة من الفرضة والتقوا بموضع قصر عبيد الله بن زياد منتصف جمادى الآخرة، وتراسلت بكر بن وائل وعبد القيس وجاؤوا إلى علي رضي الله تعالى عنه فكانوا معه، وأشار على الزبير بعض أصحابه أن يناجز القتال، فاعتذر بما وقع بينه وبين القعقاع.

وطلب من علي رضي الله عنه أصحابه مثل ذلك فأبى وسئل ما حالنا وحالهم في القتلى فقال: أرجو أن لا يقتل منا ومنهم أحد نقي قلبه لله إلا أدخله الله الجنة، ونهى عن قتالهم وبعث إليهم حكيم بن سلام ومالك بن حبيب إن كنتم على ما جاء به القعقاع فكفوا حتى ننزل وننظر في الأمر، وجاءه الأحنف بن قيس وكان معتزلاً عن القوم وقد كان بايع علياً بالمدينة بعد قتل عثمان مرجعه من الحج، قال الأحنف: ولم أبايعه حتى لقيت طلحة والزبير وعائشة بالمدينة وعثمان محصور وعلمت أنه مقتول فقلت لهم: من أبايع بعده؟ قالوا: علياً! فلما رجعت وقد قتل عثمان بايعت علياً فلما جاؤوا إلى البصرة دعوني إلى قتال علي فحرت في أمري ما بين خذلانهم أو خلع طاعتي، فقلت: ألم تأمروني بمبايعته؟ قالوا نعم لكنه بدّل وغيّر فقلت: لا أنقض بيعتي ولا أقاتل أم المؤمنين، ولكن أعتزل، ونزل بالجلحاء على فرسخين من البصرة في زهاء ستة آلاف.

فلما قدم علي جاءه وخيره بين القتال معه أو كف عشرة آلاف سيف عنه، فاختار الكف ونادى في تميم وبني سعد فأجابوه فاعتزل بهم حتى ظفر علي فرجع إليه واتبعه. ولما تراءى الجمعان خرج طلحة والزبير وجاءهم علي حتى اختلفت أعناق دوابهم. فقال علي: لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً إن كنتما أعددتما عند الله عذراً ألم أكن أخاكما في دينكما تحرمان دمي وأحرّم دمكما فهل من حدث أحلّ لكما دمي؟ قال طلحة: ألّبت على عثمان! قال علي: يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق فلعن الله قتلة عثمان يا طلحة أما بايعتني؟ قال: والسيف على عنقي. ثم قال للزبير: أتذكر يوم قال لك رسول الله ﷺ : « لتقاتلنه وأنت له ظالم؟ » قال اللّهم نعم ولو ذكرته قبل مسيري ما سرت. والله لا أقاتلك أبداً وافترقوا.

فقال علي لأصحابه: أن الزبير قد عهد أن لا يقاتلكم. ورجع الزبير إلى عائشة وقال: ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف أمري غير موطني هذا قالت: فما تريد أن تصنع؟ قال: أدعهم وأذهب. فقال له ابنه عبد اللّه: خشيت رايات ابن أبي طالب وعلمت أن حامليها فتية أنجاد وإن تحتها الموت الأحمر فجبنت فأحفظه ذلك. وقال: حلفت. قال: كفّر عن يمينك فاعتق غلامه مكحولاً. وقيل: إنما أراد الرجوع عن القتال حين سمع أن عمار بن ياسر مع علي لما ورد: « ويح عمار تقتله الفئة الباغية » .

وكان أهل البصرة على ثلاث فرق مفترقين مع هؤلاء وهؤلاء وثالثة اعتزلت كالأحنف بن قيس وعمران بن حصين، ونزلت عائشة في الأزد ورأسهم صبرة بن شيمان، وأشار عليه كعب بن سور بالاعتزال فأبى وكان معها قبائل كثيرة من مضر والرباب وعليهم المنجاب بن راشد، وبنو عمرو بن تميم وعليهم أبو الجرباء، وبنو حنظلة وعليهم هلال بن وكيع وسليم وعليهم مجاشع بن مسعود، وبنو عامر وغطفان وعليهم زفر بن الحرث، والأزد وعليهم صبرة بن شيمان، وبكر وعليهم مالك بن مسمع، وبنو ناجية وعليهم الخريت بن راشد، وهم في نحو ثلاثين ألفاً. وعلي في عشرين ألفاً. والناس جميعاً متنازلون: مضر إلى مضر وربيعة إلى ربيعة، ولا يشكون في الصلح وقد ردّوا حكيماً ومالكاً إلى علي إنا على ما فارقنا عليه القعقاع، وجاء ابن عباس إلى

طلحة والزبير، ومحمد بن طلحة إلى علي وتقارب أمر الصلح وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشرّ ليلة يتشاورون، واتفقوا على إنشاب الحرب بين الناس فغسلوا وما يشعر بهم أحد، وقصد مضر إلى مضر وربيعة إلى ربيعة ويمن إلى يمن فوضعوا فيهم السلاح، وثار أهل البصرة وثار كل قوم في وجوه أصحابهم. وبعث طلحة والزبير عبد الرحمن بن الحرث بن هشام إلى الميمنة وهم ربيعة، وعبد الرحمن بن عتاب إلى الميسرة، وركبا في القلب، وتساءل الناس ما هذا؟ فقالوا: طرقنا أهل الكوفة ليلاً! فقال طلحة والزبير: إن علياً لا ينتهي حتى يسفك الدماء.

ثم دفعوا أولئك المقاتلين فسمع علي وأهل عسكره الصيحة، فقال: ما هذا؟ فقيل له أظنه سقط من هنا طرقنا أو نحوه السبئية بيّتونا ليلاً فرددناهم. فوجدنا القوم على أهبة فركبونا، وثار الناس وركب علي. وبعث إلى الميمنة والميسرة صاحبها، وقال: إن طلحة والزبير لا ينتهيان حتى تسفك الدماء ونادى في الناس كفوا، وكان رأيهم جميعاً في تلك الفتنة أن لا يقتتلوا حتى يقيموا الحجة ولا يقتلوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ولا يستحلوا سلباً.

وأقبل كعب بن سور إلى عائشة وقال: قد أبى القوم إلا القتال فلعل الله يصلح بك فأركبها وألبسوا هودجها الأدراع وأوقفوها بحيث تسمع الغوغاء، واقتتل الناس حتى انهزم أصحاب الجمل وذهب، وأصيب طلحة بسهم في رجله فدخل البصرة ودمه يسيل إلى أن مات.

وذهب الزبير إلى وادي السباع لما ذكره علي، فمر بعسكر الأحنف واتبعه عمرو بن جرموز وكان يسائله حتى قام إلى الصلاة قتله ورجع بفرسه وسلاحه وخاتمه إلى الأحنف فقال: والله ما تدري أحسنت أم أسأت! فجاء ابن جرموز إلى علي وقال للحاجب: استأذن لقاتل الزبير فقال لحاجبه ائذن له وبشره بالنار. ولما بلغت الهزيمة البصرة ورأوا الخيل أطافت بالجمل رجعوا وشبت الحرب كما كانت.

وقالت عائشة لكعب بن سور وناولته مصحفاً: تقدم فادعهم إليه واستقبل القوم فقتله السبئية رشقاً بالسهم، ورموا عائشة في هودجها حتى جارت بالاستغاثة ثم بالدعاء على قتلة عثمان، وضج الناس بالدعاء فقال علي: ما هذا؟ قالوا عائشة تدعو على قتلة عثمان! فقال: اللّهم إلعن قتلة عثمان.

ثم أرسلت عائشة إلى الميمنة والميسرة وحرّضتهم! وتقدم مضر الكوفة ومضر البصرة فاجتلدوا أمام الجمل حتى ضرسوا، وقتل زيد بن صوحان من أهل الكوفة وأخوه سيحان وارتث أخوهما صعصعة.

وتزاحف الناس وتأخرت يمن الكوفة وربيعتها ثم عادوا فقتل على رايتهم عشرة. ثم أخذها يزيد بن قيس فثبت، وقتل تحت راية ابن ربيعة زيد وعبد الله بن رقية وأبو عبيدة بن راشد بن سلمة، واشتد الأمر ولزقت ميمنة الكوفة بقلبهم وميسرة أهل البصرة بقلبهم، ومنعت ميمنة هؤلاء ميسرة هؤلاء وميسرة هؤلاء ميمنة هؤلاء، وتنادى شجعان مضر من الجانبين بالصبر وقصدوا الأطراف يقطعونها، وأصيبت يد عبد الرحمن بن عتاب قبل قتله، وقاتل عند الجمل الأزد ثم بنو ضبة وبنو عدي بن عبد مناف، وكثر القتل والقطع وصارت المجنبات إلى القلب ومحمد بن طلحة أمامهم وحمل عدي بن زيد ففقئت عينه وحمل الأشتر واستمر القتل إلى الجمل حتى قتل على الخطام أربعون رجلاً أو سبعون كلهم من قريش.

فجرح عبد الله بن الزبير وقتل عبد الرحمن بن عتاب وجندب بن زهير العامري وعبد الله بن حكيم بن حزام ومعه راية قريش فقتله الأشتر وأعانه فيه عدي بن حاتم، وقتل الأسود بن أبي البختري وهو آخذ بالخطام وبعده عمر بن الأشرف الأزدي في ثلاثة عشر من أهل بيته وجرح مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير سبعاً وثلاثين جراحة ما بين طعنة ورمية، ونادى علي اعقروا الجمل يتفرقوا، وضربه رجل فسقط فما كان صوت أشد عجيجاً منه. وكانت راية الأزد من أهل الكوفة مع مخنف بن سليم فقتل فأخذها الصقعب أخوه فقتل ثم أخوهما عبد الله كذلك، فأخذها العلاء بن عروة فكان الفتح وهي بيده.

وكانت راية عبد القيس من أهل الكوفة مع القاسم بن سليم فقتل ومعه زيد وسيحان ابنا صوحان وأخذها عدة فقتلوا منهم عبد الله بن رقية ثم منقذ بن النعمان، ودفعها إلى ابنه مرة فكان الفتح وهي بيده. وكانت راية بكر بن وائل في بني ذهل مع الحرث بن حسان فقتل من بني أهله ورجال من بني مخزوم وخمسة وثلاثين من بني ذهل.

وقيل في عقر الجمل إن القعقاع دعا الأشتر وقد جاء من القتال عند الجمل إلى العود فلم يجبه، وحمل القعقاع والخطام بيد زفر بن الحرث فأصيب شيوخ من بني عامر، وقال القعقاع لبجير بن دلجة من بني ضبة وهو من أصحاب علي: يا بجير! صح بقومك يعقروا الجمل قبل أن يصابوا وتصاب أم المؤمنين، فضرب ساق البعير فوقع على شقه، وأمر القعقاع من يليه واجتمع هو وزفر على قطع بطان البعير وحملا الهودج فوضعاه وهو كالقنفذ بالسهام، ومر من وراءه، وأمر علي فنودي: لا تتبعوا مدبراً ولا

تجهزوا على جريح ولا تدخلوا الدور، وأمر بحمل الهودج من بين القتلى، وأمر محمد بن أبي بكر أن يضرب عليها قبة وأن ينظر هل بها جراحة وجاء يسألها.

وقيل: لما سقط الجمل أقبل محمد بن أبي بكر إليه ومعه عمار فاحتملا الهودج إلى ناحية ليس قربه أحد وأتاها علي فقال: كيف أنت يا أمة! قالت: بخير! قال: يغفر الله لك! قالت ولك. وجاء وجوه الناس إليها فيهم القعقاع بن عمرو فسلم عليها، وقالت له: وددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة. وجاء إلى علي فقال له مثل قولها ولما كان الليل أدخلها أخوها محمد بن أبي بكر الصديق البصرة، فأقرها في دار عبد الله بن خلف الخزاعي على صفية زوجته بنت الحرث بن أبي طلحة من بني عبد الدار أم طلحة الطلحات بن عبد الله، وتسلل الجرحى من بين القتلى فدخلوا ليلاً إلى البصرة وأذن علي في دفن القتلى فدفنوا بعد أن طاف عليهم.

ورأى كعب بن سور وعبد الرحمن بن عتاب وطلحة بن عبيد الله وهو يقول: زعموا أنه يخرج إلينا إلا الغوغاء وأمثال هؤلاء فيهم. ثم صلى على القتلى من الجانبين وأمر بالأطراف فدفنت في قبر عظيم، وجمع ما كان في العسكر من كل شيء وبعث به إلى مسجد البصرة وقال: من عرف شيئاً فليأخذه إلا سلاحاً عليه سمة السلطان. وأحصى القتلى من الجانبين فكانوا عشرة آلاف منهم من ضبة ألف رجل. ولما فرغ علي من الوقعة جاءه الأحنف بن قيس في بني سعد فقال له: تربصت! فقال: ما أراني إلا قد أحسنت وبأمرك كان، فارفق فإن طريقك بعيد وأنت إلي غداً أحوج منك أمس فلا تقل لي مثل هذا فإني لم أزل لك ناصحاً. ثم دخل البصرة يوم الاثنين فبايعه أهلها على راياتهم حتى الجرحى والمستأمنة.

وأتاه عبد الرحمن بن أبي بكرة فبايعه وعرض له في عمه زياد بأنه متربص، فقال: والله إنه لمريض وعلى مسرتك لحريص. فقال: انهض أمامي فمضى فلما دخل عليه علي فتبعه فقبل عذره واعتذر بالمرض قبل عذره، وأراده على البصرة فامتنع وقال: ولها رجلاً من أهلك تسكن إليه الناس وسأشير عليه، وأشار بابن عباس فولاه، وجعل زياداً على الخراج وبيت المال، وأمر ابن عباس بموافقته فيما يراه. ثم راح علي إلى عائشة في دار ابن خلف وكان عبد الله بن خلف قتل في الوقعة فاستاءت أمه وبعض النسوة عليه، فأعرض عنهن وحرضه بعض أصحابه عليهن فقال: إن النساء ضعيفات وكنا نؤمر بالكف عنهن وهن مشركات فكيف بهن مسلمات؟

ثم بلغه أن بعض الغوغاء عرض لعائشة بالقول والإساءة، فأمر من أحضر له بعضهم وأوجعهم ضرباً، ثم جهزها علي إلى المدينة بما احتاجت إليه وبعثها مع أخيها محمد مع أربعين من نسوة البصرة اختارهن لمرافقتها، وأذن للفل ممن خرج عنها أن يرجعوا معها، ثم جاء يوم ارتحالها فودعها واستعتبت له واستعتب لها، ومشى معها أميالاً وشيعها بنوه مسافة يوم، وذلك غرة رجب، فذهبت إلى مكة فقضت الحج ورجعت إلى المدينة. وخرج بنو أمية من الفل ناجين إلى الشام.

فعتبة بن أبي سفيان وعبد الرحمن ويحيى أخو مروان خلصوا إلى عصمة بن أبير التيمي إلى أن اندملت جراحهم، ثم بعثهم إلى الشام. وأما عبد الله بن عامر فخلص إلى بني حرقوص ومضى من هنالك، وأما مروان بن الحكم فأجاره أيضاً مالك بن مسمع وبعثه وقيل: كان مع عائشة فلما ذهبت إلى مكة فارقها إلى المدينة، وأما الزبير فاختفى بدار بعض الأزد وبعث إلى عائشة يعلمها بمكانه فأرسلت أخاها محمداً وجاء إليها به.

ثم قسم عليّ جميع ما في بيت المال على من شهد معه، وكان يزيد على ستمائة ألف فأصاب كل رجل خمسمائة، وقال: إن أظفركم الله بالشام فلكم مثلها إلى أعطياتكم. فخاض السبئية في الطعن عليه بذلك وبتحريم أموالهم مع إراقة دمائهم، ورحلوا عنه فأعجلوه عن المقام بالبصرة، وارتحل في آثارهم ليقطع عليهم أمراً إن أرادوه.

وقد قيل في سياق أمر الجمل غير هذا، وهو أن علياً لما أرسل محمد بن أبي بكر إلى أبي موسى ليستنفر له أهل الكوفة وامتنع، سار هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى علي بالربذة فأخبره فأعاده إليه يقول له: إني لم أولك إلا لتكون من أعواني على الحق، فامتنع أبو موسى وكتب إليه هاشم مع المحل بن خليفة الطائي، فبعث علي ابنه الحسن وعمار بن ياسر يستنفران كما مر.

وبعث قرظة بن كعب الأنصاري أميراً وبعث إليه: إني قد بعثت الحسن وعماراً يستنفران الناس وبعثت قرظة بن كعب والياً على الكوفة فاعتزل عملنا مذموماً مدحوراً وإن لم تفعل فقد أمرته أن ينابذك وإن ظفر بك أن يقطعك إرباً إرباً وإن الناس تواقفوا للقتال، وأمر علي من يتقدم بالمصحف يدعوهم إلى ما فيه وإن قطع وقتل وحمله بعض الناس وفعل ذلك فقتل. وحملت ميمنة علي على ميسرتهم فاقتتلوا ولاذ الناس بجمل عائشة أكثرهم من ضبة والأزد ثم انهزموا آخر النهار، واستحر في الأزد القتل وحمل عمار على الزبير يحوزه بالرمح ثم استلان له وتركه.

وألقى عبد الله بن الزبير نفسه في الجرحى. وعقر الجمل واحتمل عائشة أخوها محمد فأنزلها وضرب عليها قبة ووقف عليها علي يعاتبها، فقالت له: ملكت فاسجح نعم ما أبكيت قومك اليوم، فسرحها في جماعة رجال ونساء إلى المدينة وجهزها بما تحتاج إليه.

هذا أمر الجمل ملخص من كتاب أبي جعفر الطبري اعتمدناه للوثوق به ولسلامته من الأهواء الموجودة في كتب ابن قتيبة وغيره من المؤرخين. وقتل يوم الجمل عبد الرحمن أخو طلحة من الصحابة والمخرز بن حارثة العبشمي وكان عمر ولاه على مكة، ومجاشع ومجالد ابنا مسعود مع عائشة. وعبد الله بن حكيم بن حزام وهند بن أبي هالة وهو ابن خديجة قتل مع علي وقيل بالبصرة وغيرهم. انتهى أمر الجمل.

ولما فرغ الناس من هذه الوقعة اجتمع صعاليك من العرب وعليهم جبلة بن عتاب الحنظلي وعمران بن الفضل البرجمي، وقصدوا سجستان وقد نكث أهلها، وبعث علي إليهم عبد الرحمن بن جرو الطائي فقتلوه، فكتب إلى عبد الله بن عباس أن يبعث إلى سجستان والياً، فبعث ربعي بن كاس العنبري في أربعة آلاف ومعه الحصين بن أبي الحر فقتل جبلة وانهزموا وضبط ربعي البلاد واستقامت.

انتفاض محمد بن أبي حذيفة بمصر ومقتله

لما قتل حذيفة بن عتبة يوم اليمامة ترك ابنه محمداً في كفالة عثمان وأحسن تربيته وسكر في بعض الأيام فجلده عثمان ثم تنسّك وأقبل على العبادة وطلب الولاية من عثمان، فقال: لست لها بأهل فاستأذنه على اللحاق بمصر لغزو البحر فأذن له وجهزه ولزمه الناس وعظموه لما رأوا من عبادته، ثم غزا مع ابن أبي سرح غزوة الصواري كما مر، فكان يتعرض له بالقدح فيه وفي عثمان وبتوليته ويجتمع في ذلك مع محمد بن أبي بكر، وشكاهما ابن أبي سرح إلى عثمان فكتب إليه بالتجافي عنهما لوسيلة ذلك بعائشة وهذا لتربيته.

وبعث إلى ابن أبي حذيفة ثلاثين ألف درهم وحمل من الكسوة فوضعهما ابن أبي حذيفة في المسجد، وقال: يا معشر المسلمين كيف أخادع عن ديني وآخذ الرشوة عليه، فازداد أهل مصر تعظيماً له وطعناً على عثمان وبايعوه على رياستهم، وكتب إليه عثمان يذكره بحقوقه عليه فلم يرده ذلك. وما زال يحرض الناس عليه حتى خرجوا لحصاره وأقام هو بمصر، وخرج ابن أبي سرح إلى عثمان فاستولى هو على مصر وضبطها إلى أن قتل عثمان وبويع علي وبايع عمرو بن العاص لمعاوية، وسار إلى مصر قبل قدوم قيس بن سعد فمنعهما فخدع محمد حتى خرج إلى العريش فتحصن بها في ألف رجل، فحاصره حتى نزل على حكمهم فقتلوه. وفي هذا الخبر بعض الوهن لأن الصحيح أن عمراً ملك مصر بعد صفين، وقيس ولاّه علي لأول بيعته، وقد قيل: إن ابن أبي حذيفة لما حوصر عثمان بالمدينة أخرج هو ابن أبي سرح عن مصر وضبطها، وأقام ابن أبي سرح بفلسطين حتى جاء الخبر بقتل عثمان وبيعة علي وتوليته قيس بن سعد على مصر.

فأقام بمعاوية. وقيل أن عمراً سار إلى مصر بعد صفين فبرز إليه ابن أبي حذيفة في العساكر وخادعه في الرجوع إلى بيعة علي، وأن يجتمعا لذلك بالعريش في غير جيش من الجنود، ورجع إلى معاوية عمرو فأخبره، ثم جاء إلى ميعاده بالعريش وقد استعد بالجنود وأكمنهم خلفه حتى إذا التقيا طلعوا على أثره فتبين ابن أبي حذيفة الغدر فتحصن بقصر العريش إلى أن نزل على حكم عمرو. وبعث به إلى معاوية فحبسه إلى أن فرّ من محبسه فقتل، وقيل: إنما بعثه عمرو إلى معاوية عند مقتل محمد بن أبي بكر وإنه أمنه ثم حمله إلى معاوية فحبسه بفلسطين.

ولاية قيس بن سعد على مصر

كان علي قد بعث إلى مصر لأول بيعته قيس بن سعد أميراً في صفر من سنة ست وثلاثين وأذن له في الإكثار من الجنود وأوصاه وقال له: لو كنت لا أدخلها إلا بجند آتي بهم من المدينة فلا أدخلها أبداً فأنا أدعو لك الجند تبعثهم في وجوهك، وخرج في سبعة من أصحابه حتى أتى مصر وقرأ عليهم كتاب علي بمبايعته وطاعته وإنه أميرهم، ثم خطب فقال بعد حمد الله: أيها الناس قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا فبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله. فبايعه الناس واستقامت مصر، وبعث عليها عماله إلا بعض القرى كان فيها قوم يدعون إلى الطلب بدم عثمان: مثل يزيد بن الحرث ومسلمة بن مخلد، فهادنهم وجبى الخراج وانقضى أمر الجمل وهو بمصر.

وخشي معاوية أن يسير إليه علي في أهل العراق وقيس من ورائه في أهل مصر فكتب إليه يعظم قتل عثمان ويطوّقه علياً ويحضه على البراءة من ذلك ومتابعته على أمره على أن يوليه العراقين إذا ظفر ولا يعزله، يولي من أراد من أهله الحجاز كذلك، ويعطيه ما شاء من الأموال. فنظر في أهله بين موافقته أو معاجلته

بالحرب فآثر الموافقة، فكتب إليه: أما بعد فإني لم أقارف شيئاً مما ذكرته وما اطلعت لصاحبي على شيء منه. وأما متابعتك فانظر فيها وليس هذا مما يسرع إليه، وأنا كافٍ عنك فلا يأتيك شيء من قبلي تكرهه حتى نرى وترى.

فكتب إليه معاوية: إني لم أرك تدنو فأعدك سلماً ولا تتباعد فأعدك حرباً، وليس مثلي يصانع المخادع وينخدع للمكايد ومعي عدد الرجال وأعنة الخيل والسلام.

فعلم قيس أن المدافعة لا تنفع معه فأظهر له ما في نفسه، وكتب إليه بالرد القبيح والشتم والتصريح بفضل علي والوعيد، فحينئذ أيس معاوية منه وكاده من قبل علي، فأشاع في الناس أن قيساً شيعة له تأتينا كتبه ورسله ونصائحه وقد ترون ما فعل بإخوانكم القائمين بثأر عثمان وهو يجري عليهم من الأعطية والأرزاق، فأبلغ ذلك إلى علي محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر وعيونه بالشام فأعظم ذلك، وفاوض فيه الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر، فقال له عبد الله: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك واعزله عن مصر. ثم جاء كتابه بالكف عن قتال المعتزلين فقال ابن جعفر: مره بقتالهم خشية أن تكون هذه مماألة. فكتب إليه يأمره بذلك فلم ير قيس ذلك رأياً وقال: متى قاتلناهم ساعدوا عليك عدوك وهم الآن معتزلون والرأي تركهم. فقال ابن جعفر: يا أمير المؤمنين! ابعث محمد بن أبي بكر على مصر، وكان أخاه لأمه، واعزل قيساً فبعثه. وقيل بعث قبله الأشتر النخعي، ومات بالطريق، فبعث محمداً ولما قدم محمد على قيس خرج عنها مغضباً إلى المدينة وكان عليها مروان بن الحكم فأخافه، فخرج هو وسهل بن حنيف إلى علي. وكتب معاوية إلى مروان يعاتبه لو امددت علياً بمئة ألف مقاتل كان أيسر عليّ من قيس بن سعد.

ولما قدم قيس على علي وكشف له عن وجه الخبر قبل عذره وأطاعه في أمره كله، وقدم محمد مصر فقرأ كتاب علي على الناس وخطبهم، ثم بعث إلى أولئك القوم المعتزلين الذين كان قيس وادعهم: ادخلوا في طاعتنا أو اخرجوا عن بلادنا! فقالوا: دعنا حتى ننظر! وأخذوا حذرهم، ولما انقضت صفين وصار الأمر إلى التحكيم بارزوه وبعث العساكر إلى يزيد بن الحرث الكناني بخربتا وعليهم الحرث بن جمهان فقتلوه ثم بعث آخر فقتلوه.

مبايعة عمرو بن العاص لمعاوية

لما أحيط بعثمان خرج عمرو بن العاص إلى فلسطين ومعه ابناه عبد الله ومحمد، فسكن بها هارباً مما توقعه من قتل عثمان إلى أن بلغه الخبر بقتله، فارتحل يبكي ويقول كما تقول النساء، حتى أتى دمشق فبلغه بيعة علي، فاشتد عليه الأمر وأقام ينتظر ما يصنعه الناس، ثم بلغه مسير عائشة وطلحة والزبير فأمل فرجاً من أمره، ثم جاءه الخبر بوقعة الجمل فارتاب في أمره، وسمع أن معاوية بالشام لا يبايع علياً وأنه يعظم قتل عثمان، فاستشار بنيه في المسير إليه، فقال له ابنه عبد الله: توفي النبي ﷺ والشيخان بعده وهم راضون عنك فأرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس. وقال له محمد: أنت ناب من أنياب العرب وكيف يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صيت؟ فقال: يا عبد الله! أمرتني بما هو خير لي في ديني، ويا محمد! أمرتني بما هو خير لي في دنياي وشر لي في آخرتي. ثم خرج ومعه ابناه حتى قدم على معاوية فوجدوهم يطلبون دم عثمان، فقال: أنتم على الحق اطلبوا بدم الخليفة المظلوم. فأعرض معاوية قليلاً، ثم رجع إليه وشركه في سلطانه.

أمر صفين

لما رجع علي بعد وقعة الجمل إلى الكوفة مجمعاً على قصد الشام، بعث إلى جرير بن عبد الله البجلي بهمدان وإلى الأشعث بن قيس بأذربيجان -وهما من عمّال عثمان -لأن يأخذا له البيعة ويحضرا عنده، فلما حضرا بعث جرير إلى معاوية يعلمه ببيعته ونكث طلحة والزبير وحزبهما ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس، فلما قدم عليه طاوله في الجواب وحمل أهل الشام ليرى جرير قيامهم في دم عثمان واتهامهم علياً به، وكان أهل الشام لما قدم عليهم النعمان بن بشير بقميص عثمان ملوثاً بالدم كما قدمناه وبأصابع زوجته نائلة، وضع معاوية القميص على المنبر والأصابع من فوقه، فمكث الناس يبكون مدة وأقسموا أن لا يمسهم ماء الجنابة ولا يناموا على فراش حتى يثأروا من عثمان ومن حال دون ذلك قتلوه. فرجع جرير بذلك إلى علي وعذله الأشتر فبعث جرير وإنه طال مقامه حتى تمكن أهل الشام من رأيهم فغضب لذلك جرير ولحق بقرقيسيا واستقدمه معاوية فقدم عليه.

وقيل إن شرحبيل بن الصمت الكندي أشار على معاوية برد جرير لمنافسة كانت بينهما منذ أيام عمر، وذلك أن شرحبيل كان عمر بن الخطاب بعثه إلى سعد بالعراق ليكون معه فقربه سعد وقدمه ونافسه له أشعث بن قيس، فأوصى جريراً عند وفادته على عمر أن ينال من شرحبيل عنده، ففعل فبعث عمر شرحبيل إلى الشام فكان يحقد ذلك على جرير، فلما جاء إلى معاوية أغراه

شرحبيل به وحمله على الطلب بدم عثمان. ثم خرج علي وعسكر بالنخيلة واستخلف على الكوفة أبا مسعود الأنصاري وقدم عليه عبد اللّه بن عباس في أهل البصرة، وتجهز معاوية وأغراه عمرو بقلة عسكر علي واضطغان أهل البصرة، له بمن قتل منهم.

وعبّى معاوية أهل الشام وعقد لعمرو ولابنيه وغلامه وردان الأولوية. وبعث علي في مقدمته زياد بن النضر الحارثي في ثمانية آلاف وشريح بن هانئ في أربعة آلاف، وسار من النخيلة إلى المدائن واستنفر من كان بها من المقاتلة وبعث منها معقل بن قيس في ثلاثة آلاف يسير من الموصل ويوافيه بالرقة وولى علي على المدائن سعد بن مسعود الثقفي عم المختار بن أبي عبيد، وسار فلما وصل إلى الرقة نصب له جسر فعبر وجاء زياد وشريح من ورائه، وكانا سمعا بمسير معاوية وخشيا أن يلقاهما معاوية وبينهما وبين علي البحر ورجعا إلى هيت وعبرا الفرات، ولحقا بعلي فقدمهما أمامه.

فلما أتيا إلى سور الروم لقيهما أبو الأعور السلمي في جند من أهل الشام فطاولاه وبعثا إلى علي فسرح الأشتر وأمره أن يجعلهما على مجنبتيه، وقال: لا تقاتلهم حتى آتيك! وكتب إلى شريح وزياد بطاعته فقدم عليهما وكف عن القتال سائر يومه حتى حمل عليهم أبو الأعور بالعشي فاقتتلوا ساعة وافترقوا ثم خرج من الغداة وخرج إليه من أصحاب الأشتر بن عتبة المرقال واقتتلوا عامة يومهم. وبعث الأشتر سنان بن مالك النخعي إلى أبي الأعور السلمي يدعوه إلى البراز فأبى وحجز بينهم الليل، ووافاهم من الغد علي وعساكره.

فتقدم الأشتر وانتهى إلى معاوية ولحق به علي. وكان معاوية قد ملك شريعة الفرات فشكا الناس إلى علي العطش فبعث صعصعة بن صوحان إلى معاوية بأنا سرنا ونحن عازمون على الكف عنكم حتى نعذر إليكم فسابقنا جندكم بالقتال ونحن رأينا الكف حتى ندعوكم ونحتج عليك وقد منعتم الماء والناس غير منتهين فابعث إلى أصحابك يخلون عن الماء للورد حتى ننظر بيننا وبينكم وإذا أردت القتال حتى يشرب الغالب فعلنا. فأشار عمرو بن العاص بتخلية الماء لهم، وأشار ابن أبي سرح والوليد بن عقبة بمنعهم الماء، وعرضا بشتم فتشاتم معهم صعصعة ورجع، وأوعز إلى أبي الأعور بمنعهم الماء وجاء الأشعث بن قيس إلى الماء فقاتلهم عليه.

ثم أمر معاوية أبا الأعور يزيد بن أبي أسد القسري جد خالد بن عبد اللّه ثم بعمرو بن العاص بعده، وأمر علي الأشعث بشبث بن ربعي ثم بالأشتر وعليهم أصحاب علي وملكوا الماء عليهم، وأرادوا منعهم منه فنهاهم علي عن ذلك. وأقام يومين.

ثم بعث إلى معاوية أبا عمرو بشير بن عمرو بن محصن الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن ربعي التميمي، يدعونه إلى الطاعة وذلك أول ذي الحجة سنة ست وثلاثين، فدخلوا عليه وتكلم بشير بن عمرو بعد حمد اللّه والثناء عليه والموعظة الحسنة وناشده اللّه أن لا يفرق الجماعة ولا يسفك الدماء، فقال: هلا أوصيت بذلك صاحبك. فقال بشير: ليس مثلك هو أحق بالأمر بالسابقة والقرابة. قال: فما رأيك؟ قال: تجيبه إلى ما دعا إليه من الحق، قال معاوية: ونترك دم عثمان لا واللّه لا أفعله أبداً! ثم قال شبث بن ربعي: يا معاوية! إنما طلبت دم عثمان تستميل به هؤلاء السفهاء الطغام إلى طاعتك، ولقد علمنا أنك أبطأت على عثمان بالنصر لطلب هذه المنزلة فاتق اللّه ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله. فأجابه معاوية وأبدع في سبه وقال: انصرفوا فليس بيني وبينكم إلا السيف. فقال له شبث: أقسم باللّه لنجعلنها لك.

ورجعوا إلى علي بالخبر. وأقاموا يقتتلون أيام ذي الحجة كلها عسكر من هؤلاء وعسكر من هؤلاء، وكرهوا أن يلقوا جمع أهل العراق بجمع أهل الشام حذراً من الاستئصال والهلاك. ثم جاء المحرم فذهبوا إلى الموادعة حتى ينقضي طمعاً في الصلح، وبعث إلى معاوية عدي بن حاتم ويزيد بن قيس الأرحبي وشبث بن ربعي وزياد بن حفصة، فتكلم عدي بعد الحمد والثناء ودعا إلى الدخول في طاعة علي ليجمع اللّه به الكلمة فلم يبق غيرك ومن معك واحذر يا معاوية أن يصيبك وأصحابك مثل يوم الجمل. فقال معاوية: كأنك جئت مهدداً لا مصلحاً هيهات يا عدي! أنا ابن حرب! واللّه ما يقعقع لي بالشنان وإنك من قتلة عثمان وأرجو أن يقتلك اللّه به. فقال له يزيد بن قيس: إنما أتيناك رسلا ولا ندع مع ذلك النصح والسعي في الإلفة والجماعة وذكر من فضل علي واستحقاقه للأمر بتقواه وزهده.

فقال معاوية: بعد الحمد والثناء: أما الجماعة التي تدعون إليها فهي معنا وأما طاعة صاحبكم فلا نراها لأنه قتل خليفتنا وآوى أهل ثأرنا ونحن مع ذلك نجيبكم إلى الطاعة والجماعة إذا دفع إلينا قتلة عثمان. فقال شبث بن ربعي: أيسرك يا معاوية أن تقتل عماراً؟ قال: نعم بمولاه! قال شبث حتى تضيق واللّه الأرض الفضاء عليك. فقال معاوية: لو كان ذلك لكانت عليك أضيق. وافترقوا عن معاوية ثم خلا بزياد بن حفصة وشكا إليه من علي وسأله النصر فيه بعشيرته وأن يوليه أحد المصرين. فأبى

وقال: إني على بينة من ربي فلن أكون ظهيراً للمجرمين. وقام عنه فقال معاوية لعمرو: كأن قلوبهم قلب رجل واحد.

ثم بعث معاوية إلى علي حبيب بن مسلمة وشرحبيل بن السمط ومعن بن يزيد بن الأخنس فدخلوا عليه، فتكلم حبيب بعد الحمد لله والثناء فقال: إن عثمان كان خليفة مهدياً يعمل بكتاب اللّه وينيب إلى أمره فاستثقلتم حياته واستبطأتم موته فقتلتموه فادفع إلينا قتلته إن كنت لم تقتله ثم اعتزل أمر الناس فيولوا من أجمعوا عليه. فقال علي: ما أنت وهذا الأمر فاسكت فلست بأهل له! فقال: واللّه لتراني بحيث تكره، فقال: وما أنت لا أبقى اللّه عليك إن أبقيت وأذهب فصوب وصعد.

ثم تكلم بعد الحمد لله والثناء وهداية الناس لمحمد ﷺ وخلافة الشيخين وحسن سيرتهما، وقد وجدنا عليهما أن توليا ونحن أقرب منهما إلى رسول اللّه ﷺ لكن سامحناهما بذلك، وولي عثمان فعاب الناس عليه وقتلوه، ثم بايعوني مخافة الفرقة فأجبتهم، ونكث عليّ رجلان وخالف صاحبكم الذي ليس له مثل سابقتي، والعجب من انقيادكم له دون بيت نبيكم ولا ينبغي لكم ذلك، وأنا أدعوكم إلى الكتاب والسنة ومعالم الدين وإماتة الباطل وإحياء الحق فقالوا: نشهد أن عثمان قتل مظلوماً، فقال: لا أقول مظلوماً ولا ظالماً. قالوا: فمن لم يقل ذلك فنحن منه براء وانصرفوا. فقرأ علي: ﴿إِنَّكَ =لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ الآية، ثم قال لأصحابه: لا يكن هؤلاء في ضلالهم أحد منكم في حقكم.

ثم نازع عدي بن حاتم في راية طيء عامر بن قيس الجرموزي وكان رهطه أكثر من رهط عدي، فقال عبد اللّه بن خليفة اليولاني: ليس فينا أفضل من عدي ولا من أبيه حاتم ولم يكن في الإسلام وهو الوافد إلى رسول اللّه ﷺ ورأس طيء في النخيلة والقادسية والمدائن وجلولاء ونهاوند وتستر، وسأل علي قومهم فوافقوه على ذلك فقضى بها لعدي.

ولما انسلخ المحرم نادى علي في الناس بالقتال وعبّى الكتائب وقال لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمثّلوا ولا تأخذوا مالاً ولا تهيجوا امرأة وإن شتمتكم فإنهن ضعاف الأنفس والقوى، ثم حرضهم ودعا لهم وجعل الأشتر على خيل الكوفة وسهل بن حنيف على خيل البصرة وقيس بن سعد على رجالة البصرة وعمار بن ياسر على رجالة الكوفة وهاشم بن عتبة معه الراية ومسعر بن فدكي على القراء، وعبّى معاوية كتائبه: فجعل على الميمنة ذا الكلاع الحميري وعلى الميسرة حبيب بن مسلمة، وعلى المقدمة أبا الأعور وعلى خيل دمشق عمرو بن العاص وعلى رجالتها مسلم بن عقبة المري. وعلى الناس كلهم الضحاك بن قيس. وتبايع رجال من أهل الشام على الموت فعقلوا أنفسهم بالعمائم في خمسة صفوف وخرجوا في اليوم الأول من صفر خرج الأشتر من أهل الكوفة وحبيب من أهل الشام فاقتتلوا عامة يومهم، وفي اليوم الثاني هاشم بن عتبة وأبو الأعور السلمي، وفي اليوم الثالث عمار بن ياسر وعمرو بن العاص فاقتتلوا أشد قتال وحمل عمار فأزال عمراً عن موضعه.

وفي اليوم الرابع محمد بن الحنفية وعبيد اللّه بن عمر بن الخطاب وتداعيا إلى البراز فرد علي ابنه وتراجعوا، وفي اليوم الخامس عبد اللّه بن عباس والوليد بن عقبة فاقتتلا كذلك، ثم عاد في اليوم السادس الأشتر وحبيب فاقتتلا قتالاً شديداً وانصرفا.

وخطب علي الناس عشية يومهم وأمرهم بمناهضة القوم بأجمعهم وأن يطيلوا ليلتهم القيام، ويكثروا التلاوة ويدعوا لله بالنصر والصبر، ويرموا غداً في لقائهم بالجد والحزم.

فبات الناس يصلحون ليلتهم سلاحهم، وعبّى علي الناس ليلته إلى الصباح، وزحف وسأل عن القبائل من أهل الشام وعرف مواقفهم وأمر كل قبيلة أن تكفيه أختها من أهل الشام، ومن ليس منهم أحد بالشام يصرفهم إلى من ليس منهم أحد بالعراق مثل بجيلة صرفهم إلى لخم. وخرج معاوية في أهل الشام فاقتتلوا يوم الأربعاء قتالاً شديداً عامة يومهم ثم انصرفوا، وغلس علي يوم الخميس بالزحف وعلى ميمنته عبد اللّه بن بديل بن ورقاء وعلى ميسرته عبد اللّه بن عباس والقراء مع عمار وقيس بن سعد وعبد اللّه بن زيد والناس على راياتهم ومراكزهم، وعلي في القلب بين أهل الكوفة والبصرة ومعه أهل المدينة من الأنصار وخزاعة وكنانة.

ورفع معاوية قبة عظيمة وألقى عليها الثياب وبايعه أكثر أهل الشام على الموت، وأحاط بقبته خيل دمشق وزحف ابن بديل في الميمنة فقاتلهم إلى الظهر وهو يحرض أصحابه. ثم كشف خيلهم واضطرهم إلى قبة معاوية، وجاء الذين تبايعوا على الموت إلى معاوية فبعثهم إلى حبيب فحمل بهم على ميمنة أهل العراق فانجفل الناس عن أهل بديل إلا ثلاثمائة أو مائتين من القراء وانتهت الهزيمة إلى علي، وأمدّه علي بسهل بن حنيف في أهل المدينة فاستقبلهم جموع عظيمة لأهل الشام فمنعتهم.

ثم انكشفت مضر من الميسرة وثبتت ربيعة وجاء علي يمشي نحوهم فاعترضه أحمر مولى أبي سفيان فحال دونه كيسان مولاه فقتله أحمر، فتناول علي أحمر من درعه فجذبه وضرب به الأرض

وكسر منكبيه وعضديه، ثم دنا من ربيعة فصبرهم وثبت أقدامهم وتنادوا بينهم: إن أصيب بينكم أمير المؤمنين افتضحتم في العرب، وكان الأشتر مر به راكضاً نحو الميمنة واستقبل الناس منهزمين فأبلغهم مقالة علي: أين فراركم من الموت الذي لا تعجزوه إلى الحياة التي لا تبقى لكم، ثم نادى: أنا الأشتر! فرجع إليه بعضهم فنادى مذحجاً وحرضهم فأجابوه، وقصد القوم واستقبله شباب من همذان ثمانمائة أو نحوها وكان قد هلك منهم في ذلك اليوم أحد عشر رئيساً وأصيب منهم ثمانون ومائة وزحف الأشتر نحو الميمنة.

وتراجع الناس واشتد القتال حتى كشف أهل الشام وألحقهم بمعاوية عند الاصفرار وانتهى إلى ابن بديل في مائتين أو ثلاثمائة من القراء قد لصقوا بالأرض، فانكشف عنهم أهل الشام وأبصروا إخوانهم وسألوا عن علي فقيل لهم هو بالميسرة يقاتل، فقال ابن بديل: استقدموا بنا ونهاه الأشتر فأبى ومضى نحو معاوية وحوله أمثال الجبال تقتل كل من دنا منه حتى وصل إلى معاوية، فنهض إليه الناس من كل جانب وأحيط به فقتل وقتل من أصحابه ناس ورجع آخرون مجروحون وأهل الشام في اتباعهم، فبعث الأشتر من نفس عنهم حتى وصلوا إليه وزحف الأشتر في همدان وطوائف من الناس فأزال أهل الشام عن مواقفهم حتى ألحقهم بالصفوف المعقلة بالعمائم حول معاوية، ثم حمل أخرى فصرع منهم أربعة صفوف حتى دعا معاوية بفرسه فركب، وخرج عبد الله بن أبي الحصين الأزدي في القراء الذين مع عمار فقاتلوا، وتقدم عقبة بن حبيب النميري مستميتاً ومعه إخوته فقاتلوا حتى قتلوا، وتقدم شمر بن ذي الجوشن مبارزاً فضرب أدهم بن محرز الباهلي وجهه بالسيف وحمل على أدهم فقتله، وحمل قيس بن المكشوح ومعه راية بجيلة فقاتل حتى أخذها آخر كذلك.

ولما رأى علي أهل ميمنة أصحابه قد عادوا إلى مواقفهم وكشفوا العدو قبالتهم أقبل إليهم وعذلهم بعض الشيء عن مفرهم وأثنى على رجوعهم، وقاتل الناس قتالاً شديداً وتبارز الشجعان من كل جانب وأقبلت طيء والنخع وخرجت حمير من ميمنة أهل الشام، وتقدم ذو الكلاع ومعهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب فقصد ربيعة في ميسرة أهل العراق وعليهم ابن عباس وحملوا عليهم حملة شديدة فثبتت ربيعة وأهل الحفاظ منهم وانهزم الضعفاء والفشلة، ثم رجعوا ولحقت بهم عبد القيس وحملوا على حمير فقتل ذي الكلاع وعبيد الله بن عمر وأخذ سيف ذي الكلاع وكان لعمر، فلما ملك معاوية العراق أخذه من قاتله. ثم خرج عمار بن ياسر وقال: اللّهم إني لا أعمل اليوم عملاً أرضى من جهاد هؤلاء الفاسقين ثم نادى: من سعى في رضوان ربه فلا يرجع إلى مال ولا ولد فأتاه عصابة فقال: اقصدوا بنا هؤلاء الذين يطلبون بدم عثمان يخادعون بذلك عما في نفوسهم من الباطل، ثم مضى فلا يمر بواد من صفين إلا اتبعه من هناك من الصحابة. ثم جاء هاشم بن عتبة وكان صاحب الراية فأنهضه حتى دنا من عمرو بن العاص فقال: يا عمرو بعت دينك بمصر؟ تباً لك! فقال: إنما أطلب دم عثمان، فقال: أشهد أنك لا تطلب وجه اللّه في كلام كثير من أمثال ذلك وأن رسول اللّه ﷺ قال في عمار: « تقتله الفئة الباغية » .

فلما قتل عمار حمل علي وحمل معه ربيعة ومضر وهمدان حملة منكرة فلم يبق لأهل الشام صفّ إلا انتقض حتى بلغوا معاوية فناداه علي: علام يقتل الناس بيننا هلمّ أحاكمك إلى اللّه فأينا قتل صاحبه استقام له الأمر، فقال له عمرو: أنصفك! فقال له معاوية: لكنك ما انصفت. وأسر يومئذ جماعة من أصحاب علي فترك سبيلهم، وكذلك فعل علي. ومر علي بكتيبة من الشام قد ثبتوا فبعث إليهم محمد ابن الحنفية فأزالهم عن مواقفهم، وصرع عبد اللّه بن كعب المرادي فمر به الأسود بن قيس فأوصاه بتقوى اللّه والقتال مع علي، وقال: أبلغه عني السلام، وقال له: قاتل على المعركة حتى تجعلها خلف ظهرك فإنه من أصبح غداً والمعركة خلف ظهره فإنه العالي. ثم اقتتل الناس تلك الليلة إلى الصباح وهي ليلة الجمعة وتسمى ليلة الهرير، وعلي يسير بين الصفوف ويحرض كل كتيبة على التقدم حتى أصبح والمعركة كلها خلف ظهره، والأشتر في الميمنة وابن عباس في الميسرة والناس يقتتلون من كل جانب وذلك يوم الجمعة. ثم ركب الأشتر ودعا الناس إلى الحملة على أهل الشام فحمل حتى انتهى إلى عسكرهم وقتل صاحب رايتهم، وأمده علي بالرجال.

فلما رأى عمرو شدة أهل العراق وخاف على أصحابه الهلاك، قال لمعاوية: مر الناس يرفعون المصاحف على الرماح ويقولون كتاب اللّه بيننا وبينكم فإن فعلوا ذلك ارتفع عنا القتال وإن أبى بعضهم وجدنا في افتراقهم راحة. ففعلوا ذلك، فقال الناس: نجيب إلى كتاب اللّه فقال لهم علي: ياعباد اللّه! امضوا على حقكم وقتال عدوكم فإن معاوية وابن أبي معيط وحبيباً وابن أبي سرح والضحاك ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم صحبتهم أطفالاً ورجالاً فكانوا شرّ أطفال وشرّ رجال، ويحكم واللّه ما رفعوها إلا مكيدة وخديعة. فقالوا: لا يسعنا أن ندعى إلى كتاب اللّه فلا نقبل، فقال: إنما قاتلناهم ليدينوا بكتاب اللّه فإنهم نبذوه.

فقال له مسعر بن فدك التميمي وزيد بن حصين الطائي في عصابة من القراء الذين صاروا خوراج بعد ذلك: يا علي أجب إلى كتاب الله وإلا دفعنا برمتك إلى القوم. أو فعلنا بك ما فعلنا بابن عفان. فقال: إن تطيعوني فقاتلوا وإن تعصوني فافعلوا ما بدا لكم، قالوا: فابعث إلى الأشتر وكفّه عن القتال، فبعث إليه يزيد بن هاني بذلك فأبى، وقال: قد رجوت أن يفتح الله لي!

فلما جاء يزيد بذلك ارتج الموقف باللغط، وقالوا لعلي: ما نراك إلا أمرته بقتال فابعث إليه فليأتك وإلا اعتزلناك، فقال علي: ويحك يا يزيد قل له أقبل إلي فإن الفتنة قد وقعت، فقال: الرفع المصاحف؟ فقال: نعم! قال: لقد ظننت إن ذلك يوقع فرقة كيف ندع هؤلاء وننصرف والفتح قد وقع، فقال يزيد: تحب أن تظفر وأمير المؤمنين يسلم إلى عدوه أو يقتل؟ ثم أقبل إليهم الأشتر وأطال عتبهم، وقال: أمهلوني فواقاً فقد أحسست بالفتح، فأبوا فعذلهم وأطال في عذلهم، فقالوا: دعنا يا أشتر قاتلناهم لله، فقال: بل خدعتم فانخدعتم.

ثم كثرت الملاحاة بينهم وتشاتموا فصاح بهم عليّ فكفّوا، فقال له الأشعث بن قيس: أن الناس قد رضوا بما دعوا إليه من حكم القرآن فإن شئت أتيت معاوية وسألته ما يريد. قال: افعل. فأتاه وسأله لأي شيء رفعتم المصاحف؟ قال: لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به من كتابه تبعثون رجلاً ترضونه، ونحن آخر ونأخذ عليهما عهد الله أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه. ثم نتبع ما اتفقا عليه، فقال الأشعث: هذا الحق ورجع إلى علي والناس وأخبرهم، فقال الناس: رضينا وقبلنا، ورضي أهل الشام عمراً، وقال الأشعث: وأولئك القراء الذين صاروا خوارج: رضينا بأبي موسى، فقال علي لا أرضاه! فقال الأشعث ويزيد بن الحصين ومسعر بن فدك: لا نرضى إلا به. قال: فإنه ليس بثقة قد فارقني وخذل الناس عني وهرب مني حتى أمنته بعد أشهر، قالوا: لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، قال: فالأشتر؟ قالوا: وهل سعر الأرض غير الأشتر؟ قال: فاصنعوا ما بدا لكم! فبعثوا إلى أبي موسى وقد اعتزل القتال، فقيل: إن الناس قد اصطلحوا، فحمد الله، قيل وقد جعلوك حكماً فاسترجع، وجاء أبو موسى إلى العسكر وطلب الأحنف بن قيس من علي أن يجعله مع أبي موسى، فأبى الناس من ذلك وحضر عمرو بن العاص عند علي ليكتبوا القضية بحضوره، فكتبوا بعد البسملة.

هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين، فقال عمرو: ليس هو بأميرنا! فقال له الأحنف: لا تمحها فإني أتطير بمحوها فمحث ملياً، ثم قال الأشعث: إمحها. فقال علي: الله أكبر! وذكر قصة الحديبية وفيها إنك ستدعى إلى مثلها فتجيب، فقال عمرو: سبحان الله نشبه بالكفار ونحن مؤمنون؟ فقال علي: يا ابن النابغة ومتى لم تكن للفاسقين ولياً وللمؤمنين عدواً! فقال عمرو: والله لا يجمع بيني وبينك مجلس بعد اليوم، فقال علي: أرجو أن يطهّر الله مجلسي منك ومن أشباهك. وكتب الكتاب. هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم ومعاوية على أهل الشام ومن معهم أنا نزل عند حكم الله وكتابه وأن لا يجمع بيننا غيره وإن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيا ونميت ما أمات مما وجد الحكمان في كتاب الله. وهما أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص وما لم يجدا في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة.

وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يورداها في حرب ولا فرقة حتى يقضيا، وأحلا القضاء إلى رمضان فإن أحبّا أن يؤخرا ذلك أخراه وإن مكان قضيتهما مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام. وشهد رجال من أهل العراق ورجال من أهل الشام وضعوا خطوطهم في الصحيفة، وأبى الأشتر أن يكتب اسمه فيها وحاوره الأشعث في ذلك فأساء الردّ عليه وتهدّده.

وكتب الكتاب لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين. واتفقوا على أن يوافي علي موضع الحكمين بدومة الجندل ويأذرح في شهر رمضان، ثم جاء بعض الناس إلى علي يحضه على قتال القوم فقال: لا يصلح الرجوع بعد الرضى ولا التبديل بعد الإقرار.

ثم رجع الناس عن صفين ورجع علي، وخالفت الحرورية وأنكروا تحكيم الرجال ورجعوا على غير الطريق الذي جاؤوا فيه حتى جازوا النخيلة ورأوا بيوت الكوفة، ومر علي بقبر خباب بن الأرت توفي بعد خروجه فوقف واسترحم له، ثم دخل الكوفة فسمع رجة البكاء في الدور فقيل: يبكين على القتلى فترحم لهم، ولم يزل يذكر الله حتى دخل القصر فلم تدخل الخوارج معه وأتوا حروراً فنزلوا بها في اثني عشر ألفاً، فقدموا شبث بن عمر التميمي أمير القتال وعبيد الله بن الكوى اليشكري أمير الصلاة.

قالوا: البيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأمر شورى بعد الفتح. فقالوا للناس: بايعتم علياً إنكم أولياء من والى وأعداء من عادى، وبايع أهل الشام معاوية على ما

أحب وكرهوا فلستم جميعاً من الحق في شيء. فقال لهم زياد بن النضر: والله ما بايعناه إلا على الكتاب والسنة ولكن لما خالفتموه تعيّنتم للضلال وتعيّن للحق. ثم بعث علي عبد الله بن عباس إليهم وقال: لا تراجعهم حتى آتيك فلم يصبر عن مكالمتهم، وقال: ما نقمتم من أمر الحكمين وقد أمر الله بهما بين الزوجين فكيف بالأمة؟ فقالوا: لا يكون هذا بالرأي والقياس! فإن ذلك جعل الله حكمه للعباد وهذا أمضاه كما أمضى حكم الزاني والسارق. قال ابن عباس: قال الله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، قالوا: والأخرى كذلك وليس أمر الصيد والزوجين كدماء المسلمين. ثم قالوا له: قد كنا بالأمس نقاتل عمرو بن العاص فإن كان عدلاً فعلامَ قاتلناه؟ وإن لم يكن عدلاً فكيف يسوغ تحكيمه؟ وأنتم قد حكمتم الرجال في أمر معاوية وأصحابه والله تعالى قد أمضى حكمه فيهم أن يقتلوا أو يرجعوا وجعلتم بينكم الموادعة في الكتب وقد قطعها الله بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة. ثم جاء علي إلى فسطاط يزيد بن قيس منهم بعد أن علم أنهم يرجعون إليه في رأيهم، فصلى عنده ركعتين وولاّه على أصبهان والري.

ثم خرج إليهم وهم في مجلس ابن عباس فقال: من زعيمكم؟ قالوا: ابن الكوى! قال: فما هذا الخروج؟ قالوا: لحكومتكم يوم صفين، قال: أنشدكم الله أتعلمون إنه لم يكن رأيي وإنما كان رأيكم مع أني اشترطت على الحكمين أن يحكما بحكم القرآن فإن فعلا فلا ضير وإن خالفا فلا ضير ونحن براء من حكمهم، فقالوا فتحكيم الرجال في الدماء عدل؟ قال إنما حكمنا القرآن إلا أنه لا ينطق وإنما يتكلم به الرجال، قالوا: فلم جعلتم الأجل بينكم؟ قال لعل الله يأتي فيه بالهدنة بعد افتراق الأمة فرجعوا إلى رأيه، وقال: ادخلوا مصركم فلنمكث ستة أشهر حتى يجبى المال ويسمن الكراع ثم نخرج إلى عدونا فدخلوا من عند آخرهم.

أمر الحكمين

ولما انقضى الأجل وحان وقت الحكمين بعث علي أبا موسى الأشعري في أربعمائة رجل عليهم شريح بن هاني الحارثي ومعهم عبد الله بن عباس يصلي بهم، وأوصى شريحاً بموعظة عمرو، فلما سمعها قال: متى كنت أقبل مشورة علي واعتدّ برأيه؟ قال: وما يمنعك أن تقبل من سيد المسلمين، وأساء الرد عليه فسكت عنه. وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشام والتقوا بأذرح من دومة الجندل، فكان أصحاب عمرو أطوع من أصحاب ابن عباس لابن عباس، حتى لم يكونوا يسألونه عن كتاب معاوية إذا جاءه، ويسأل أهل العراق ابن عباس ويتهمونه، وحضر مع الحكمين عبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام، وعبد الرحمن بن يغوث الزهري، وأبو جهم بن حذيفة العدوي، والمغيرة بن شعبة، وسعد بن أبي وقاص على خلاف فيه، وقيل: ندم على حضوره فأحرم بعمرة من بيت المقدس.

ولما اجتمع الحكمان قال عمرو لأبي موسى أما تعلم أن عثمان قتل مظلوماً وأن معاوية وقومه أولياؤه؟ قال: بلى! قال: فما يمنعك منه وهو في قريش كما علمت؟ وإن قصرت به السابقة قدمه حسن السياسة وإنه صهر رسول الله ﷺ وكاتبه وصاحبه والطالب بدم عثمان وعرّض بالولاية، فقال له أبو موسى: ياعمرو اتق الله واعلم أن هذا الأمر ليس بالشرف وإلا لكان لآل أبرهة بن الصباح وإنما هو بالدين والفضل مع أنه لو كان بشرف قريش لكان لعلي بن أبي طالب وما كنت لأرى لمعاوية طلبه دم عثمان وأوليه وأدع المهاجرين الأولين. وأما تعريضك بالولاية فلو خرج لي عثمان عن سلطانه ما وليته وما أرتشي في حكم الله.

ثم دعاه إلى تولية عبد الله بن عمر، قال له عمرو: فما يمنعك من ابني وهو من علمت؟ فقال له رجل: صدق ولكنك غمسته في الفتنة، فقال عمرو: إن هذا الأمر لا يصلح إلا لرجل له ضرس يأكل ويطعم -وكانت في ابن عمر غفلة- وكان ابن الزبير بإزائه فنبهه لما قال، فقال ابن عمر: لا أرشو عليها أبداً! ثم قال أبو موسى يا ابن العاص إن العرب أسندت أمرها إليك بعد المقارعة بالسيوف فلا تردهم في فتنة، قال له: فخبرني ما رأيك؟ قال: أرى أن نخلع الرجلين ونجعل الأمر شورى فيختار المسلمون لأنفسهم. فقال عمرو: الرأي ما رأيت!

ثم أقبلوا على الناس وهم ينتظرونهم، وكان عمرو قد عوّد أبا موسى أن يقدمه في الكلام لما له من الصحبة والسن، فقال: يا أبا موسى! أعلمهم أن رأينا قد اتفق، فقال: إنا رأينا أمراً نرجو الله أن يصلح به الأمة، فقال له ابن عباس: ويحك أظنه خدعك فاجعل له الكلام قبلك، فأبى وقال: أيها الناس إنا نظرنا في أمر الأمة فلم نر أصلح لهم مما اتفقنا عليه وهو أن نخلع علياً ومعاوية ويولي الناس أمرهم من أحبوا وإني قد خلعتهما فولوا من أردتم ورأيتموه أهلاً.

فقال عمرو: إن هذا قد خلع صاحبه وقد خلعته كما خلعه وأثبتُ معاوية فهو ولي ابن عفان وأحق الناس بمقامه. ثم عدا ابن

عباس وسعد على أبي موسى باللائمة وقال: ما أصنع غدرني ورجع باللائمة على عمرو وقال: لا وفقك الله غدرت وفجرت. وحمل شريح على عمرو فضربه بالسيف وضربه ابن عمر كذلك، وحجز الناس بينهم، فلحق أبو موسى بمكة وانصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية فسلموا عليه بالخلافة، ورجع ابن عباس وشريح إلى علي بالخبر فكان يقنت إذا صلى الغداة ويقول: اللّهم العن معاوية وعمراً وحبيباً وعبد الرحمن بن مخلد والضحاك بن قيس والوليد وأبا الأعور، وبلغ ذلك معاوية فكان إذ قنت يلعن علياً وابن عباس والحسن والحسين والأشتر.

أمر الخوارج وقتالهم

ولما اعتزم علي أن يبعث أبا موسى للحكومة أتاه زرعة بن البرج الطائي وحرقوص بن زهير السعدي من الخوارج وقالا له: تب من خطيئتك وارجع عن قضيتك واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم، وقال علي: قد كتبنا بيننا وبينهم كتاباً وعاهدناهم، فقال حرقوص: ذلك ذنب تبتغي التوبة منه، فقال علي: ليس بذنب ولكن عجز من الرأي، فقال زرعة: لئن لم تدع تحكيم الرجال لأقاتلنك أطلب وجه الله، فقال علي: بؤساً لك كأني بك قتيلاً تسفى عليك الرياح، قال: وددت لو كان ذلك. وخرجا من عنده يناديان لا حكم إلا لله.

وخطب علي يوماً فتنادوا من جوانب المسجد بهذه الكلمة، فقال علي: الله أكبر كلمة حق أريد بها باطل، وخطب ثانياً فقالوا كذلك، فقال: أما أن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ولا الفيء ما دمتم معنا ولا نقاتلكم حتى تبدأونا وننتظر فيكم أمر الله. ثم اجتمع الخوارج في منزل عبد الله بن وهب الراسبي فوعظهم وحرضهم على الخروج إلى بعض النواحي لإنكار هذه البدع، وتبعه حرقوص بن زهير في المقال، فقال حمزة بن سنان الأزدي: الرأي ما رأيتم لكن لا بد لكم من أمير وراية، فعرضوها على زيد بن حصين الطائي، ثم حرقوص بن زهير، ثم حمزة بن سنان، ثم شريح بن أبي أوفى العنسي فأبوا كلهم. ثم عرضوها على عبد الله بن وهب فأجاب فبايعوه لعشر خلون من شوال، وكان يقال له: ذو الثفنات.

ثم اجتمعوا في منزل شريح وتشاوروا. وكتب ابن وهب إلى أهل البصرة منهم يستحث بهم على اللحاق بهم، ولما اعترفوا على المسير تعبدوا ليلة الجمعة ويومها وساروا، فخرج معهم طرفة بن عدي بن حاتم الطائي، واتبعه أبوه إلى المدائن فلم يقدروا عليه فرجع ولقيه عبد الله بن وهب في عشرين فارساً وأراد قتله فمنعه من كان معه من طيء. وأرسل علي إلى عامل المدائن سعد بن مسعود يخبرهم فاستخلف ابن أخيه المختار بن عبيد وسار في طلبهم في خمسمائة فارس، فتركوا طريقهم وساروا على بغداد ولحقهم سعد بالكرخ مساء، وجاءه عبد الله في ثلاثين فارساً وقاتلهم وامتنعوا، وأشار أصحابه بتركهم إلى أن يأتي فيهم أمر علي فأبى، ولما جن عليهم الليل عبر عبد الله إليهم دجلة وسار إلى أصحابه بالنهروان، واجتمعت خوارج البصرة في خمسمائة رجل عليهم مسعر بن فدكي التميمي واتبعهم أبو الأسود الدؤلي بأمر ابن عباس ولحقه فاقتتلوا حتى حجز بينهم الليل، فأدلج مسعر بأصحابه فلحق بعبد الله بن وهب بالنهروان، ولما خرجت الخوارج بايع علياً أصحابه على قتالهم، ثم أنكر شأن الحكمين فخطب الناس وقال: بعد الحمد لله والموعظة ألا أن هذين الحكمين نبذا حكم القرآن واتبع كل واحد هواه واختلفا في الحكم وكلاهما لم يرشد، فاستعدوا للسير إلى الشام.

وكتب إلى الخوارج بالنهروان بذلك واستحثهم للمسير إلى العدو وقال: نحن على الأمر الأول الذي كنا عليه. فكتبوا إليه: إنك غضبت لنفسك ولم تغضب لربك فإن شهدت على نفسك بالكفر وتبت نظرنا بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على السواء. فيئس علي منهم ورأى أن يمضي إلى الشام ويدعهم، وقام في الناس يحرضهم لذلك، وكتب إلى ابن عباس من معسكره بالنخيلة يأمره بالشخوص في العساكر والمقام إلى أن يأتي أمره، فأشخص ابن عباس الأحنف بن قيس في ألف وخمسمائة، ثم خطب ثانية وندب الناس وقال: كيف ينفر هذا العدد القليل وانتم ستون ألف مقاتل ثم تهددهم وأمرهم بالنفير مع جارية بن قدامة السعدي. فخرج معه ألف وستمائة ووافوا علياً في ثلاثة آلاف ويزيدون.

ثم خطب أهل الكوفة ولاطفهم بالقول وحرضهم وأخبرهم بما فعل أهل البصرة مع كثرتهم وقال: ليكتب إلي كل رئيس منكم ما في عشيرته من المقاتلين من أبنائهم ومواليهم، فأجابه سعيد بن قيس الهمداني ومعقل بن قيس وعدي بن حاتم وزياد بن خصفة وحجر بن عدي وأشراف الناس بالسمع والطاعة، وأمروا ذويهم ألا يتخلف منهم أحد، فكانوا أربعين ألف مقاتل وسبعة عشر ألفاً ممن بلغ الحلم، وانتهت عساكره إلى ثمانية وستين ألفاً. وبلغه أن الناس يرون تقديم الخوارج فقال لهم: إن قتال أهل الشام أهم علينا لأنهم يقاتلونكم ليكونوا ملوكا جبارين ليتخذوا عباد الله خولاً فرجعوا إلى رأيه وقالوا: سر بنا إلى حيث شئت. وبينما هو على اعتزام السير إلى أهل الشام بلغه أن خوارج

أهل البصرة لقوا عبد الله بن خباب من صحابة رسول الله ﷺ قريباً من النهروان فعرفهم بنفسه، فسألوه عن أبي بكر وعمر فأثنى خيرا، ثم عن عثمان في أول خلافته وآخرها فقال: كان محقاً في الأول والآخر، فسألوه عن علي قبل التحكيم وبعده، فقال هو أعلم بالله وأشد توقياً على دينه، فقالوا: إنك توالي الرجال على أسمائها، ثم ذبحوه وبقروا بطن امرأته ثم قتلوا ثلاث نسوة من طيء. فأسف علياً قتلهم عبد الله بن خباب واعتراضهم الناس، فبعث الحرث بن مرة العبدي لينظر فيما بلغه عنهم فقتلوه، فقال له أصحابه: كيف ندع هؤلاء ونأمن غائلتهم في أموالنا وعيالنا إنما نقدم أمرهم على الشام، وقام الأشعث بن قيس بمثل ذلك فوافقهم علي وسار إليهم، وبعث من يقول لهم إدفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم فنكف عنكم حتى نرجع من قتال العرب لعل الله يردكم إلى خير فقالوا: كلنا قتلهم وكلنا مستحل دماءكم ودماءهم.

ثم جاءهم قيس بن سعد ووعظهم وأبو أيوب الأنصاري كذلك. ثم جاءهم علي فتهددهم وسفه رأيهم وبين لهم شأن الحكمين وأنهما لما خالفا حكم الكتاب والسنة نبذنا أمرهما ونحن على الأمر الأول فقالوا: إنا كفرنا بالتحكيم وقد تبنا فإن تبت أنت فنحن معك وإن أبيت فقد نابذناك، فقال: كيف أحكم على نفسي بالكفر بعد إيماني وهجرتي وجهادي؟ ثم انصرف عنهم.

وقيل: إن علياً خطبهم وأغلظ عليهم فيما فعلوه من الاستعراض والقتل فتنادوا لا تكلموهم وتأهبوا للقاء الله. ثم قصدوا جسر الخوارج ولحقهم علي دونه، وقد عبى أصحابه وعلى ميمنته حجر بن عدي وعلى ميسرته شبث بن ربعي أو معقل بن قيس وعلى الخيل أبو أيوب وعلى الرجالة أبو قتادة وعلى أهل المدينة سبعمائة أو ثمانمائة قيس بن سعد.

وعبأت نحوه الخوارج على ميمنتهم زيد بن حصين الطائي وعلى الميسرة شريح بن أوفى العنسي وعلى الخيل حمزة بن سنان الأسدي وعلى الرجالة حرقوص بن زهير. ودفع علي إلى أبي أيوب راية أمان لهم لمن جاءها ممن لم يقتل ولم يستعرض فناداهم إليها وقال: من انصرف إلى الكوفة والمدائن فهو آمن. فاعتزل عنهم فروة بن نوفل الأشجعي في خمسمائة وقال أعتزل حتى يتضح لي أمر في قتال علي فنزل الدسكرة، وخرج آخرون إلى الكوفة، ورجع آخرون إلى علي وكانوا أربعة آلاف، وبقي منهم ألف وثمانمائة فحمل عليهم علي والناس حتى فرقهم على الميمنة والميسرة.

ثم استقبلتهم الرماة وعطفت عليهم الخيل من المجنبتين ونهض إليهم الرجال بالسلاح فهلكوا كلهم في ساعة واحدة كأنما قيل لهم موتوا، وقتل عبد الله بن وهب وزيد بن حصن وحرقوص بن زهير وعبد الله بن شجرة وشريح بن أوفى. وأمر علي أن يلتمس المخدج في قتلاهم وهو الذي ذكره رسول الله ﷺ في علاماتهم فوجد في القتلى فاعتبر علي وكبر واستبصر الناس، وأخذ ما في عسكرهم من السلاح والدواب فقسمه بين المسلمين ورد عليهم المتاع والإماء والعبيد.

ودفن عدي بن حاتم ابنه طرفة ورجالاً من المسلمين فنهى علي عن ذلك، وارتحل ولم يفقد من أصحابه إلا سبعة أو نحوهم.

وشكا إليه الناس الكلال ونفود السهام والرماح وطلبوا الرجوع إلى الكوفة ليستعدوا فإنه أقوى على القتال، وكان الذي تولى كلامه الأشعث بن قيس فلم يجبه، وأقبل فنزل النخيلة ومنعهم من دخول منازلهم حتى يسيروا إلى عدوهم، فتسللوا أيام المقامة إلى البيوت وتركوا المعسكر خالياً فلما رأى علي ذلك دخل في ندبهم ثانياً فلم ينفروا، فأقام أياماً ثم كلم رؤساءهم على رأيهم والذي يطمئ بهم فلم ينشط لذلك إلا القليل، فخطبهم وأغلظ في عتابهم وأعلمهم بما له عليهم من الطاعة في الحق والنصح فتثاقلوا وسكتوا.

ولاية عمرو بن العاص على مصر

قد تقدم لنا ما كان من اجتماع العثمانية بنواحي مصر مع معاوية بن حديج السكوني، وإن محمد بن أبي بكر بعث إليهم العساكر من الفسطاط مع ابن مضاهم فهزموه وقتلوه، واضطرمت الفتنة بمصر على محمد بن أبي بكر، وبلغ ذلك علياً فبعث إلى الأشتر من مكان عمله بالجزيرة وهو نصيبين فبعثه على مصر وقال: ليس لها غيرك. وبلغ الخبر إلى معاوية وكان قد طمع في مصر فعلم إنها ستمتنع بالأشتر، وجاء الأشتر فنزل على صاحب الخراج بالقلزم فمات هنالك، وقيل: إن معاوية بعث إلى صاحب القلزم فسمه على أن يسقط عنه الخراج وهذا بعيد.

وبلغ خبر موته علياً فاسترجع واسترحم وكان محمد بن أبي بكر لما بلغته ولاية الأشتر شق عليه فكتب علي يعتذر إليه وإنه لم يوله لسوء رأيه في محمد وإنما هو لما كان يظن فيه من الشدة فقد صار إلى الله ونحن عنه راضون فرضي الله عنه وضاعف له الثواب، فاصبر لعدوك وشمر للحرب وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر من ذكر الله والاستعانة به والخوف منه يكفيك ما أهمك ويعينك على ما ولاك. فأجابه محمد بالرضا برأيه والطاعة لأمره، وأنه مزمع على حرابة من خالفه.

ثم لما كان من أمر الحكمين ما كان واختلف أهل العراق على علي، وبايع أهل الشام معاوية بالخلافة، فأراد معاوية صرف عمله إلى مصر لما كان يرجو من الاستعانة على حروبه بخراجها، ودعا بطانته أبا الأعور السلمي وحبيب بن مسلمة وبسر بن أطأة والضحاك بن قيس وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وشرحبيل بن السمط وشاورهم في شأنها، فأشار عليه عمرو بافتتاحها وأشار ببعث الجيش مع حازم صارم يوثق ويجتمع إليه من كان على رأيه من العثمانية.

فقال معاوية: بل الرأي أن نكاتب العثمانية بالوعد ونكاتب العدو بالصلح والتخويف ونأتي الحرب بعد ذلك، ثم قال معاوية: إنك يا ابن العاص بورك لك في العجلة وأنا في التؤدة، فقال: إفعل ما تراه وأظن الأمر لا يصير إلا للحرب. فكتب معاوية إلى معاوية بن حديج ومسلمة بن مخلد يشكرهما على الخلاف، ويحثهما على الحرب والقيام في دم عثمان، وفرحا بجوابهما فطلب المدد فجمع أصحابه وأشاروا بذلك.

فأمر عمرو بن العاص أن يتجهز إلى مصر في ستة آلاف رجل ووصاه بالتؤدة وترك العجلة، فنزل أدنى أرض مصر واجتمعت إليه العثمانية، وبعث كتابه وكتاب معاوية إلى محمد بن أبي بكر بالتهديد وإن الناس اجتمعوا عليك وهم مسلموك فاخرج، فبعث بالكتابين إلى علي فوعده بإنفاذ الجيوش وأمره بقتال العدو والصبر. فقدم محمد بن أبي بكر كنانة بن بشر في ألفين، فبعث معاوية عمرو بن حديج وسرحه في أهل الشام فأحاطوا بكنانة، فترجل عن فرسه وقاتل حتى استشهد. وجاء الخبر إلى محمد بن أبي بكر فافترق عنه أصحابه وفروا، وآوى في مفره إلى خربة واستتر في تلك الخربة، فقبض عليه فأخذه ابن حديج وجاء به إلى الفسطاط، وطلب أخوه عبد الرحمن من عمرو أن يبعث إلى ابن حديج في البقاء عليه فأبى، وطلب محمد الماء فمنعه ابن حديج جزاء بما فعل بعثمان، ثم أحرقه في جوف حمار بعد أن لعنه ودعا عليه وعلى معاوية وعمرو.

وكانت عائشة تقنت في الصلاة بالدعاء على قتلته. ويقال إنه لما انهزم اختفى عند جبلة بن مسروق حتى أحاط به معاوية بن حديج وأصحابه، فخرج إليهم فقاتل حتى قتل. ولما بلغ الخبر علياً خطب الناس وندبهم إلى أعدائهم وقال: اخرجوا بنا إلى الجزعة بين الحيرة والكوفة. وخرج من الغد إلى منتصف النهار يمشي إليها حتى نزلها فلم يلحق به أحد، فرجع من العشي وجمع أشراف الناس ويخهم فأجاب مالك بن كعب الأرحبي في ألفين، فقال: سر وما أراك تدركهم فسار خمساً، ولحق حجاج بن عرفة الأنصاري قادماً من مصر فأخبره بقتل محمد، وجاء إلى علي عبد الرحمن بن شبث الفزاري وكان عيناً له بالشام، فأخبره بقتل محمد واستيلاء عمرو على مصر، فحزن لذلك، وبعث إلى مالك بن كعب أن يرجع بالجيش وخطب الناس فأخبرهم بالخبر وعذلهم على ما كان منهم من التثاقل حتى فات هذا الأمر ووبخهم طويلاً ثم نزل.

دعاء ابن الحضرمي بالبصرة لمعاوية ومقتله

ولما افتتح معاوية مصر بعث عبد الله بن الحضرمي إلى البصرة داعياً لهم وقد آنس منهم الطاعة بما كان من قتل علي إياهم يوم الجمل وإنهم على رأيه في دم عثمان، وأوصاه بالنزول في مصر وأن يتودد إلى الأزد وحذره من ربيعة وقال: إنهم ترائبه! يعني شيعة لعلي. فسار ابن الحضرمي حتى قدم البصرة.

وكان ابن عباس قد خرج إلى علي واستخلف عليها زياداً، ونزل في بني تميم واجتمع إليه العثمانية فحضهم على الطلب بدم عثمان من علي، فقال الضحاك بن قيس الهلالي: قبح الله ما جئت به وما تدعو إليه تحملنا على الفرقة بعد الاجتماع وعلى الموت ليكون معاوية أميراً؟ فقال له عبد الله بن حازم السلمي اسكت! فلست لها بأهل. ثم قال لابن الحضرمي نحن أنصارك ويدك والقول قولك، فقرأ كتاب معاوية يدعوهم إلى رأيه من الطلب بدم عثمان على أن يعمل فيهم بالسنة ويضاعف لهم الأعطية. فلما فرغ من قراءته قام الأحنف بن قيس معتزلاً وحض عمر بن مرحوم على لزوم البيعة والجماعة.

وقام العباس بن حجر في مناصرة ابن الحضرمي، فقال له المثنى بن مخرمة: لا يغرنك ابن صحار وارجع من حيث جئت، فقال ابن الحضرمي لصبرة بن شيمان الأزدي: ألا تنصرني؟ قال لو نزلت عندي فعلت! ودعا زياد أمير البصرة حصين بن المنذر ومالك بن مسمع ورؤوس بكر بن وائل إلى المنعة من ابن الحضرمي إلى أن يأتي أمر علي، فأجاب حصين وتثاقل مالك وكان هواه في بني أمية، فأرسل زياد إلى صبرة بن شيمان يدعوه إلى الجدار بما معه من بيت المال فقال: إن حملته إلى داري أجرتك فتحول إليه ببيت المال والمنبر، وكان يصلي الجمعة في مسجد قومه، وأراد زياد اختبارهم فبعث إليهم من ينذرهم بمسيره إليهم، وأخذ زياد جنداً منهم بعد صبره لذلك وقال: إن جاءوا جئناهم، وكتب زياد إلى علي بالخبر فأرسل أعين بن ضبيعة لنفرق تميماً عن ابن الحضرمي ويقاتل من عصاه بمن أطاعه، فجاء لذلك وقاتلهم

يوماً أو بعض يوم، ثم اغتاله قوم فقتلوه يقال من الخوارج.

ولاية زياد على فارس

ولما قتل ابن الحضرمي بالبصرة والناس مختلفون على علي طمع أهل النواحي من بلاد العجم في كسر الخراج، وأخرج أهل فارس عاملهم سهل بن حنيف، فأشار علي الناس فأشار عليه جارية بن قدامة بزياد فأمر ابن عباس أن يوليه عليه، فبعثه إليها في جيش كثيف فطوى بهم أهل فارس وضرب ببعضهم بعضاً وهرب قوم وأقام آخرون، وصفت له فارس بغير حرب. ثم تقدم إلى كرمان فدوخها مثل ذلك فاستقامت وسكن الناس ونزل اصطخر وسكن قلعة بها تسمى قلعة زيار.

فراق ابن عباس لعلي رضي الله عنهم

وفي سنة أربعين فارق عبد الله بن عباس علياً ولحق بمكة، وذلك أنه مر يوماً بأبي الأسود ووبخه على أمر، فكتب أبو الأسود إلى علي بأن ابن عباس استتر بأموال الله فأجابه علي يشكره على ذلك وكتب لابن عباس ولم يخبره بالكاتب، فكتب إليه بكذب ما بلغه من ذلك وإنه ضابط للمال حافظ له، فكتب إليه علي: أعلمني ما أخذت ومن أين أخذت وفيما وضعت؟ فكتب إليه ابن عباس فهمت استعظامك لما رفع إليك إني رزأته من هذا المال فابعث إلى عملك من أحببت فإني ظاعن عنه واستدعى أخواله من بني هلال، فجاءته قيس كلها فحمل المال وقال: هذه أرزاقنا، واتبعه أهل البصرة ووقفت دونه قيس. فرجع صبرة بن شيمان الهمداني بالأزد وقال قيس: إخواننا وهم خير من المال فاطيعوني.

وانصرف معهم بكر وعبد القيس ثم انصرف الأحنف بقومه من بني تميم وحجز بقية بني تميم عنه، ولحق ابن عباس بمكة.

مقتل علي رضي الله عنه

قتل علي رضي الله عنه سنة أربعين لسبع عشرة من رمضان وقيل: لأحدى عشرة وقيل: في ربيع الآخر والأول أصح، وكان سبب قتله أن عبد الرحمن بن ملجم المرادي والبرك بن عبد الله التميمي الصريمي واسمه الحجاج وعمرو بن بكر التميمي السعدي: ثلاثتهم من الخوارج لحقوا من فلهم بالحجاز، واجتمعوا فتذاكروا ما فيه الناس وعابوا الولاة وترحموا على قتلى النهروان، وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم فلو شرينا أنفسنا وقتلنا أئمة الضلال وأرحنا منهم الناس.

فقال ابن ملجم -وكان من مصر- أنا أكفيكم علياً، وقال البرك: أنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر التميمي: أنا أكفيكم عمرو بن العاص. وتعاهدوا أن لا يرجع أحد عن صاحبه حتى يقتله أو يموت. واتعدوا لسبع عشرة من رمضان وانطلقوا. ولقي ابن ملجم أصحابه بالكوفة فطوى خبره عنهم، ثم جاء إلى شبيب بن شجرة من أشجع ودعاه إلى الموافقة في شأنه، فقال شبيب: ثكلتك أمك فكيف تقدر على قتله؟ قال أكمن له في المسجد في صلاة الغداة فإن قتلناه وإلا فهي الشهادة قال ويحك لا أجدني أنشرح لقتله مع سابقته وفضله، قال ألم يقتل العباد الصالحين أهل النهروان؟ قال بلى! قال فنقتله بمن قتله منهم، فأجابه.

ثم لقي امرأة من تيم الرباب فائقة الجمال قتل أبوها وأخوها يوم النهروان، فأخذت قلبه فخطبها فشرطت عليه عبداً وقينة وقتل علي، فقال كيف يمكن ما أنت تريدين؟ قالت التمس غرته فإن قتلته شفيت النفوس وإلا فهي الشهادة. قال: والله ما جئت إلا لذلك ولك ما سألت، قالت: سأبعث معك من يشد ظهرك ويساعدك، فبعثت معه رجلاً من قومها اسمه وردان. فلما كانت الليلة التي واعد ابن ملجم أصحابه على قتل علي وكانت ليلة الجمعة جاء إلى المسجد ومعه شبيب ووردان وجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي للصلاة، فلما خرج ونادى للصلاة علاه شبيب بالسيف فوقع بعضادة الباب، وضربه ابن ملجم على مقدم رأسه، وقال: الحكم لله لا لك يا علي ولا لأصحابك. وهرب وردان إلى منزله وأخبر بعض أصحابه بالأمر فقتله. وهرب شبيب مغلساً. وصاح الناس به فلحقه رجل من حضرموت فأخذه وجلس عليه والسيف في يد شبيب والناس قد أقبلوا في طلبه، وخشي الحضرمي على نفسه لاختلاط الغلس فتركه وذهب في غمار الناس.

وشد الناس على ابن ملجم واستخلف علي على الصلاة جعدة بن هبيرة وهو ابن أخته أم هانئ فصلى الغداة بالناس، وأدخل ابن ملجم مكتوفاً على علي فقال: أيه عدو الله ما حملك على هذا؟ قال شحذته أربعين صباحاً وسألت الله أن يقتل به شر خلقه، فقال أراك مقتولاً به! ثم قال إن هلكت فاقتلوه كما قتلني وإن بقيت رأيت فيه رأيي، يابني عبد المطلب لا تخوضوا على دماء المسلمين وتقولوا قتل أمير المؤمنين لا تقتلوا إلا قاتلي.

يا حسن أنا إن مت من ضربتي هذه فاضربه بسيفه ولا تمثلن بالرجل فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول «إياكم والمثلة».

وقالت أم كلثوم لابن ملجم وهو مكتوف وهي تبكي: أي عدو اللّه لا بأس على أبي واللّه مخزيك قال فعلام تبكين؟ واللّه لقد شريته بألف وصقلته أربعين ولو كانت هذه الضربة بأهل بلد ما بقي منهم أحد.

وقال جندب بن عبد اللّه لعلي أنبايع الحسن إن فقدناك؟ قال ما آمركم به ولا أنهاكم انتم أبصر، ثم دعا الحسن والحسين ووصاهما قال: أوصيكما بتقوى اللّه ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ولا تأسفا على شيء إن زوى منهما عنكما وقولا الحق وارحما اليتيم واعينا الضائع وكونا للظالم خصما وللمظلوم ناصراً واعملا بما في كتاب اللّه ولا تأخذكما في اللّه لومة لائم. ثم قال لمحمد ابن الحنفية إني أوصيك بمثل ذلك وبتوقير أخويك لعظيم حقهما عليك ولا تقطع أمراً دونهما، ثم وصاهما بابن الحنفية، ثم أعاد على الحسن وصيته. ولما حضرته الوفاة كتب وصيته العامة ولم ينطق إلا بلا إله إلا اللّه حتى قبض.

وأحضر الحسن ابن ملجم فقال له هل لك البقاء علي: وإني قد عاهدت اللّه أن اقتل علياً ومعاوية، وإني عاهدت اللّه على الوفاء بالعهد فخل بيني وبين ذلك فإن قتلته وبقيت فلك عهد اللّه أن آتيك، فقال: لا واللّه حتى تعاين النار ثم قدمه فقتله. وأما البرك فإنه قصد لمعاوية تلك الليلة فلما خرج للصلاة ضربه بالسيف في إليته وأخذ فقال: عندي بشرى أتنفعني إن أخبرتك بها؟ قال نعم. قال إن أخا لي قتل علياً هذه الليلة، قال فلعله لم يقدر عليه، قال بلى إن علياً ليس معه حرس، فأمر به معاوية فقتل، وأحضر الطبيب فقال: ليس إلا الكي أو شربة تقطع منك الولد. فقال: في يزيد وعبد اللّه ما تقر به عيني والنار لا صبر لي عليها.

وقد قيل إنه أمر بقطع البرك فقطع وأقام إلى أيام زياد فقتله بالبصرة، وعند ذلك اتخذ معاوية المقصورة وحرس الليل وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد. ويقال إن أول من اتخذ المقصورة مروان بن الحكم سنة أربع وأربعين حين طعنه اليماني. وأما عمرو بن بكر فأنه جلس إلى عمرو بن العاص تلك الليلة فلم يخرج وكان اشتكى فأمر صاحب شرطته خارجة بن أبي حبيبة بن عامر بن لؤي يصلي بالناس فشد عليه فضربه فقتله وهو يرى أنه عمرو بن العاص، فلما أخذوه وأدخلوه على عمرو قال: فمن قتلت إذاً؟ قالوا خارجة فقال لعمرو بن العاص واللّه ما ظننته غيرك! فقال عمرو: أردت عمراً وأراد اللّه خارجة. وأمر بقتله.

وتوفي علي رضي اللّه عنه وعلى البصرة عبد اللّه بن عباس وعلى قضائها أبو الأسود الدؤلي وعلى فارس زياد بن سمية وعلى اليمن عبيد اللّه بن العباس حتى وقع أمر بسر بن أبي أرطاة، وعلى مكة والطائف قثم بن العباس وعلى المدينة أبو أيوب الأنصاري وقيل سهل بن حنيف.

بيعة الحسن وتسليمه الأمر لمعاوية

ولما قتل علي رضي اللّه عنه اجتمع أصحابه فبايعوا ابنه الحسن، وأول من بايعه قيس بن سعد وقال: أبسط يدك على كتاب اللّه وسنة رسوله وقتال الملحدين. فقال الحسن: على كتاب اللّه وسنة رسوله. ويأتيان على كل شرط. ثم بايعه الناس فكان يشترط عليهم إنكم سامعون مطيعون تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت، فارتابوا وقالوا: ما هذا لكم بصاحب وما يريد القتال. وبلغ الخبر بمقتل علي إلى معاوية فبويع بالخلافة ودعي بأمير المؤمنين، وكان قد بويع بها بعد اجتماع الحكمين. ولأربعين ليلة بعد مقتل علي مات الأشعث بن قيس الكندي من أصحابه، ثم مات من أصحابه معاوية شرحبيل بن السمط الكندي. وكان علي قبل قتله قد تجهز بالمسلمين إلى الشام، وبايعه أربعون ألفاً من عسكره على الموت.

فلما بويع الحسن زحف معاوية في أهل الشام إلى الكوفة فسار الحسن في ذلك الجيش للقائه وعلى مقدمته قيس بن سعد في إثني عشر ألفا، وقيل بل كان عبد اللّه بن عباس على المقدمة وقيس في طلائعه. فلما نزل الحسن في المدائن شاع في العسكر إن قيس بن سعد قتل، واهتاج الناس وماج بعضهم في بعض وجاءوا إلى سرادق الحسن ونهبوا ما حوله حتى نزعوه بساطه الذي كان عليه واستلبوه رداءه وطعنه بعضهم في فخذه. وقامت ربيعة وهمدان دونه واحتملوه على سرير إلى المدائن ودخل إلى القصر وكاد أمره أن ينحل، فكتب إلى معاوية يذكر له النزول عن الأمر على أن يعطيه ما في بيت المال بالكوفة ومبلغه خمسة آلاف ألف، ويعطيه خراج دار ابجرد من فارس وأن لا يشتم علياً وهو يسمع، وأخبر بذلك أخاه الحسين وعبد اللّه بن جعفر وعذلاه فلم يرجع إليهما. وبلغت صحيفته إلى معاوية فأمسكها وكان قد بعث عبد اللّه بن عامر وعبد اللّه بن سمرة إلى الحسن ومعهما صحيفة بيضاء ختم في أسفلها وكتب إليه أن اشترط في هذه الصحيفة ما شئت فهو لك فاشترط فيها أضعاف ما كان في الصحيفة، فلما سلم له وطالبه في الشروط أعطاه ما في الصحيفة الأولى وقال: هو الذي طلبت. ثم نزعه أهل البصرة خراج دار ابجرد وقالوا: هو فيئنا لا نعطيه.

وخطب الحسن أهل العراق وقال سخى نفسي عنكم ثلاث: قتل أبي وطعني وانتهاب بيتي، ثم قال ألا وقد أصبحتم بين قبيلتين قبيل بصفين يبكون له وقبيل بالنهروان يطلبون بثأره وأما الباقي فخاذل، وأما الباكي فثائر وإن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عز ولا نصفة، فإن أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه إلى اللّه بضبي السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضى. فناداه الناس من كل جانب الباقية البقية فأمضي الصلح. ثم بايع لمعاوية لستة أشهر من بيعته. ودخل معاوية الكوفة وبايعه الناس، وكتب الحسن إلى قيس بن سعد يأمره بطاعة معاوية فقام قيس في أصحابه فقال: نحن بين القتال مع غير إمام أو طاعة إمام ضلالة، فقال له الناس: طاعة الإمام أولى.

وانصرفوا إلى معاوية فبايعوه وامتنع قيس وانصرف. فلما دخل معاوية الكوفة أشار عليه عمرو بن العاص أن يقيم الحسن للناس خطيباً ليبدو للناس عيه، فلما قدم حمد اللّه وقال: أيها الناس إن اللّه هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا وإن لهذا الأمر مدة وإن الدنيا دول واللّه عز وجل يقول لنبيه: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ فقال له معاوية: اجلس! وعرف أنه خدع في رأيه.

ثم ارتحل الحسن في أهل بيته وحشمهم إلى المدينة وخرج أهل الكوفة لوداعه باكين، فلم يزل مقيماً بالمدينة إلى أن هلك سنة تسع وأربعين. وقال أبو الفرج الأصبهاني سنة إحدى وخمسين على فراشه بالمدينة، وما ينقل من أن معاوية دس إليه السم مع زوجته جعدة بنت الأشعث فهو من أحاديث الشيعة وحاشا لمعاوية من ذلك.

وأقام قيس بن سعد على امتناعه من البيعة وكان معاوية قد بعث عبد اللّه بن عامر في جيش إلى عبيد اللّه بن عباس لما كتب إليه في الأمان بنفسه، فلقيه ليلاً وأمنه وسار معه إلى معاوية، فقام بأمر العسكر بعده قيس بن سعد وتعاقدوا على قتال معاوية حتى يشترط لشيعة علي على دمائهم وأموالهم وما كانوا أصابوا في الفتنة، وبلغ الخبر إلى معاوية وأشار عليه عمرو في قتاله، فقال معاوية: يقتل في ذلك أمثالهم من أهل الشام ولا خير فيه. ثم بعث إليه بصحيفة ختم في أسفلها وقال: اكتب في هذا ما شئت فهو لك: فكتب قيس له ولشيعته الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال، ولم يسأل مالاً فأعطاه معاوية ذلك وبايعه قيس والشيعة الذين معه، ثم جاء سعد بن أبي وقاص فبايعه. واستقر الأمر لمعاوية واتفق الجماعة على بيعته وذلك في منتصف سنة إحدى وأربعين وسمي ذلك العام عام الجماعة من أجل ذلك.

ثم خرج عليه الخوارج من كل جهة من بقية أهل النهروان وغيرهم فقاتلهم واستلحمهم كما يأتي في أخبارهم على ما اشترطناه في تأليفنا من أفراد الأخبار عن الدول وأهل النحل دولة دولة وطائفة طائفة. وهذا آخر الكلام في الخلافة الإسلامية وما كان فيها من الردة والفتوحات والحروب ثم الاتفاق والجماعة أوردتها ملخصة عيونها ومجامعها من كتاب محمد بن جرير الطبري وهو تاريخه الكبير فإنه أوثق ما رأيناه في ذلك، وأبعد من المطاعن عن الشبه في كبار الأمة وخيارهم وعدولهم من الصحابة رضي اللّه عنهم والتابعين، فكثيرا ما يوجد في كلام المؤرخين أخبار فيها مطاعن وشبه في حقهم أكثرها من أهل الأهواء فلا ينبغي أن تسود بها العيون، (واتبعتها) بمفردات من غير كتاب الطبري بعد أن تخيرت الصحيح جهد الطاقة وإذا ذكرت شيئاً في الأغلب نسبته إلى قائله.

وقد كان ينبغي أن تلحق دولة معاوية وأخباره بدول الخلفاء وأخبارهم فهو تأليهم في الفضل والعدالة والصحبة، ولا ينظر في ذلك إلى حديث: الخلافة بعدي ثلاثون سنة فإنه لم يصح، والحق إن معاوية في عداد الخلفاء وإنما أخره المؤرخون في التأليف عنهم لأمرين:

الأول إن الخلافة لعهده كانت مغالبة لأجل ما قدمناه من العصبية التي حدثت لعصره، وأما قبل ذلك فكانت اختياراً واجتماعاً فميزوا بين الحالتين، فكان معاوية أول خلفاء المغالبة والعصبية الذين يعبر عنهم أهل الأهواء بالملوك، ويشبهون بعضهم ببعض وحاشى اللّه أن يشبه معاوية بأحد ممن بعده، فهو من الخلفاء الراشدين ومن كان تلوه في الدين والفضل من الخلفاء المروانية ممن تلاه في المرتبة كذلك وكذلك من بعدهم من خلفاء بني العباس، ولا يقال: إن الملك أدون رتبة من الخلافة فكيف يكون خليفة ملكاً.

وأعلم أن الملك الذي يخالف بل ينافي الخلافة هي الجبروتية والمعبر عنها بالكسروية التي أنكرها عمر على معاوية حين رأى ظواهرها، وأما الملك الذي هو الغلبة والقهر بالعصبية والشوكة فلا ينافي الخلافة ولا النبوة فقد كان سليمان بن داود وأبوه صلوات اللّه عليهما نبيين وملكين وكانا على غاية الاستقامة في دنياهما وعلى طاعة ربهما عز وجل. ومعاوية لم يطلب الملك ولا أبهته للإستكثار من الدنيا، وإنما ساقه أمر العصبية بطبعها لما استولى المسلمون على الدولة كلها وكان هو خليفتهم فدعاهم بما يدعو الملوك إليه قومهم عندما تستعمل العصبية وتدعو لطبيعة الملك.

وكذلك شأن الخلفاء أهل الدين من بعده إذا دعتهم ضرورة الملك إلى استعمال أحكامه ودواعيه، والقانون في ذلك عرض أفعالهم على الصحيح من الأخبار لا بالواهي، فمن جرت أفعاله عليها فهو خليفة النبي ﷺ في المسلمين، ومن خرجت أفعاله من ذلك فهو من ملوك الدنيا وإن سمي خليفة في المجاز.

الأمر الثاني: في ذكر معاوية مع خلفاء بني أمية دون الخلفاء الأربعة أنهم كانوا أهل نسب واحد عظيمهم معاوية، فجعل مع أهل نسبه، والخلفاء الأولون مختلفو الأنساب فجعلوا في نمط واحد وألحق بهم عثمان وإن كان من أهل هذا النسب للحوقه بهم قريباً في الفضل والله يحشرنا في زمرتهم ويرحمنا بالاقتداء بهم.

تمت تكملة الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث وأوله.

الخبر عن الدول الإسلامية ونبدأ منها بدولة بني أمية معقبة لخلفاء صدر الإسلام وذكر أوليتهم وأخبار دولهم واحدة واحدة إلى انقضائها

دولة بني أمية

كان لبني عبد مناف في قريش جمل من العدد والشرف. لا يناهضهم فيها أحد من سائر بطون قريش. وكان فخذاهم بنو أمية وبنو هاشم حياً جميعاً ينتمون لعبد مناف وينسبون إليه. وقريش تعرف ذلك وتسأل لهم الرياسة عليهم إلا أن بني أمية كانوا أكثر عدداً من بني هاشم وأوفر رجالاً، والعزة إنما هي بالكثرة، قال الشاعر: وإنما العزة للكاثر.

وكان لهم قبيل الإسلام شرف معروف انتهى إلى حرب بن أمية وكان رئيسهم في حرب الفجار. وحدث الإخباريون أن قريشاً تواقعوا ذات يوم وحرب هذا مسند ظهره إلى الكعبة فتبادر إليه غلمة منهم ينادون يا عم أدرك قومك، فقام يجر إزاره حتى أشرف عليهم من بعض الربا ولوح بطرف ثوبه إليهم أن تعالوا فبادرت الطائفتان إليه بعد أن كان حمي وطيسهم.

ولما جاء الإسلام دهش الناس لما وقع من أمر النبوة والوحي وتنزل الملائكة، وما وقع من خوارق الأمور ونسي الناس أمر العصبية مسلمهم وكافرهم. أما المسلمون فنهاهم الإسلام عن أمور الجاهلية كما في الحديث « أن الله أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وفخرها لأننا وأنتم بنو آدم وآدم من تراب » . وأما المشركون فشغلهم ذلك الأمر العظيم عن شأن العصائب وذهلوا عنه حيناً من الدهر.

ولذلك لما افترق أمر بني أمية وبني هاشم بالإسلام. إنما كان ذلك الافتراق بحصار بني هاشم في الشعب لا غير. ولم يقع كبير فتنة لأجل نسيان العصبيات والذهول عنها بالإسلام حتى كانت الهجرة وشرع الجهاد. ولم يبق إلا العصبية الطبيعية التي لا تفارق وهي بعزة الرجل على أخيه وجاره في القتل والعدوان عليه فهذه لا يذهبها شيء ولا هي محظورة بل هي مطلوبة ونافعة في الجهاد والدعاء إلى الدين. ألا ترى إلى صفوان بن أمية وقوله عندما انكشف المسلمون يوم حنين وهو يومئذ مشرك في المدة التي جعل له رسول الله ﷺ، فقال له أخوه: ألا بطل السحر اليوم؟ فقال له صفوان: اسكت! فض الله فاك لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن.

ثم إن شرف بني عبد مناف لم يزل في بني عبد شمس وبني هاشم. فلما هلك أبو طالب وهاجر بنوه مع رسول الله ﷺ وحمزة كذلك. ثم من بعده العباس والكثير من بني عبد المطلب وسائر بني هاشم خلا الجو حينئذ من مكان بني هاشم بمكة واستغلظت رياسة بني أمية في قريش، ثم استحكمتها مشيخة قريش من سائر البطون في بدر وهلك فيها عظماء بني عبد شمس: عتبة وربيعة والوليد وعقبة بن أبي معيط وغيرهم. فاستقل أبو سفيان بشرف بني أمية والتقدم في قريش، وكان رئيسهم في أُحدٍ وقائدهم في الأحزاب وما بعدها.

ولما كان الفتح قال العباس للنبي ﷺ لما أسلم أبو سفيان ليلتئذ، كما هو معروف وكان صديقاً له: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له ذكراً، فقال: « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » ثم منَّ على قريش بعد أن ملكهم يومئذ وقال: « اذهبوا فأنتم الطلقاء » وأسلموا.

وشكت مشيخة قريش بعد ذلك لأبي بكر ما وجدوه في أنفسهم من التخلف عن رتب المهاجرين الأولين، وما بلغهم من كلام عمر في تركه شوارهم فاعتذر لهم أبو بكر وقال: أدركوا إخوانكم بالجهاد وانفذهم لحروب الردة فأحسنوا الغناء عن الإسلام وقوموا الأعراب عن الحيف والميل. ثم جاء عمر فرمى بهم الروم وأرغب قريشاً في النفير إلى الشام فكان معظمهم هنالك. واستعمل يزيد بن أبي سفيان على الشام وطال أمد ولايته إلى أن هلك في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة فولى مكانه أخاه معاوية وأقره عثمان من بعد عمر فاتصلت رياستهم على قريش في الإسلام برياستهم قبيل الفتح التي لم تحل صبغتها ولا ينسى عهدها أيام شغل بني هاشم بأمر النبوة ونبذوا الدنيا من أيديهم بما اعتاضوا عنها من مباشرة الوحي وشرف القرب من الله برسوله.

وما زال الناس يعرفون ذلك لبني أمية. وانظر مقالة حنظلة بن زياد الكاتب لمحمد بن أبي بكر: أن هذا الأمر إن صار إلى التغالب غلبك عليه بنو عبد مناف.

ولما هلك عثمان واختلف الناس على عليٍّ كانت عساكر علي أكثر عدداً لمكان الخلافة والفضل إلا أنها من سائر القبائل من ربيعة ويمن وغيرهم. وجموع معاوية إنما هي جند الشام من قريش شوكة مضر وبأسهم نزلوا بثغور الشام منذ الفتح فكانت عصبيته أشد وأمضى شوكة. ثم كسر من جناح عليٍّ ما كان من أمر الخوارج وشغله بهم إلى أن ملك معاوية وخلع الحسن نفسه واتفقت الجماعة على بيعة معاوية في منتصف سنة إحدى وأربعين عندما نسي الناس شأن النبوة والخوارق ورجعوا إلى أمر العصبية والتغالب وتعين بنو أمية للغلب على مضر وسائر العرب ومعاوية يومئذ كبيرهم.

فلم تتعده الخلافة ولا ساهمه فيها غيره فاستوت قدمه واستفحل شأنه واستحكمت في أرض مصر رياسته وتوثق عقده. وأقام في سلطانه وخلافته عشرين سنة ينفق من بضاعة السياسة التي لم يكن أحد من قوقه أوفر فيها منه يداً من أهل الترشيح من ولد فاطمة وبني هاشم وآل الزبير وأمثالهم ويصانع رؤوس العرب وقروم مضر بالإغضاء والاحتمال والصبر على الأذى والمكروه. وكانت غايته في الحلم لا تدرك وعصابته فيها لا تنزع ومرقاته فيها تزل عنها الأقدام.

ذكر أنه مازح عدي بن حاتم يوماً يؤنبه بصحبة علي فقال له عدي: والله إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا وإن السيوف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا ولئن أدنيت إلينا من الغدر شبراً لندنين إليك من الشر باعاً وإن حز الحلقوم وحشرجة الحيزوم، لأهون علينا من أن نسمع المساءة في عليٍّ فشم السيف يا معاوية يبعث السيف. فقال معاوية: هذه كلمات حق فاكتبوها وأقبل عليه ولاطفه وتحادثا وأخباره في الحلم كثيرة.

بعث معاوية العمال إلى الأمصار

لما استقلّ معاوية بالخلافة عام عدم الجماعة بعث العمال إلى الأمصار، فبعث على الكوفة المغيرة بن شعبة. ويقال إنه ولى عليها أولاً عبد الله بن عمرو بن العاص فأتاه المغيرة متصحاً وقال عمرو بمصر وابنه بالكوفة فأنت بين نابي أسد فعزله وولى المغيرة. وبلغ ذلك عمراً فقال لمعاوية: يختان المال فلا تقدر على رده فعد فاستعمل من يخافك. فنصب المغيرة على الصلاة وولى على الخراج غيره، وكان على القضاء شريح.

ولما ولّى المغيرة على الكوفة استعمل كُثَيِّر بن شهاب على الري وأقره زياد بعده. وكان يغزو الديلم. ثم بعث على البصرة بسر بن أرطأة وكان قد تغلب عليها حمران بن زيد عند صلح الحسن مع معاوية فبعث بسراً عليها فخطب الناس وتعرض لعلي. ثم قال: نشدت الله رجلاً يعلم أني صادق أو كاذب ولا صدقني أو كذبني. فقال أبو بكرة: اللّهم لا نعلمك إلا كاذباً فأمر به فخنق. فقام أبو لؤلؤة الضبي فدفع عنه. وكان على فارس من أعمال البصرة زياد ابن أبيه. وبعث إليه معاوية يطلبه في المال فقال: صرفت بعضه في وجهه واستودعت بعضه للحاجة إليه وحملت ما فضل إلى أمير المؤمنين رحمه الله. فكتب إليه معاوية بالقدوم لينظر في ذلك فامتنع. فلما ولي بسر على البصرة جمع عنده أولاد زياد والأكابر عبد الرحمن وعبد الله وعباد وكتب إليه لتقدمن أو لأقتلن بنيك فامتنع واعتزم بسر على قتلهم فأتاه أبو بكرة وكان أخا زياد لأمه فقال: أخذتهم بلا ذنب.

وصالح الحسن على أصحاب علي حيث كانوا فأمهله بسر إلى أن يأتي بكتاب معاوية. ثم قدم أبو بكرة على معاوية وقال: إن الناس لم يبايعوك على قتل الأطفال وإن بسراً يريد قتل بني زياد! فكتب إليه بتخليتهم وجاء إلى البصرة يوم المهاد ولم يبق منه إلا ساعة وهم موثقون للقتل فأدركهم وأطلقهم انتهى.

ثم عزل معاوية بسراً عن البصرة وأراد أن يولي عتبة بن أبي سفيان فقال له ابن عامر: إن لي بالبصرة أموالاً وودائع وإن لم تولني عليها ذهبت. فولاه وجعل إليه معها خراسان وسجستان وقدمها سنة إحدى وأربعين فولي على خراسان قيس بن الهيثم السلمي وكان أهل بلخ وباذغيس وهراة وبوشنج قد نضوا، فسار إلى بلخ وحاصرها حتى سألوا الصلح وراجعوا الطاعة. وقيل إنما صالحهم الربيع بن زياد سنة إحدى وخمسين على ما سيأتي.

ثم قدم قيس على ابن عامر فضربه وحبسه وولى مكانه عبد الله بن حازم، وقدم خراسان فأرسل إليه أهل هراة وباذغيس وبوشنج في الأمان والصلح فأجابهم وحمل لابن عامر مالاً انتهى. ثم ولى معاوية سنة اثنتين وأربعين على المدينة مروان بن الحكم وعلى مكة خالد بن العاص بن هشام. واستقضى مروان عبد الله بن الحارث بن نوفل وعزل مروان عن المدينة سنة تسع وأربعين وولى مكانه سعيد بن العاص وذلك لثمان سنين من ولايته. وجعل سعيد على القضاء ابن عبد الرحمن مكان عبد الله بن الحارث ثم عزل معاوية سعيد سنة أربع وخمسين ورد إليها مروان.

قدوم زياد

وكان زياد قد امتنع بفارس بعد مقتل علي كما قدمناه وكان عبد الرحمن ابن أخيه أبي بكرة يلي أمواله بالبصرة ورفع إلى معاوية أن زياداً استودع أمواله عبد الرحمن فبعث إلى المغيرة بالكوفة أن ينظر في ذلك فأحضر عبد الرحمن وقال له: إن يكن أبوك أساء إلي فقد أحسن عمك وأحسن العذر عند معاوية.

ثم قدم المغيرة على معاوية فذكر له ما عنده من الوجل باعتصام زياد بفارس فقال: داهية العرب معه أموال فارس يدبر الحيل فما آمن أن يبايع لرجل من أهل البيت ويعيد الحرب خدعة، فاستأذنه المغيرة أن يأتيه ويتلطف له ثم أتاه وقال: إن معاوية بعثني إليك وقد بايعه الحسن ولم يكن هناك غيره فخذ لنفسك قبل أن يستغني معاوية عنك. قال: أشر علي والمستشار مؤتمن. فقال: أرى أن تشخص إليه وتصل حبلك بحبله وترجع عنه. فكتب إليه معاوية بأمانه.

وخرج زياد من فارس نحو معاوية ومعه المنجاب بن رابد الضبي وحارثة بن بدر الغداني، واعترضه عبد اللّه بن حازم في جماعة وقد بعثه ابن عامر ليأتيه به. فلما رأى كتاب الأمان تركه وقدم على معاوية فسأله عن أموال فارس فأخبره بما أنفق وبما حمل إلى علي وبما بقي عنده مودعاً للمسلمين فصدقه معاوية وقبضه منه. ويقال: إنه قال له: أخاف أن تكون مكروباً بي فصالحني فصالحه على ألفي ألف درهم بعث بها إليه واستأذنه في نزول الكوفة فأذن له. وكان المغيرة يكرمه ويعظمه وكتب إليه معاوية أن يلزم زياداً وحجر بن عدي وسليمان بن صرد وسيف بن ربعي وابن الكوا وابن الحميق بالصلاة في الجماعة فكانوا يحضرون معه الصلوات.

عمّال ابن عامر على الثغور

لما ولي ابن عامر على البصرة استعمل عبد الرحمن بن سمرة على سجستان فأتاها وعلى شرطتها عباد بن الحصين ومعه من الأشراف عمر بن عبيد اللّه بن معمر وغيره. وكان أهل البلاد قد كفروا. ففتح أكثرها حتى بلغ كابل وحاصرها أشهراً ونصب عليها المجانيق حتى ثلم سورها ولم يقدر المشركون على سد الثلمة. وبات عباد بن الحصين عليها يطاعنهم إلى الصبح، ثم خرجوا من الغد للقتال فهزمهم المسلمون ودخلوا البلدة عنوة اهـ.

ثم سار إلى نسف فملكها عنوة ثم إلى حسك فصالحه أهلها ثم إلى الرخج فقاتلوه وظفر بهم وفتحها اهـ. ثم إلى زابلستان وهي غزنة وأعمالها ففتحها ثم عاد إلى كابل وقد نكث أهلها ففتحها اهـ. واستعمل على ثغر الهند عبد اللّه بن سوار العبدي، ويقال: بل ولاه معاوية من قبله فغزا التيعان فأصاب مغنماً ووفد على معاوية وأهدى له من خيولها، ثم عاد إلى غزوهم فاستنجدوا بالترك وقتلوه، وكان كريماً في الغاية. يقال: لم يكن أحد يوقد النار في عسكره، وسأل ذات ليلة عن نار رآها فقيل له خبيص يصنع لنفساء فأمر أن يطعم الناس الخبيص ثلاثة أيام.

واستعمل على خراسان قيس بن الهيثم فتغافل بالخراج والهدنة فولى مكانه عبد اللّه بن حاتم. فخاف قيساً وأقبل فزاد ابن عامر غضباً لتضييعه الثغر وبعث مكانه رجلاً من يشكر وقيل: أسلم بن زرعة الكلابي اهـ.

ثم بعث عبد اللّه بن حازم وقيل: إن ابن حازم قال لابن عامر: إن قيساً لا ينهض بخراسان وأخاف إن لقي قيس حرباً أن ينهزم ويفسد خراسان، فاكتب لي عهداً إن عجز عن عدو قمت مقامه. فكتب وخرجت خارجة من طخارستان فأشار ابن حازم عليه أن يتأخر حتى يجتمع عليه الناس فلما سار غير بعيد أخرج ابن حازم عهده وقام بأمر الناس وهزم العدو. وبلغ الخبر إلى الأمصار فغضبت أصحاب قيس وقالوا: خدع صاحبنا، وشكوا إلى معاوية فاستقدمه فاعتذر فقبل منه، وقال له: أقم في الناس بعذرك ففعل اهـ. وفي سنة ثلاث وأربعين توفي عمرو بن العاص بمصر فاستعمل معاوية عبد اللّه ابنه.

عزل ابن عامر

وكان ابن عامر حليماً ليناً للسفهاء فطرق البصرة الفساد من ذلك. وقال له زياد: جرّد السيف فقال: لا أصلح الناس بفساد نفسي. ثم بعث وفداً من البصرة إلى معاوية فوافقوا عنده وفد الكوفة ومنهم ابن الكوا وهو عبد اللّه بن أبي أوفى اليشكري. فلما سألهم معاوية عن الأمصار أجابه ابن الكوا بعجز ابن عامر وضعفه فقال معاوية: تكلم على أهل البصرة وهم حضور، وبلغ ذلك ابن عامر فغضب وولى على خراسان من أعداء ابن الكوا عبد اللّه بن أبي شيخ اليشكري أو طفيل بن عوف فسخر منه ابن الكوا لذلك وقال: وددت أنه ولى كل يشكري من أجل عداوتي.

ثم إن معاوية استقدم ابن عامر فقدم وأقام أياماً فلما ودعه قال: إني سائلك ثلاثاً قال هن لك، قال: ترد علي عملي ولا تغضب وتهب لي مالك بعرفة ودورك بمكة، قال: قد فعلت. قال: